تامر أبو عرب

العبد

رواية

كيان

العبد

رواية

العبد

رواية

تأليف :

تامر أبو عرب

تصميم الغلاف:

عبد الرحمن الصواف

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية:

محمد حمدي

رقم الإيداع: 2016/22454

الترقيم الدولي: 978-977-820-005-8

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235611772 -0235688678

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

العبد

تامر ابو عرب

رواية

إهداء

إلي نرمين ..

-١-

مضت الدقائق كئيبة باردة وأنا أنتظر وصول السيارة التي ستقل جثمان أبي ليوارى الثرى في القرية التي وُلد فيها، وتعيش فيها عائلته بكفر الشيخ، بناء على وصية كان يكررها كلما أصيب بأي نوع من الأمراض، حتى لو كان مجرد نزلة برد. وقفت شاردًا وقد أسندت ظهري على مدخل العمارة، وبدأت الذكريات تمر أمام عيني متسارعة؛ لا أكاد ألتقط واحدة حتى تتداخل معها ذكرى جديدة.

لم يكن بالنسبة لي مجرد أب كما لم أكن له مجرد ابن، كنت الذكر الوحيد على ثلاث بنات، لذلك اعتبرني أحد إخوته الذين تركهم في كفر الشيخ وعاش أغلب حياته بعيدا عنهم، وأحد أصدقائه الذين اضطر تحت ضغوط الحياة للتقليل في مودتهم، بالرغم من أنه دللني كثيرًا، كان يتحول إلى شخص آخر إذا أتيت تصرفًا يهز صورة الرجل الذي رسمها لي منذ كنت في المرحلة الابتدائية، وإذا حاولت أمي تهدئته صرخ فيها:

- هو حتة عيل واحد اللي طلعنا بيه من الدنيا.. عايزاه يخيب ويبقى البنت الرابعة؟

رأيته يبكي أول مرة عندما نجحت في الثانوية العامة بمجموع ٩٩،٤٪، احتضنني بقوة وقال:

- لو مت دلوقتي مش هبقى قلقان على أمك واخواتك لأني سايب لهم راجل ودكتور قد الدنيا.

التحقت بكلية الطب لإرضائه فقط، لأن ميولي كانت تتجه نحو الأدب منذ الطفولة، قرأت روايات نجيب محفوظ وطه حسين ويوسف السباعي وأنا في المرحلة الإعدادية، وكنت أتمنى أن أكون شاعرا أو روائيا أو صحفيا، لكنني لم أجرؤ على مصارحة أبي بهذه الرغبة، لأنني أعرف أنه يعيش منذ سنوات طويلة على أمل أن يراني طبيبا، كغالبية الأسر المصرية التي اختصرت التفوق والنبوغ في دخول كلية الطب.

- البقية في حياتك يا دكتور. والله الوالد كان أكتر من أخ وربنا يعلم أنا كنت بحبه قد إيه.

قطع عم إبراهيم شريط الذكريات الذي كاد ينسيني أن والدي ممدد بالأعلى في انتظار نقله إلى مثواه الأخير، فتنبهت إلى الظرف الذي أقف فيه وأجبت:

- حياتك الباقية يا عم إبراهيم، مانجيلكش في حاجة وحشة.

- كان نفسي أروح معاكم البلد والله، بس انت عارف الحاجة تعبانة ومبقدرش أسيبها لوحدها.

- عارف والله ولا يهمك، كأنك جيت بالضبط.

- طيب شد حيلك يا حبيبي ولو عُزت حاجة كلمني في التليفون على طول.

- إن شاء الله.

احتضنني بقوة وهم بالانصراف وتبعته ببصري حتى خرج من الشارع، وقد كرهت هذا الموقف الذي يجعلني مضطرا لسماع مجاملات كاذبة وتأثر مصطنع بدأ منذ انتشار خبر الوفاة وتوافد المعزين. عم إبراهيم كان بينه وبين والدي ما صنع الحداد

وجمعهما عداء واضح منذ كنت طفلاً، فعم إبراهيم ميكانيكي كسول سليط اللسان، وكثيرا ما تشاجر مع أبي ووصل الأمر أكثر من مرة إلى التشابك بالأيدي بسبب السيارات التي يرصها أمام ورشته وبطول الشارع، حتى لا يجد أبي مكانا يصف فيه سيارته، وهنا تبدأ المعركة التي لا تنتهي غالبا إلا بتدخل الجيران.

في أحد الأيام سألت والدي عن سبب تنقله بين الميكانيكية لإصلاح سيارته، بينما يمكنه أن يستريح ويصلحها في ورشة إبراهيم الموجودة في نفس الشارع، فأجابني بحسم:

- أنا أودي عربيتي للراجل الواطي ده! ده انا ارميها في أقرب خرابة ولا إني أحتاج له.

- يا عم إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي.

- إنت فاكر اني لو وديتها له هاستريح؟ ده لكع وبيركن العربية عنده بالشهر والاتنين، وهافضل انا بقى متشحط في المواصلات لحد ما الدكتور إبراهيم يتكرم عليا ويصلح لي العربية.

نفس الأمر تكرر مع عم عطوان البقال، الذي جاءني معزيًا والدموع تملأ عينيه، وهو الذي قاطع أبي تمامًا ولم يعد حتى يلقي عليه السلام، منذ رفض تزويج أختي الكبيرة أميرة لابنه جمال، ووصل الأمر إلى عدم زيارته أبي في مرضه الأخير، ولا أعرف هل يُنسي جلال الموت الخلافات القديمة، أم أن الكذب بات هو الرياضة المفضلة للبشر؟

أنقذتني سيارة دخلت الشارع وعليها لوحات «تحت الطلب جيزة»، فقد كنت على مشارف الغياب عن الوعي بسبب الأفكار المتلاحقة والذكريات المتداخلة، مع الإرهاق وقلة الطعام وكثرة

الدموع التي انهمرت من عيني منذ أسلم أبي روحه بين يديّ، فقد كانت سكرات الموت شديدة جدًا عليه، حتى كادت رعشته الأخيرة التي سكن بعدها للأبد تَخرج بروحينا معًا.

توقفت السيارة أمام مدخل العمارة ونزل منها أحمد زوج شقيقتي الوسطى سحر، ثم هرول نحوي قائلا:

- ماعلش اتأخرت عليك بس دُخت على ما لقيت عربية.

حركت رأسي موافقًا دون أن أتكلم، وسبقته إلى الشقة حيث دخلت الغرفة التي يوجد بها الجثمان الملفوف في كفن نقعه أبي في ماء زمزم عندما أدى فريضة الحج قبل ثلاثة أعوام، ومن فوقه غطاء جديدًا كان في جهاز شقيقتي الصغرى آية، لكن أمي أخرجته حتى لا يُلَف جثمان رفيق عمرها في غطاء قديم، وبرغم أنني لم أفهم منطقها في التعامل مع جسد سيوارى التراب بعد ساعات، فإنني أيضا لم أكن مستعدا للدخول في مناقشات من أي نوع، وهي أيضا كذلك.

وقفت عند الرأس، ووقف أسامة زوج أميرة عند القدمين، وأحمد زوج سحر وعمي شحاتة وابنه هيثم في المنتصف، استأذنَت أمي ودخلت في ثبات، طبعت على جبهة أبي قبلة الوداع ومن خلفها جاءت شقيقاتي الثلاث وفعلن مثلها، وعندما رفعنا الجثمان خرجت منهن صرخات مكتومة، وامتلأت الشقة بأصوات النحيب والصراخ من أمي وشقيقاتي وعماتي وخالاتي، ونساء أخريات لم أرهن من قبل.

نزلنا درجات السلم بحذر خوفا من انزلاق أحدنا، وعندما وصلنا إلى باب العمارة كان سائق السيارة ومعه شخص آخر جاهزين بالصندوق الخشبي، وضعنا الجثمان فيه برفق، وبسرعة

وضعنا الصندوق داخل السيارة، وأعطيت مفاتيح سيارتي لأسامة ليأتي بأمي وشقيقاتي، وصعدت على مقعد مواجه للصندوق، وتحركت السيارة وخلفها عدد كبير من السيارات لأقارب وأصدقاء أصروا على حضور مراسم الدفن في كفر الشيخ.

بعد تحرك السيارة بدقائق اكتشفت أن المقعد الخشبي الذي أجلس عليه غير مريح بالمرة، ويزيد الأمر سوءا رؤوس المسامير البارزة من أطرافه، تأكدت أن الرحلة ستكون شاقة وستُكسر عظامي قبل أن نصل إلى مقصدنا البعيد، لكني حاولت تناسي ذلك وأخرجت مصحفا صغيرا من جيبي بحثت فيه عن سورة «يس» وبدأت في القراءة:

«يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ...».

-٢-

بعد أن انتهينا من مراسم الدفن وقفنا في صف على مدخل المقابر أنا وأعمامي الثلاثة، وعدد من الأقارب ورجال العائلة، لتوديع المشيعين واستقبال كلمات التعزية، وكنت منذ وصلت إلى القرية قد سلمت نفسي تماما لأعمامي بناء على طلبهم، باعتباري غريبًا لا أعرف عادات وتقاليد المكان، انتظم المشيعون في صفوف وبدأت حفلة احتضان وتقبيل مرفقة بسيل من كلمات المدح في المرحوم وأخلاقه وسيرته ودعوات بالصبر والثبات، ولم أكن أقابل كل ذلك إلا بجملة متكررة:

- شكر الله سعيك. شكر الله سعيك. شكر الله سعيك.

في هذا الوقت لفت نظري في مدخل المقابر حوش ضخم، تتربع أعلى بابه رخامة كبيرة الحجم مكتوب عليها «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي». هنا يرقد مراد بك عبد القادر. انتقل إلى جوار ربه يوم ١١ أكتوبر ١٩٦٤»، وبجانب الحوش كان هناك قبر آخر قديم مبني بالطوب اللبن لا يرتفع كثيرا عن سطح الأرض لكنه يحظى بشكل مميز أقرب إلى الضريح، وتلتف حوله مجموعة من النساء بصرر وأوان، ومكتوب على جداره بخط رديء «ضريح العارف بالله يوسف عبد الميت».

- عبد الميت؟

سيطرت عليّ غرابة الاسم لدقائق، فأخذت أسلم على

المشيعين دون أن أركز فيما يقولونه ودون أن أرد عليهم، تملكني فضول رهيب لمعرفة صاحب هذا القبر وسبب تسميته بهذا الاسم، وكنت أتعجل انتهاء هذه المراسم المملة لأسأل أحدا من أقاربي عن حكايته التي يبدو أنها ستكون متفردة ومختلفة، كاختلاف وتفرد اسم صاحبها «عبد الميت».

مع آخر مشيع أمسك عمي حسن يدي برفق، وقال:

- تعالى بقي نريح في البيت شوية وناكل لقمة.. وبعدين نبقى نطلع على المضيفة بعد العصر.

وافقت بتسليم من لا يملك خيارًا آخر، وألقيت نظرة أخيرة على الحوش والقبر الملتصق بأسواره متعجلاً كشف هذا اللغز.

في بيت عمي حسن تحلق رجال العائلة حول ٣ طبليات، عليها طواجن الأرز المعمر والبطاطس والفاصوليا الخضراء وأطباق السلطة، وعلى كل طبلية فرخة محمرة وطبق كبير مملوء باللحم، أكل أعمامي بشراهة وشطر عمي شحاتة فرخة نصفين وضع أحدهما أمامي، وقال:

- كل كويس عشان تقدر تقف في المضيفة، اليوم لسه طويل.

حاولت دفع الطعام في فمي أكثر من مرة، لكن فقدان الشهية منعني من تكرار المحاولة، ورغم أن آخر لقمة دخلت جوفي كانت من حوالي ١٦ ساعة فإن الإرهاق كان يعتصر كل عضلة في جسدي، وجعل رغبتي في الراحة تطغى على رغبتي في تناول الطعام.

قمت لغسل يدي ولم تفلح محاولات أعمامي ومطالبتهم لي بإكمال غدائي أمام إصراري على القيام، دخلت الحمام

ووضعت رأسي تحت الماء البارد المندفع من الحنفية، فبدأت الأسئلة تعصف برأس يغمره الماء؛ كيف سأعود إلى المنزل ولا أجد أبي فيه؟ ومن الشخص الذي يمكن أن يحل محله ويصبح وعاء لأسراري وناصحا أمينا لي وقد سبق واستغنيت به عن الأصدقاء؟ وهل ستقبل أمي بالقدوم إلى شقتي أم ستصر على الإقامة في بيتها؟ وإذا أصرت، كيف يمكن أن أطمئن عليها وقد أصبح البيت الذي كان مزدحما بزوج وأربعة أبناء فارغا إلا من آية التي ستتزوج بدورها بعد شهور؟ وكيف سأتحمل الوقوف في المضيفة حتى المساء وأنا متعب من الآن؟ ومن هو عبد الميت وما هي قصته؟

أغلقت الحنفية أخيرا وجففت رأسي بمنشفة كانت معلقة على مسمار خلف الباب، ثم خرجت لأسلم نفسي مجددًا إلى أعمامي يسيّروني كيفما شاؤوا وشاءت تقاليد ما وُجدت إلا لتضاعف لنا العذاب، فبعد فقدان الأعزاء يكون الانفراد بالنفس والتفكير فيما يحمله المستقبل أولى من الوقوف بالساعات لتلقي كلمات إنشائية ومراقبة حزن مُصطنع على وجه من يعرف الميت ومن لا يعرفه، من يحبه فعلا ومن يكرهه، من تأثر لرحيله ومن يتمنى له أن يموت ألف مرة ليذوق العذاب.

في العاشرة مساء عدنا من المضيفة إلى منزل عمي شحاتة الذي أصر على أن أبيت عنده، بينما باتت زوجتي سارة التي لم أرها منذ خرجنا من القاهرة مع أمي وشقيقاتي وبقية السيدات في منزل عمي حسن، دخلنا غرفة كبيرة تلتصق الأرائك بجميع حوائطها فارتميت على أريكة منها وبجانبي هيثم، أقرب أبناء عمومتي إليّ بحكم دراسته في كلية التجارة بجامعة القاهرة وتردده

كثيرًا على شقتنا في الجيزة ومشاركته لي الغرفة عندما كان يبيت.

أما عمي شحاتة حاد الملامح والطباع، يحب أن يقوم بدور كبير العائلة منذ وفاة جدي رغم أن ترتيبه هو الثاني بين إخوته الذكور، إذ يكبره أبي في السن ويأتي بعده أعمامي حسن وعاطف، وفي أثناء توزيع الميراث حدثت مشكلة كبيرة بين أبي وعمي شحاتة، بعد نجاح الأخير في اشتراء نصيب إخوته البنات مقابل أموال زهيدة، وإصراره على اشتراء نصيب أبي في بيت العائلة بنفس الطريقة، باعتباره يقيم في القاهرة ولا يزور القرية إلا في الأعياد والمناسبات.

تنازل أبي عن نصيبه مكرهًا، لعدم رغبته في خسارة شقيقه وإحداث شرخ في العائلة، وإن كانت هذه الواقعة قد جعلته يشعر بغصة دائمة بسبب انحياز عماتي إلى شحاتة في هذه الأزمة، بخلاف الطريقة السيئة التي عامله بها عمي حتى تنازل له عن نصيبه في البيت مقابل ١٠ آلاف جنيه فقط، دفعها له على ٥ دفعات.

جلس عمي شحاتة على أريكة مقابلة وقال لي:

- قعدنا نتحايل على ابوك بعد ما طلع معاش ييجي يبني له حتة بيت هنا ويقعد وسطنا في أواخر أيامه، لكن سبحان الله كل اللي بيسافروا مصر مابيحبوش ييجوا بلدهم غير عشان يتدفنوا فيها، كأن البلد دي اتكتب عليها تكون تُرب ويس.

تجنبت النظر إلى عينيه فتظاهرت بالانشغال بقراءة أمر في الموبايل، ثم قلت:

- الله يرحمه يا عمي، هو كان عايز يموت في الشقة اللي قضى

فيها حياته كلها، وفي وسط الناس اللي بيحبهم ويحبوه.

واصل حديثه كأنني لم أقل شيئا:

- كان نفسي يعيش له يومين وسط اخواته اللي اتحرموا منه طول حياته، لكن هنقول ايه، أمر الله نافذ، وهو الله يرحمه كان حابب الغربة ماعرفش على إيه.

وضعت الموبايل بجانبي، ونظرت إليه في غيظ قائلا:

- كان هييجي يقعد فين هنا يا عمي؟ ما هو ماعادش له حاجة في البلد.

- ماعادلوش حاجة ازاي يعني؟ كان جه قعد معايا هنا في البيت وانا كنت شلته على راسي.

- وليه كان هيسيب مكانه ويقعد عند حد؟ بيته أولى بيه.

- وهو انا حد برضه يا دكتور خالد؟ ده انا أخوه شقيقه واللي هنا كلهم أهله من لحمه ودمه، ولا هو علّمك تكون براوي ومالكش خير في أهلك؟

تدخل هيثم لاحتواء مشادة بدت وشيكة:

- خلاص يا حاج الكلام ده فات أوانه، هو دلوقتي بين إيدين اللي خلقه وماتجوزش عليه إلا الرحمة.

- على رأيك يا بني الله يرحمه ويغفر له، مالوش لازمة الكلام.

حاولت امتصاص غضبي، لأحافظ على صلة الرحم التي حافظ عليها أبي في أشد أوقات غضبه من أشقائه:

- البركة فيك يا عمي، انت دلوقتي في مقام أبويا الله يرحمه واحنا كلنا أولادك.

اعتدل عمي شحاتة في جلسته وانفرجت أساريره بما قلت، فرد:

- طبعا كلكم ولادي، ولو احتجتني في أي يوم وضربت لي هاتف بس هتلاقيني بعد ساعتين زمن معاك وفي ضهرك انت واخواتك.

كان عمي محقا في ما يقوله، فهو رغم كل شيء معروف عنه أنه «صاحب واجب»، فرغم تجاوزه الستين بعامين كان يتكبد مشقة السفر لأي مكان وحل أي مشكلة يتعرض لها أعمامي أو عماتي أو أولادهم أو زوجاتهم، كما يحكّمه جميع أقاربنا بل وبعض العائلات الأخرى للفصل في النزاعات والسيطرة على المشاجرات، يحترم الجميع كلمته ويرضون بحكمه أيا كان، حاولت تغيير مسار الحديث فسألته:

- إلا صحيح يا عمي، مين عبد الميت ده؟

- هو أبوك ماحكاش ليك عنه؟ يا بني ده أشهر حاجة في بلدنا، أشهر من البلد نفسها.

- لا والله ماجاتش فرصة، وانت عارف ابويا ماكانش بيحب يتكلم كتير عن البلد، علشان كان بيفتكرها ويزعل.

- آه.. أومال عرفته ازاي؟

- أبدا شفت تُربته واحنا بندفن ولفت نظري الاسم.

- لا دي حكاية طويلة مش هينفع نفتحها دلوقتي عشان احنا كلنا تعبانين وعاوزين ننام ونريح جسمنا شوية، قوم البس أي حاجة من هدوم أخوك هيثم وارتاح، وأنا هابقى أحكي لك حكايته من طقطق لسلام عليكم.

وجدته حلا مناسبا لأنني أرغب بشدة في النوم والحصول على إجازة قصيرة من الإرهاق الجسدي والنفسي، وفي نفس الوقت

ضمنـت أنـني سـأعرف بعـد سـاعات قصـة الرجـل الـذي شـغلني اسـمه وحكايتـه منـذ رأيـت ضريحـه الغريـب.

-٣-

كان مراد بك على فراش الموت، بينما يجثو يوسف على ركبتيه باكيا بحرقة وتخرج منه آهات متتالية لا يستطيع كبحها، يمسك بيد سيدُه يتحسسها تارة ويقبلها أخرى، كأنه يريد أن يشبع عينيه برؤية الرجل الذي عاش عمره كله تحت قدميه، ويُشبع جلده بلمسه لأطول فترة ممكنة.

فتح الرجل السبعيني عينيه بصعوبة وحرّك شفتيه بمعاناة، فانتفض يوسف وكأنه بُعث من جديد، فها هو مراد يعود مرة أخرى إلى الدنيا، ربما كان في غيبوبة مؤقتة وأفاق منها، وقد يقوم بعد عدة ساعات ليتحرك فى أرجاء قصره الكبير، مستندا على عصاه التي كثيرا ما أشبعه بها ضربا، لكن الخادم الأمين مستعد لنسيان كل الإساءات السابقة وتقبل المزيد، بشرط أن يعود سيده إلى الحياة.

أوقف أفكار يوسف صوت ضعيف خرج من مراد بك:

- يوسف.

- أؤمرني يا سيدي، خدامك.

- قرب مني عايز أقولك على حاجة مهمة.

وقف يوسف ثم ركع ليدنو بأذنيه من فم مراد بك، وقال بصوت متهدج:

- نعم يا سعادة البيه.

- من سنة وشوية حسيت إن أجلي قرب، وسألت نفسي يا ترى

بعد ما أموت فلوسي وأرضي دي كلها هتروح لمين وأنا ماليش ولاد؟ أكيد هتروح لولاد عمي اللي عمرهم ما ودوني ومستنيين موتي من سنين، ده غير خناقات أبوهم مع أبويا زمان على ورثهم من جدي، اللي ولاده ضيعوه بعد كده.

قاطعه يوسف قائلا:

- ربنا يديك طولة العمر يا سيدي انشالله هم اللي يموتوا كلهم، وانا كمان، وانت لأ.

نفخ مراد ونظر إلى الجهة الأخرى، ثم التفت إليه وقال بنفاد صبر :

- اسمعني من سكات وماتقاطعنيش، أنا مش قادر أناهد. المهم استدعيت الأستاذ فهمي المحامي وطلبت منه يكتب وصيتي ويسجلها في الشهر العقاري، ووصيت بنص الثروة لملاجئ الأيتام والمستشفيات والخير، وبالنص التاني ليك انت بما فيها السرايا دي.

انتفض يوسف كأن ثعبانا لدغه!

وقال متلعثمًا:

- بتقول إيه يا سيدي؟ السرايا ونص فلوسك ليا انا؟ هعمل بيهم إيه؟ يا سيدي انا مش عايز حاجة، أنا عايزك بس تقوم بألف سلامة وافضل خدامك لحد ما اموت في خيرك.

أشار إليه ليقترب مجددا:

- اسمع بس، إنت اتولدت فى السرايا دي، وأبوك الله يرحمه فضل في خدمتي وخدمة أبويا لحد ما مات، وانت معايا بتخدمني بقالك أكتر من خمسين سنة، حتى قعدت تأخر في

جوازك لحد ما فاتك القطر، كان لازم أضمن لك تعيش بقية عمرك مرتاح، ويا ريت لو تدور لك على واحدة تتجوزها وتعمل عيلة تملا عليك الدنيا، بدل ما تموت لوحدك زي كده. يا ما كان نفسي ربنا يرزقني بعيل يشيل اسمي ويورثني، لكن آدي الله وآدي حكمته.

بدأ صوت مراد يخفت وعيناه تدوران في حركة غير منتظمة قبل أن يدخل في غيبوبة جديدة، بينما كانت سعدية الخادمة تمارس هوايتها الدائمة في التجسس على كل ما يدور في السراي، كانت تمتلك حاسة سمع خرافية أكسبتها شهرة كبيرة في السراي وفي القرية كلها، حتى بات كل متناجيين يلتفتان يمينا ويسارًا ليتأكدا من أن أذني سعدية ليستا حاضرتين.

سمعت غالبية الحوار الذي دار بين البك وخادمه، لكنها لم تتمكن من سماع بعض فقراته بسبب ضعف صوت مراد، لكنها على أي حال أصبحت متأكده أنه كتب نصف ثروته بيعا واشتراء لخادمه يوسف، وبعد دقائق كان هناك مجلس حرب قد انعقد في المطبخ، برئاسة سعدية وحضور إبراهيم الطباخ وسيد الخفير ويونس السفرجي وفرج الجنايني وكوثر وهانم الخادمتين.

سيطر الذهول على الجميع وهم يسمعون سعدية تحكي تفاصيل ما دار بين مراد بك ويوسف، وبعد أن انتهت من الحكاية ساد صمت قصير قطعه يونس:

- إنتي متأكده من اللي بتقوليه ده يا سعدية ولا تكون دي تهيؤات؟

أجابه إبراهيم في هدوء:

- يعني انت مش عارف سعدية وودان سعدية؟ ما دام بتقول سمعت يبقي أكيد حصل.

ضرب يونس كفا بكف وقال:

- بس احنا عمرنا ما سمعنا إن فيه بهوات بيكتبوا ورثهم لخدامينهم أبداً، الراجل باينه مخه خف.. واحنا هنسكت على كده؟

أجاب فرج بعدما فرك ذقنه:

- وعاوزنا نعمل إيه إن شاء الله؟ على رأي المثل من حكم في ماله ما ظلم، ودي فلوس البيه وأملاكه، يكتبها ليوسف للجن الازرق هو حر.

فعاجله سيد:

- حر إيه بس وزفت إيه؟ يعني أنا المفروض بعد كده أضرب تعظيم سلام ليوسف وهو داخل وهو خارج؟ على جثتي، ده انا لو هموت من الجوع مش هاعملها.

تركت هانم الآنية التي كانت تغسلها واستدارت موجهة حديثها لسيد :

- يوسف حاف كده؟ دلوقتي بقى اسمه يوسف بيه.

ضحك الجميع بصوت مرتفع، فالتقطت كوثر طرف الحديث وقالت باستغراب:

- يوسف بيه؟ قال بطلوا ده واسمعوا ده. المهم دلوقتي انتو هترضوا تبقوا خدامين عند يوسف يؤمركم ويتأمّر عليكم؟

نظروا لبعضهم البعض في حيرة، كأن سؤال كوثر فتح عليهم باباً كانوا يتهربون من فتحه بالمزاح وإلقاء النكات، وبدأ السؤال

يتلاعب بأدمغتهم جميعا في وقت واحد، فهل سيحتملون الوضع الجديد الذي يكون فيه يوسف سيد هذا السراي وهو الذي كان حتى اليوم واحدا منهم يسري عليه ما يسري عليهم؟ وإذا لم يحتملوا فما البديل؟ وإن قبلوا فهل يقبل يوسف ببقائهم أصلا وهم سيذكّرونه بماضيه كلما نظر في وجوههم، أم يستبدل بهم خدما آخرين من خارج القرية أو من خارج كفر الشيخ كلها لا يعرفون أصله وفصله، ليمنحوه الاحترام اللازم؟

قطع إبراهيم فترة الصمت الطويلة قائلا:

- ماتستعجلوش خلينا في النهارده ولما ييجي بكرة يبقى يحلها ألف حلال.

بدت علامات الارتياح على وجه فرج، كأن ما قاله إبراهيم أنقذه من بحر الأسئلة الذي كاد يغرق فيه:

- على رأيك يا إبراهيم.. احييني النهارده وموتني بكره، وآهو البيه لسه موجود، لما ربنا يفتكره تبقى تفرج.

ردت هانم في ضيق:

- بيه إيه اللي لسه موجود يا فرج؟ ده حيالله نفس خارج ونفس داخل والسر الإلهي هيطلع كمان كام ساعة، ولا بالكتير كام يوم، لازم نبقوا عارفين من دلوقتي هنعملوا إيه عشان نبقوا عارفين راسنا من رجلينا.

توقف الجميع عن الكلام بعدما سمعوا صوت أقدام يقترب من المطبخ وإذا بالقادم عم يوسف، نظر الجميع إليه في وقت واحد منهم من كان يكتم الضحك، ومنهم من كان يكتم الغيظ، بينما دار يوسف ببصره عليهم وقال:

- متجمعين عند النبي كده ان شاء الله. إيه اللي لم الشامي ع المغربي؟

بادر إبراهيم بالإجابة:

- أبدا يا عم يوسف، أدينا كنا بنتسايروا شوية وبندعوا للبيه بالشفا.

- فيكوا الخير والله. بس يا ريت تكتروا الدعا شوية عشان البيه حالته متأخرة.

فاستجابت هانم فورًا ودَعت:

- ربنا يقومه بالسلامة ويديله طولة العمر قادر يا كريم.

أمّن يوسف على دعائها، ثم وجه حديثه ليونس:

- والنبي روح للحكيم قل له ييجي يطُل ع البيه بسرعة، عشان الغيبوبة جت له تاني بعد ما فاق شوية صغيرين.

رد بتأفف:

- ماشي هاقوم اروح له دلوقتي.

دار يوسف ببصره عليهم مجددا وهو يستغرب تجمعهم وطريقة كلامهم، ونظراتهم التي تحمل كثيرا من التلميحات، ثم أعطاهم ظهره وهم بالخروج، لكن صوت كوثر جاءه كالصاعقة:

- مبروك يا عم يوسف.

استدار يوسف فجأة ناحيتها قائلا:

- مبروك على إيه يا كوثر؟

تجاهلت نظرات زملائها الخمسة التي تكاد تفترسها وقالت:

- عرفنا ان البيه كتب لك نص أملاكه.

توجه يوسف ببصره ناحية سعدية التي هربت بعينيها في وجه كوثر، وقال:

- مش هتبطلي الخصلة السودة دي يا بت؟ إن شاء الله ربنا هيعلقك من ودانك دي في الآخرة.

قالت سعدية:

- واحنا يعني نكره لك الخير يا عم يوسف؟ طب وربنا المعبود كلنا طرنا من الفرحة لما عرفنا الخبر و...

قاطعها يوسف قبل أن تكمل كلامها:

- خبر إيه يالي ينحش خبرك؟ البيه في غيبوبة وبيخترف بكلمتين، نقوم نمسك فيهم ونعمل هيصة وفرح في الظروف دي؟

لكن فرج غالب رغبته في الصمت، وقال:

- إنت عارف ان البيه مابيقولش حاجة في الهوا يا عم يوسف، وبلاش تعمل علينا الشويتين دول كأنك ماكنتش عارف، ما دام البيه مش عاوز يكتب أملاكه لولاد عمه كان قسمهم بالعدل علينا، احنا كلنا طفحنا الكوتة في خدمته. ليه بقى يكتب لك أملاكه لوحدك.

احمر وجه يوسف وكادت عروق رقبته تنفجر من شدة الغيظ، وحاول تغيير مجرى الحديث:

- طيب يلا قوم بقى روح للحكيم وهاته في إيديك زي ما قلت لك، ومش عاوز الموضوع الأغبر ده يتفتح تاني لحد ما البيه يقوم بالسلامة.

قالها وغادر المطبخ على عجل تاركا الحيرة تعصف بالجميع، لكن يونس لم يترك فرصة للصمت ليخيم على الأجواء فقطعه قائلا:

- راجل زي التعبان. صحيح اللي تحسبه موسى يطلع فرعون.

توجه إبراهيم إلى كوثر في غيظ:

- لازم يعني تنسحبي من لسانك؟ ماينفعش تسيبي الكلمتين في بطنك شوية؟

هزت كوثر رأسها دون أن تتكلم، وردت هانم نيابة عنها:

- هو إيه اللي حصل يعني يا عم إبراهيم، ما هو الموضوع كان كده كده هيتعرف، أهو أقلّه مايبقاش فاكر اننا نايمين على ودانا ويبقى عارف اننا عارفين كل حاجة.

أجابها إبراهيم:

- طيب ياختي انتي وهي، كل واحدة تشوف شغلها، وانت يا يونس قوم يلا نادي للحكيم، وكفاية قوي اللي حصل لحد كده.

قام الجميع إلى عمله ولم يبق في المطبخ إلا إبراهيم الذي أمسك سكينا غرسها في منضدة خشبية أمامه وقال بصوت مسموع:

- يا ترى مخبي لنا إيه تاني يا مراد بيه؟

-٤-

لملم الدكتور شوقي أدواته بعدما كشف على مراد بك، بينما يوسف يترقب في قلق، انتظره حتى وضع السماعة وجهاز الضغط في حقيبته الجلدية، ثم ازدرد لعابه في توتر وسأله:

- خير يا دكتور طمني؟

- للأسف مراد بيه بيحتضر.

- بيحتضر ازاي يعني.

- يعني بيموت، الموضوع كله ساعات، ادعي له ربنا يلطف بيه ويهون عليه سكرات الموت.

انتفض عم يوسف كالمجنون وعلا صوته قائلا:

- بيموت؟ بيموت ازاي يا دكتور؟ وانت دخّلت عدتك ليه؟ اعمل له أي حاجة أبوس إيدك، سيدي ماينفعش يموت.

- أستغفر الله، يا راجل انت بتقول إيه؟ الواحد مننا لما بييجي أجله ولا ألف دكتور يقدروا يقفوا قدام إرادة ربنا.

- طيب والنبي يا دكتور ما تسيبه، خليك جنبه يمكن ربنا يقدرك وتقدر تعمله حاجة.

- يا عم يوسف باقول لك مراد بيه بيحتضر، حرام نبهدله وهو بين إيد ربنا، مافيش في إيدينا حاجة غير اننا ندعي له ربنا يرحمه ويهون عليه وبس.

حمل الطبيب حقيبته وفتح باب الغرفة وانصرف، أسند عم

يوسف ظهره على الحائط بجانب الفراش وخارت قواه حتى جلس القرفصاء ووضع كفيه على رأسه، وصمت قليلا قبل أن يقول بصوت خافت لا يسمعه غيره:

- ماتموتش يا سيدي، سايق عليك النبي ما تموت، أنا ماقدرش اعيش من بعدك ساعة واحدة، ده انا بتاعك وعايش عشانك بس وماعرفش أعمل حاجة غير إني أخدمك وأعيش تحت رجليك، ماتموتش يا بيه، ده انت سيدي وسندي وتاج راسي وماعرفش حد غيرك، لا أب ولا أخ ولا مرة ولا ابن يسألوا عليا، عمري ما زعلت منك مهما عملت، وحتى في عز قسوتك كنت حنين عليا وعارف إنك بتحبني، مين بقى هيحبني من بعدك، مين هيشوفني أصلا وأنا مش مهم لأي حد.

اعتدل في جلسته وسار على ركبتيه حتى التصق بالفراش، والتقط يد مراد بك فوضعها بين يديه وخاطبه وهو يثق أنه سيسمعه:

- إنت جامد قوي يا سيدي، إوعى تخلي المرض يقدر عليك. ده انت لا المصايب هدتك ولا البشوات الكبار قدروا عليك، ولا بتوع التأميم كسروك. قول للموت مش مراد بيه اللي يسيب الدنيا بسهولة كده. لما مراد بيه اللي يموت مين يستاهل يعيش.

شعر ببرودة يد مراد وتسليمه لقدره المحتوم، فوضعها بجانبه في رفق، وأمسك بمنشفة طوح بها في حركات هستيريه:

- امشوا من هنا، مالكوش دعوة بيه، مراد بيه مش هيموت، لو عاوزين تموتوا حد موتوني أنا، موتوا الناس كلها وهو لأ، مراد بيه ماينفعش يموت، يلا امشوا من هنا. امشوا من هنا.

بعدها خارت قواه تماما وسقطت من يده المنشفة، وسقط على الأرض مغشيا عليه.

في قطعة أرض مواجهة للسراي نُصب صوان ضخم على مساحة شاسعة، كان الصوان به مئات المقاعد لكنه بدا شبه خالٍ إلا من عدد قليل من أهالي القرية، وغاب أقاربه عن العزاء تماما، بعدما وصلهم أنه كتب نصف ثروته لخادمه وأوصى بالنصف الآخر لأعمال الخير.

كان يوسف يقف بين الخدم مطأطئ الرأس؛ لا يتصور أنه وضع سيده في التراب بيديه. اضطر للقيام بهذه المهمة الثقيلة بنفسه مع التُربي بعدما غاب كل أقاربه ومعارفه عن الجنازة ولخوفه من أن يتعامل معه التُربي بخشونه تؤلمه.

أما الخدم فكان لا يشغلهم شيء سوى وصية البك ومستقبلهم في السراي، كما كان أهل البلد يتهامسون فيما بينهم عن النعيم الذي ينتظر يوسف بعد طول شقاء، حتى سرح بعضهم بخياله فأكدوا أن يوسف هو من دفع البك لكتابة الثروة باسمه، بعدما خف عقله في أواخر أيامه وبات أقرب الناس إليه وأكثرهم احتكاكا به، بل ووصل الأمر ببعضهم للتأكيد على أن يوسف هو من وضع وسادة على وجه سيده وكتم أنفاسه لاستعجاله إلى تنفيذ الوصية.

يوسف نفسه لم يكن يفكر في شيء إلا في الأيام السوداء التي تنتظره بعد وفاة سيده، والتي زادتها هذه الوصية الملعونة سوادًا، عرف أنه سيصبح مضغة يلوكها أهل القرية والقرى المجاورة في أفواههم، لذلك كان يتجنب النظر في أعين المعزّين كي لا يرى الأسئلة التي تقفز منها والحقد غير المبرر البادي فيها.

في اليوم التالي جاء المحامي ليعلن الوصية رغم أن هذا الأمر بات تحصيل حاصل، فجميع الخدم والمترددين على السراي وأهالي القرية والقرى المجاورة على علم بكل ما فيها، ويحفظونها ربما أكثر من المحامي نفسه.

جلس المحامي في غرفة المكتب واثنان من أولاد عم مراد وثلاثة من أبنائهم، يعشمون أنفسهم بأن يكون ما سمعوه عن أمر الوصية مجرد شائعة، ووقف عم يوسف قريبا من الباب يتبادل النظرات القلقة مع أقارب البك، قرأ المحامي الوصية ليجن جنونهم بعدها، قال أحدهم إن الوصية باطلة وإن مراد كتبها في مرض الموت، لكن المحامي أكد أنه كان في كامل قواه العقلية وهو يكتب الوصية ويسجلها، وأن ذلك حدث قبل مرضه الأخير بشهور، فقام واحد منهم إلى يوسف أمسكه من طوق جلبابه بعنف وقال في غضب:

- إنت يا معفن تاخد نص تركة البيه واحنا ماناخدش حاجة؟ أكيد انت اللي خليته يعمل كده، انطق أحسن لك وقول ازاي البيه عمل كده.

لم ينطق عم يوسف بكلمة واحدة فواصل الرجل:

- خرست دلوقتي بعد ما مليت دماغه بسمك وكرهته فينا؟ بس ورحمة أبويا لأخلي أيامك الجاية كلها سودة، وما هاهنيك على مليم واحد من فلوسنا.

وقف فهمي غاضبا ووجه حديثه إلى الرجل:

- لو سمحت يا كامل بيه، ماينفعش تعمل كده، اللي انت ماسكه ده هو صاحب البيت دلوقتي، واحنا كلنا ضيوف عنده.

صدمته الكلمة فترك يوسف ونظر إلى المحامي قائلا:

- هي بقت كده؟ ماشي. نتقابل في المحكمة يا أستاذ، ماتفكرش ان الموضوع انتهى كده.

ثم اصطحب أقاربه وخرجوا والشرر يخرج من أعينهم التي لا تشي نظراتها بخير، فنظر فهمي إلى يوسف وحاول طمأنته:

- سيبك منهم يا عم يوسف، ولا يقدروا يعملوا لك حاجة.

- والله يا أستاذ فهمي ما عاوز أي حاجة من الورث ده، ولا عرفت حاجة عن الموضوع غير من البيه امبارح.

- إنت بتقول إيه يا عم يوسف؟ إنت ناسي إني محامي البيه وأكتر واحد عارف هو عمل كده ليه؟ ده غير إني عارف كمان إنك أكتر واحد خدمته وتستاهل تتمتع بخيره، تعالى عشان نكمل الإجراءات وتستلم أملاكك. بص يا سيدي، من النهارده السرايا دي كلها بتاعتك، ده غير المزرعة الستين فدان اللي على حدود البلد، و٣٥ فدان في زمام كفر الشيخ، و٣ عمارات في مصر، واسطبل الخيل، وحوالي ٢٧٠ ألف جنيه في البنك.

- يا سنة سودة، وأنا هعمل إيه بكل ده؟ لا لا لا يا بيه، أنا كفاية عليا ١٠٠ ولا ٢٠٠ جنيه أأمن بيهم نفسي من غدر الزمن، ومش عاوز حاجة من اللي انت بتقول عليه ده.

- هاهاها بقي باقول لك ٢٧٠ ألف جنيه غير السرايا والأطيان والعمارات، وانت تقول لي ١٠٠ ولا ٢٠٠ جنيه؟ إنت صبرت كتير وعمرك ضاع جنب مراد بيه وآن الأوان بقى تعيش لك يومين وتتمتع بفلوسك، وأول حاجة تعملها لازم تتجوز.

- أتجوز ايه بس يا بيه؟ بعد ما شاب ودّوه الكتاب؟ وبعدين

أنا كبرت وبقيت مكحكح، مين هترضى بيا؟

- لأ اتطمن، من ناحية اللي يرضوا بيك فهم بقوا كتير قوي، شاور انت بس على أي بت من بنات البلد، ولا حتى بنات مصر، وانت تلاقيها جاية تركع تحت رجليك، إنت ناسي إنك بقيت من الأعيان ولا إيه؟

- بس قرايب البيه عمرهم ماهيسيبوني في حالي، دول نابهم أزرق ومش هيرتاحوا غير لما يحطوا إيديهم على فلوس البيه كلها، لو وصلت حتى إنهم يقتلوني.

- ولا يقدروا يعملوا حاجة، اسمع كلامي أنا عارفهم، دول بتوع تهويش وجعجعة وبس، وبعدين خلاص ماعادش حاجة اسمها فلوس البيه، كلها بقت فلوسك بالقانون، ولو فكر حد منهم في يوم إنه يتعرض لك ولا حتى يمشي جنب سور السرايا بشرفي هحبسه. ماتقلقش، أنا من دلوقتي المحامي بتاعك، قالها ثم إبتسم وأمسك بيده كتف يوسف وضغط برفق مواصلًا: يعني يا يوسف بيه أنا شغال عندك بمرتب زي إبراهيم وسعدية كده.

- العفو يا بيه ده انت مقامك كبير عندي وربنا اللي يعلم، أهو أنا بقى خايف من سعدية وبقية الشغالين يمكن أكتر من خوفي من قرايب البيه.

- لو تحب نمشيهم من بكرة نعمل كدة ونجيب شغالين تانيين، أهو على الأقل علشان مايبقاش حواليك أي حاجة تفكرك بالماضي وتبدأ تركز في حياتك الجديدة.

- لا يا أستاذ فهمي كله إلا قطع العيش، وبعدين دول عشرة عمر، والعشرة ماتهونشي غير على ابن الحرام.

- أصيل يا عم يوسف. يلا أسيبك دلوقتي تنام وتستريح، عشان أنا كمان عندي بكرة لفة كبيرة هخلص فيها إجراءات الوصية علشان كله يبقى في السليم، سلام عليكم.

انصرف المحامي وترك يوسف في حالة إنكار كاملة لكل ما يدور حوله، لا يريد أن يصدق أي شيء مما يحدث، ويتصور أنه في حلم طويل ستوقظه منه عصا مراد بك وهو يوبخه على تأخر الإفطار.

-٥-

كان عمي شحاتة يروي القصة بتأثر بالغ كأنه يتحدث عن شقيقه أو أحد الأقربين، يتحدث عن أقارب مراد بكراهية شديدة لأنهم ناصبوا يوسف العداء منذ علموا بأمر الوصية، رغم أنهم بالمنطق لم يطلبوا أكثر من تحكيم شرع الله في تركة مراد، يتكلم بإجلال واحترام شديدين عن المحامي لأنه ساند يوسف ودافع عنه في مواجهة خصومه، ويضع هالة من القدسية على يوسف نفسه، كأنه نبي أو قديس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبينما عمي مستغرق في حكاياته سمعنا صوت طرقات على الباب، قام هيثم وفتح الباب، وبمجرد ظهور شخصية الطارق انتفض عمي وجميع الجالسين قيامًا في وصلة ترحيب بالضيف الذي يبدو مهما.

- أهلا أهلا يا حضرة العمدة. خطوة عزيزة. اتفضل اتفضل.

هو عمدة القرية إذن، كنت أظن أن كلمة «العمدة» تلك أصبحت من التراث، ولم يعد لها وجود إلا في أفلام الأبيض والأسود، لكن ها أنا ذا أكتشف أن العمدة ما زال شخصية واقعية موجودة وتحتفظ بنفس القيمة والوقار، بل وأقرب إليّ مما أتصور، في قرية والدي، قريتي.

دخل العمدة غرفة الضيافة في منزل عمي، وسط زفة كبيرة من ٨ رجال بدا أنهم من أعيان القرية، لم يكن طاعنا في السن كما

هي الصورة الذهنية التي أحملها عن أي عمدة، تشي ملامحه بأنه في الخامسة والخمسين تقريبا، منتصب القوام، جامد الملامح، حليق الذقن والشارب، تفوح منه رائحة عطر باريسي نفاذة، يرتدي جلبابا بلديا، يحيط برقبته شال من الصوف، تغطي كل ذلك عباءة سعودية فخمة، وتمسك قبضته اليمنى عصا تعلوها رأس صقر تمنحه هيبة ووقارا إضافيين.

جلس العمدة أولا ثم جلس الجميع، وبينما أنا جالس في مكاني أراقب هذا المشهد الفريد جاء عمي شحاتة فأخذني من يدي وأوصلني إلى حيث يجلس العمدة، وقدمني إليه:

- الدكتور خالد ابن المرحوم عبد الله.

سلمت عليه في ثبات وسلّم هو دون أن يقوم من مكانه، ثم وجه حديثه إليّ:

- البقية في حياتك يا دكتور، شد حليك.

- الشدة على الله، سعيكم مشكور.

قلتها ثم حاولت ترك يده والعودة إلى مكاني، لكنه أطبق على يدي وواصل الحديث:

- المرحوم والدك كان راجل ونعم الناس. أي نعم أنا شفته مرة ولا اتنين بس أسمع عنه كل خير، وكفاية إنه أخو شحاتة.

نظرت إلى عمي، لأنني أعرف أنه لا يحب أن يناديه أحد هكذا باسمه مجردا دون أن تسبقه كلمة «حاج»، لكنني استغربت حين وجدت فرحة طفولية ارتسمت على وجهه على غير عادته ربما مصدرها إشادة العمدة، ورد منتشيا:

- ربنا يخليك يا حضرة العمدة ده من ذوقك وكرمك.

هز رأسه، ثم التفت وسألني:

- وانت تخصص إيه بقي يا دكتور؟

- باطنة.

- طيب يبقي أكيد هاحتاجك قريب عشان القولون بعيد عنك مبهدلني، ولفيت على دكاترة كتير بياخدوا الشيء الفلاني ولا حد منهم عمل حاجة، بس اوعى تكون زيهم انت كمان.

ضحك الجميع بصوت واضح ونفاق أكثر وضوحا، بينما اكتفيت بابتسامة باردة سحبت بعدها يدي من يده وعدت إلى مكاني، قائلا:

- ماتقلقش. بيقولوا عليا دكتور شاطر.

- كل الدكاترة بيقولوا على نفسهم كده، بس عموما أدينا هنجرب ونشوف.

ثم قام فجأة آخذا طريقه نحو الباب، وخلفه مرافقوه، وقال:

- يلا البقية في حياتكم مرة تانية ومانجيلكوش في حاجة وحشة.

حاول عمي أن يقنعه بالبقاء لدقائق حتى يشرب الشاي، لكنه كان قد خرج فعلا من باب الغرفة وألقى السلام. عاد أعمامي وأولادهم وبقية أقاربنا إلى أماكنهم، وقال عمي شحاتة بفخر:

- شفتم العمدة جه لحد عندي يعزيني في داري، مابيعملش كده مع أي حد، آخره يروح يعزي في مضيفة، لكن شحاتة عنده حاجة تانية.

لم يعجب الكلام عمي حسن فقال:

- إنت محسسني انه الخليفة العادل، إيش حال لو ماكانش حرامي وبالع فلوس وأرض البلد كلها في كرشه.

رد عمي شحاتة:

- وهو يعني كان بيمد إيده في جيب حد؟ كله برضا الناس وبمزاجهم، ده هم اللي ساعات بيتحايلوا عليه يشتري أرضهم كمان علشان يفكوا ضيقة.

- وإيه اللي بيخليهم يعملوا كده؟ مش لما يمنع عن أرضهم المَيه؟ ولا لما بيكلم النصابين شُركاته اللي في بنك التنمية عشان يرفعوا على الفلاحين قواضي بالديون ويحبسوهم؟ ولا لما يولع في محصولهم ويماين مع المأمور عشان المحضر يتقفّل ضد مجهول؟ الفلاح من دول هيعمل ايه ساعتها غير إنه يروح للعمدة مبروك ويبيع له الأرض بالبخس علشان يرحمه؟ والنبي يا حج شحاتة ماتخلينا نفتحوا في كلام مالهوش لازمة.

- سيبك من الكلام ده كله، انت اللي طول عمرك كده ماتحبوش لله في لله وكأنه مولود فوق راسك.

- أنا باكرهه من عمايله السودة، لكن انت بتحبه علشان ماجاش لسه ناحية أرضك وأملاكك.

- ولا يقدر ييجي عليها لا هو ولا عشرة زيه، أنا مش هفية، ويوم ما حد ييجي على أرضي ولا يدوس لي على طرف هكسر الدنيا على دماغه، إنشاالله يكون رئيس الجمهورية مش حتة عمدة. وقفل على الموضوع ده بقى احنا في عزا.

شعرت أن «عبد الميت» ليس الحكاية الوحيدة المثيرة في هذه القرية، فما شاهدته من تصرفات العمدة ثم أحاديث أعمامي

عنه لم يجعلني أشعر بأنني في قرية صغيرة محدودة المساحة والسكان، لكن في جمهورية مستقلة لها حكامها وشعبها وهمومها واهتماماتها الخاصة جدا. خلال أربع وعشرين ساعة تقريبا لم أسمع ولو لمرة كلمة انتخابات أو ثورة أو إسلاميين أو إخوان أو عسكر، لم أسمع حتى اسم أي حزب أو جماعة أو حتى شخصية سياسية مشهورة، هنا المسائل محلية بحتة والاهتمام يقتصر على حدود القرية وناسها، وأنا الذي كنت أتصور أنه بعد ثورة ٢٥ يناير صار الحديث داخل كل بيت مقصورا على المسائل السياسية، والتنافسات الحزبية، والاستحقاقات الانتخابية.

قطع عمي حسن فترة الصمت التي سادت الغرفة بسؤال مفاجئ:

- إلا صحيح يا دكتور، ليه ماتجيش تعيش في البلد وتفتح لك عيادة هنا؟ ده لو حد جاله حبة مغص لازم يتبهدل ويروح كفر الشيخ علشان مافيش دكاترة باطنة خالص هنا في البلد، وأهو على الأقل تبقى وسط أهلك وحبايبك.

فاجأتني الفكرة، وقبل أن أنطق بأي كلمة بادر هيثم:

- بقى ده كلام يا عمي؟ يعني الناس كلها بتروح تشتغل وتعيش في مصر وانت عاوز خالد يسيب مصر ويجي يشتغل ويعيش هنا؟

احتد عمي شحاتة على هيثم وقال بغضب:

- وإيه اللي يمنع يعني؟ هي البلد دي مكتوب عليها على طول خيرها يطلع برة وولادها يخدموا الغريب ومايخدموش أهلهم؟ ولا عاوزه يعمل زي أبوه هو كمان ويفضل عايش في مصر طول

حياته ومايرجعش بلده غير علشان يتدفن؟ ده إذا أجيالكم أصلا فكرت تتدفن في بلادها يعني.

دار نقاش طويل بين كل الجالسين الذين انقسموا بين مؤيد ومعارض للفكرة، كل يدلي بدلوه في الموضوع بينما كنت أتابع أنا كل الآراء باهتمام وصمت، كان العرض مفاجئا لكنه لم يضايقني ولم أشعر تجاهه باستنكار أو رفض مبدئي، واستمر الأمر كذلك حتى لاحظ هيثم أنني الوحيد الذي لم يتكلم ويدلي برأيه في الموضوع، رغم أنه يخصني شخصيا، فسألني عن رأيي وما إذا كنت مستعدا بالفعل لترك القاهرة والعيش والعمل في القرية أم لا، لم أكن مستعدا لخوض مناقشة من هذا النوع الآن، فقلت إنه ليس الوقت المناسب لمناقشة مواضيع كتلك، عندها شعر الجميع بإحراج شديد بعدما اكتشفوا أنهم نسوا الرجل الذي لم يستقر في قبره بعد، ودخلوا في نقاشات أخرى جانبية وهامشية.

كان مخرجًا مريحًا أغلق الموضوع مؤقتا حتى أفتحه أنا مع نفسي لاحقا، بعيدا عن هذا الصخب وتلك المؤثرات.

-٦-

كانت أحداث محمد محمود بداية علاقتي بالمستشفيات الميدانية، اتصل بي طبيب زميل دفعة اسمه أشرف مصطفى وطلب مني النزول فورا إلى المستشفى الميداني الموجود في شارع يوسف الجندي، لأن عدد المصابين أكبر كثيرًا من أن يستوعبه الأطباء الموجودون، حاولت إقناعه بأنني لا أتقاعس، لكني طبيب باطنة وهذه النوعية من الإصابات تحتاج جراحين مختصين، لكنه أصر بإلحاح وأكد لي أن المستشفى به أطباء أسنان وأنف وأذن يقومون بعمليات الإنقاذ، فالوضع لا يحتمل رفاهية النظر في التخصص.

وافقت لأنه لم يكن بإمكان أي طبيب يحترم مهنته أن يرفض طلبا كهذا، ونزلت من البيت قاصدا ميدان التحرير. لا أدعي أنني كنت أحد المشاركين الفاعلين في الثورة، لكن الأكيد أنني كنت واحدا من جمهورها، نزلت الميدان أول مرة بعد موقعة الجمل، ما يعني أنني تخلفت عن أهم أيامها في ٢٥ و٢٨ يناير و٢ و٣ فبراير، وبعدما أصبح النزول بلا ضريبة. وبعد نجاح الثورة والتنحي كنت أتابع ما يحدث من اشتباكات وأحداث باهتمام عبر التليفزيون ومواقع التواصل، وأغضب بشدة ممن جعلوا الثورة تنحرف عن مسارها وأهدافها، لكن أخيرا، وبعد دقائق سأكون طرفا في الحكاية بالصدفة، وبصفتي طبيبا لا ثائرا.

وصلت إلى مدخل الميدان من ناحية جامعة الدول العربية لأجد نفسي أمام مشهد سينمائي تماما كالذي أراه في أفلام

الأكشن الأمريكية، سماء مغطاة بسحب كثيفة تتعانق فيها أدخنة الغاز المسيل للدموع وإطارات الكاوتشوك المحترقة، مع أدخنة الأخشاب والأوراق التي أشعلها المتظاهرون لإضاءة الميدان بعد انقطاع الكهرباء عنه، أما الأجواء فكانت موحشة قابضة تتداخل فيها أصوات الرصاص مع صرخات الغاضبين وطرقاتهم على أعمدة الإنارة.

أدركت أن شاشة التليفزيون لا تمنح المشهد الجلال الذي يستحقه، الواقع يضعك فورا أمام مشاعر متداخلة بين الرغبة في أن تكون أحد أبطاله، والخوف من أن تكون أحد ضحاياه.

أخرجت هاتفي وكلّمت أشرف لإخباره بوصولي، وصف لي مكان المستشفى فسِرت تجاهه ببطء شديد رغم مطالبته لي بالإسراع، فكل تفاصيل المكان تستدعي التأمل، وكل الوجوه الواثقة والضاحكة والمذعورة والملطخة بالدماء، التي قابلتها، تقول كلاما يجب الإنصات إليه، عرفت مكان المستشفى من الزحام الشديد حوله، وقبل بلوغه بأمتار وجدت من يدفعني بقوة من الخلف، ثلاثة شبان يحملون صبيا وحولهم مجموعة أخرى يصرخون بهستيريا لإخلاء الطريق، أدخلوه المستشفى والدم يغطي رأسه بالكامل، حيث لا يكسر اللون الأحمر سوى بياض عينيه الزائغتين.

- خَد نُص بلاطة في دماغه. إلحقوه أبوس إيديكم بيموت.

قالها أحد مرافقيه فترك كل الأطباء الحالات التي بين أيديهم، وهرولوا سريعا ناحية الصبي المصاب الذي لا يتجاوز الستة عشر عاما، أخرجت البالطو الأبيض من حقيبة ظهري وارتديته سريعا وبدأت أطالع إصابته البالغة، كان أحد الأطباء يحاول

إزالة الدم للوصول إلى مكان الإصابة، وبعد إزالة جزء منه ظهر مخه من الجمجمة المكسورة.

أدرك الجميع أن الحالة أكبر من إمكانيات مستشفى ميداني، وهموا بطلب سيارة إسعاف تنقله لأقرب مستشفى، هذا ما قلناه لمرافقيه والشباب الملتفين حولنا، لكننا كنا نعلم أنه يحتضر وقد يفارق الحياة قبل أن يصل المستشفى، نظرت إلى أشرف ونظر إليّ دون أن ننطق بكلمة، أمسكت بيد الصبي ووضعتها بين كفّي، وجدت على ذراعه شيئا مخطوطا بالقلم الجاف، رفعت ملابسه وقرأت المكتوب: «أحمد عبد الباري حشاد. شارع السوق القديم بالمطرية. ٠١٢٤٤٣٦٨٧٥».

كنت تعلم أنك ربما تعود لأهلك جثة هامدة وكتبت إلينا ما يساعدنا في الوصول إليهم، فلماذا نزلت يا بُني؟ لماذا لم تترك المهمة لمن هم أكبر سنا وتكتفي بمتابعة الأحداث في التليفزيون كما كنت أفعل أنا حتى قبل دقائق من الآن؟ متى تعلمت أصلا أن الثورة على الظلم واجبة ونُصرة الحق فريضة؟ وما الذي رأيته في سنوات عمرك القليلة يجعل الموت عندك أفضل من مواصلة الحياة على النحو نفسه؟

كان أحد زملائنا يربط دماغه والآخر يطمئن على ضربات قلبه، ناديت على أشرف لأريه المكتوب على ذراع الصبي فوجه حديثه لأحد مرافقيه قائلا:

- سجلوا البيانات بتاعته دي، بس ماتتصلوش بالرقم غير لما الإسعاف تاخده وتعرفوا انتو في مستشفى إيه، علشان ماتبهدلوش أهله على الفاضي.

تعجبت من تعامل أشرف البارد والأوتوماتيكي مع الموضوع،

فقد كان كلامه رسميا منزوع العواطف، رغم أن الحالة تجبرك على التعاطف معها والتأثر بها والبكاء عليها، لكنني عرفت سبب ذلك فيما بعد. وصلت سيارة الإسعاف وحملنا الصبي إليها بحرص وفي غضون ثوان كانت قد خرجت من الشارع وغابت عن الأنظار، فجلست على مقعد في جانب الخيمة وأفلتت مني دمعة سارعت بمسحها، لكن أشرف كان قد رآها فاقترب مني وربت على كتفي، وقال:

- اجمد اجمد، انت لسه شفت حاجة؟ ده احنا بقالنا يومين على كده.

سحب مقعدا ملطخا ببقع كثيرة من الدماء وجلس بجانبي، لم يهتم بتنظيف المقعد ولم أهتم بتنبيهه، أخذ يحكي عن المواقف التي عاشها في اليومين الأخيرين، عن الحالات التي أنقذها من موت محقق، والتي لم يستطع فماتت بين يديه، تحدث عن مشاعره التي تآكلت مع كثرة الدماء، وخوفه من التحول إلى آلة لا تتأثر بأي شيء، وخبرته الإضافية التي اكتسبها من العمل في المستشفيات الميدانية، والكافية لتغيير نشاطه إلى طبيب جراح بدلا من تخصصه الأصلي كطبيب مخ وأعصاب.

لاحظت امتلاء الخيمة بحالات كثيرة، فطلبت منه القيام لإسعاف المصابين لأننا لسنا هنا لفتح ألبوم الذكريات، ابتسم ابتسامة من يعاملني كمستجد وقمت إلى مصاب يعرّي ظهره كاشفا عن إصابات كثيرة بالخرطوش، أخرجت حوالي ١٢ بلية، بينما هو لا يهتم لما أفعل وينشغل بحوار ضاحك مع صديقه حول تقدمه مع عدد كبير من المتظاهرين داخل الشارع، واكتشافه فجأة أنه أصبح على بعد أمتار قليلة من عساكر الأمن، بينما

رفاقـه تراجعـوا إلى الخلـف دون أن يلحظهـم ليصبـح وحـده في مواجهتهـم، وهرولتـه إلى مدخـل عمـارة وعـدم معرفتـه بإصابتـه إلا عندمـا شـعر بدمـاء سـاخنة عـلى ملابسـه.

كان يضحـك بصـوت مسـموع هـو وصديقـه، بينمـا الدمـوع تنهمـر مـن عينيـه الحمراوتيــن بصـورة لا إراديـة، بفعـل الغـاز الكثـير الـذي استنشـقه في أثنـاء المعركـة.

- تسلم يا كبير، نجاملك في الأفراح ان شاء الله.

قالهـا مبتسـما بعدمـا أبلغتـه بانتهـائي مـن تضميـد جراحـه، ثـم خلـع صديقـه قميصـا كان يلبسـه فـوق «تي شـيرت» آخـر، منحـه إيـاه ليرتديـه بـدلا مـن ملابسـه الـتي تمزقـت، وقـال لـه:

- خلـلي بالـك بقـى يـا خويـا، مـش هنفضـل طـول الليـل رايحـين جايـين عـلى المستشـفى.

سألت الشاب المصاب مدهوشًا:

- إنت لسه هتدخل تاني؟

- أومال!

قالهـا دون أن ينظـر إليّ ثـم تحـرك مـع صديقـه بخطـوة سريعـة أقـرب إلى الجـري، وذابـا سريعـا وسـط الجمـوع.

مـرت الليلـة سريعـا بفضـل أحداثهـا المتلاحقـة، تـوفي ثلاثـة أشـخاص أمـام عيـني وكنـت شـاهدا عـلى آخـر زفـير لهـم في الدنيـا، بعـد سـاعات قليلة اكتسـبت خـبرة في التعامـل مع المصابـين وخياطة الجـروح، وأصبحـت قـادرا عـلى التفريـق بـين أنـواع الخرطـوش، لكـن التأثـر والتماهـي مـع المصابـين والقتـلى كان يقـل تدريجيـا، فهمـت مـا قالـه أشرف عندمـا رآني أبـكي أول مـرة قبـل سـاعات، وتفهمـت

حركاته الأوتوماتيكية التي كنت أعيبها عليه في السابق، نعم هي ليلة واحدة، لكنها بألف مما تعدون.

- برضه نزلت التحرير؟

جاءني صوت سارة غاضبا عبر الهاتف، كنت قد تركت لها رسالة في مفكرة ممغنطة على الثلاجة تخبرها بمكاني، فبحكم عملي كنت أقضي وقتا طويلا خارج المنزل، وبحكم ارتباطها المبالغ فيه بعائلتها كانت تقضي معظم الوقت في منزل والدها القريب من شقتنا، لذلك كانت هذه هي الطريقة المثلى للتواصل.

أعرف أن هذا الغضب لا يحركه خوفها من تعرضي لمكروه في الميدان، بل مدفوع بكراهيتها الفجة لثورة يناير وميدان التحرير رمزها الأهم، والد سارة هو المهندس عاطف أبو المجد، أحد قيادات الحزب الوطني بمحافظة الجيزة، ويملك مصنعا كبيرا للعصائر بالسادس من أكتوبر، خسر انتخابات البرلمان عام ٢٠٠٠ كمستقل، وبعدها بعامين انضم للحزب الوطني بعدما أدرك أنه الطريق الأقصر للصعود السياسي، وفي ٢٠٠٥ ترشح باسم الحزب لكنه أيضا خسر أمام مرشح الإخوان.

أصيب بصدمة كبيرة وقتها، لكنه تجاوزها سريعا وواصل العمل وتكوين العلاقات والتقرب إلى دوائر صنع القرار، وقبيل انتخابات ٢٠١٠ بقليل ظهر له منافس قوي داخل الحزب، هو كامل طاحون صاحب سلسلة المطاعم المشهورة، والذي سعى بكل قوة ليكون مرشح الحزب على المقعد الذي ترشح عليه حماي في المرتين السابقتين، مستغلا علاقته القوية بأمين التنظيم، لكن المهندس عاطف حسم الأمور تماما لصالحه

عندما تبرع للحزب بمبلغ ضخم رجح كفته ففاز بعدها في المجمع الانتخابي بسهولة، ليخوض الانتخابات وينجح ويحقق أخيرا حلمه الذي تأخر ١٠ سنوات ويحصل على لقب «سيادة النائب».

لكنه لم يكن يعلم أن فرحته لن تدوم طويلا، فبعد دخوله مجلس الشعب بأقل من شهرين اندلعت ثورة ٢٥ يناير، كان يطمئن نفسه في البداية بأنها «هوجة وهتعدي»، وحتى عندما تفاقم الوضع في ٢٨ يناير ظل متماسكا في النصف الأول من اليوم وهو يتابع المظاهرات على الهواء ويؤكد للمحيطين به أن «الريس هيلمها ان شاء الله»، حتى علم من بعض أصدقائه النواب، بعد خطاب مبارك في المساء، أن مسؤولين كبارا أبلغوهم أن المجلس في طريقه إلى الحل، وبذلك ضاع كل الجهد والمال الذي أنفقه في الهواء، وبعدها بلحظات سقط فاقدا الوعي.

تأكدت من خلال الفحص المبدئي أنه مصاب بذبحة صدرية حادة، وطلبت من أبنائه الإسراع بنقله إلى المستشفى لوضعه في العناية المركزة، لكن السير في الشوارع وقتها كان مخاطرة، فأعمال السلب والنهب مستمرة، وأصوات الرصاص مجهول المصدر لا تتوقف، ولذلك أحضر محمود شقيق زوجتي مسدسه المرخص، واتصل بأبناء عمه على الهاتف الأرضي بسبب انقطاع خدمة الهواتف المحمولة، وطلب منهم إحضار أسلحتهم وسيارتين والمجيء لتأمين نقل والده إلى المستشفى.

في هذه الأثناء كنت أجري اتصالات بكل المستشفيات القريبة للبحث عن غرفة عناية مركزة شاغرة نذهب إليها مباشرة، لكن محاولاتي باءت بالفشل، لذلك لم يكن أمامنا خيار سوى الخروج

بحماي المريض والتنقل بين المستشفيات، بحثا عن غرفة عناية تنقذ حياته التي أصبحت على المحك.

كنا نسير في ما يشبه الموكب، السيارة التي أركبها مع حماي وحماتي وولديه محمود وشريف في المنتصف، وأمامنا وخلفنا سيارتان لأبناء عم زوجتي. المشهد من حولنا ينافس كل أفلام هوليوود، غالبية الشوارع يسيطر عليها الظلام الدامس، ألسنة النيران وأعمدة الدخان تخرج من كل المباني الحكومية وأقسام الشرطة، الجو يمتلئ بسحب كثيفة من الغاز المسيل للدموع، وأصوات الرصاص تجعلك تتوقع أن تأتيك رصاصة طائشة من أي اتجاه.

توقفنا أمام مستشفى في المهندسين، نزل محمود ودخل من الباب الرئيس، وبعد أقل من دقيقة خرج مسرعا ليخبرنا بعدم وجود غرف عناية شاغرة، تكرر الأمر بنفس الصورة مع ٤ مستشفيات أخرى، حتى عثرنا أخيرا وبعد أكثر من ساعتين على غرفة في مستشفى خاص صغير بشارع الهرم.

بعد أن استقر الرجل على فراشه دخلت في حوار مع الطبيب المعالج، أكد لي أنه لا خطورة على حياته، وبحلول الصباح ستستقر الحالة إلى حد كبير، لكنه سيحتاج للبقاء في العناية المركزة ٧٢ ساعة على الأقل، تحسبا لأي انتكاسات مفاجئة، ثم تطرق للحديث عن هذا اليوم الصعب الذي لا تريد شمس اليوم التالي أن تكتب نهايته، وعن استقبالهم عشرات المصابين في الاشتباكات رغم رفض إدارة المستشفى، في الواقع لم يكن لديهم خيار آخر أصلا، فمن ناحية ضميرهم المهني لا يسمح بترك المصابين يموتون على أبواب المستشفى، ومن ناحية

أخرى أصدقاء وأهالي المصابين كانوا سيحطمون المستشفى على أدمغتهم إذا هم رفضوا.

في الأسابيع التالية تلقى المهندس عاطف ضربة جديدة من الثورة، مصنع العصائر الذي يمتلكه كان يعتمد بشكل أساسي على تصدير منتجاته للدول العربية القريبة، وبعد وصول الربيع العربي لليبيا وسوريا واليمن انخفضت صادراته بشدة، وأصبح معتمدا على السوق المحلية فقط، وبسبب روح الاحتجاج التي زرعتها الثورة في النفوس نظم عمال مصنعه اعتصاما طويلا أوقفوا خلاله الإنتاج، وطالبوا بزيادة رواتبهم وحوافزهم وامتيازات مادية أخرى استجاب إليها في النهاية مرغما، ومع زيادة التزاماته وتوقف التصدير إلى دول الثورات اضطر لبيع بعض خطوط الإنتاج وتخفيض العمالة، مع دفع تعويضات للعمال الذين قام بتسريحهم.

في غضون شهور قليلة خسر حماي أكثر من نصف ثروته، فضلا عن خسارة نفوذه السياسي ومقعده البرلماني، وكل ذلك جعل كلمة «ثورة يناير» من المحرمات عند أسرة زوجتي، ذكرها غير مسموح إلا بالشر.

- أيوه.. زمايلي كلموني وطلبوا مني أنزل ضروري علشان فيه مصابين كتير وعدد الدكاترة قليل.

قلتها بهدوء محاولا نزع فتيل معركة لست مستعدا لها بعدما أرهقتني الساعات الماضية بدنيا ونفسيا، لكن المحاولة لم تنجح، لأن سارة انفجرت غاضبة وكالت السباب للثورة وبلطجيتها وتمنت الموت لمصابيها والهلاك لمؤيديها، أبعدت سماعة الهاتف عن أذني لأتجنب اللكمات الصوتية القادمة عبرها فلا أكون مضطرا

للرد، ولكن محاولاتي انهارت بعد ثوان فوضعت إصبعي على زر إنهاء المكالمة، وضغطت ضغطة طويلة على زر إغلاق الهاتف وأخفيته في جيبي، عدت إلى أشرف واستأذنته في الانصراف فوافق متفهما، خصوصا أن معدل وصول المصابين قل كثيرا في الساعة الأخيرة مع تراجع حدة الاشتباكات، سألني:

- هاشوفك بكرة؟

تجولت بعيني في أركان الميدان واستقر بصري على بقع الدماء التي تجلطت على مقاعد المستشفى، تحسست بيدي موضع الهاتف المحمول متذكرا سارة والمعركة التي تنتظرني في البيت، ثم نظرت إليه مبتسما واهتزت رأسي لاإراديا بإشارة الإيجاب.

-٧-

قابلت سارة أول مرة في ساعة متأخرة من الليل في استقبال مستشفى خاص بالمهندسين، دخلت مسرعة مع صديقتها يارا المصابة بآلام حادة ومفاجئة في البطن وطلبت مني فحصها بسرعة، كانت مضطربة وخائفة أكثر من صديقتها المريضة وتلح عليّ لمصارحتها بحقيقة الحالة ومعالجتها سريعا، أيا كانت التكاليف، ونقلها إلى مستشفى أكبر إذا لزم الأمر، بعد الفحص المبدئي طمأنتها بأن صديقتها مصابة بنزلة معوية بسيطة نتيجة تناولها طعاما ملوثا، وأنها ستصبح بخير بمجرد إعطائها بعض الأدوية المطهرة للمعدة والأمعاء.

استمرَّت في متابعة حالة صديقتها حتى تأكدت أنها آخذة في التحسن، هدأت قليلا وسحبت مقعدًا وضعته بالقرب مني وجلست، راقبتُ خلسة حركات عينيها التي كانت تنظر إليّ باهتمام، وتصنعتُ الانشغال بقراءة بعض الأوراق الموجودة أمامي، وعندما يئست في لفت انتباهي بدأت هي في الحديث:

- متشكرة جدا يا دكتور خالد.

نظرتُ إلى بطاقة التعريف المعلقة على صدري ثم نظرت إليها مبتسما:

- على إيه ده شغلي.

- لا بس احنا تعبناك جدا، وكمان قلقناك في وقت متأخر.

- قلقتوني في وقت متأخر؟! ده على أساس إنكم جايين تزوروني

في البيت؟!

أطلقت ضحكة عالية مميزة لفتت انتباه بقية الأطباء والمرضى، ثم انتبهت ونظرت إلى المكان وإلى صديقتها المستلقية على الفراش المقابل، وحاولت إخفاء حرجها والعودة إلى الجدية.

- أصلك مش عارف يارا دي غالية عليا ازاي. دي أقرب صاحبة ليا، تقريبا ماليش صاحبة غيرها.

- هي صاحبتك؟ أنا من كتر قلقك عليها افتكرتها أختك.

- ما هي فعلا أكتر من أختي، انت مش متخيل. إحنا نعرف بعض من ساعة ما كنا في الحضانة، ومافيش يوم تقريبا مش باشوفها فيه، وعمرنا ما زعلنا من بعض مهما حصل.

- ربنا يخليكم لبعض، يا بختها بيكي ويا بختك بيها.

استمرت سارة في الحديث عن علاقتها بيارا، وعن والدها رجل الأعمال المشهور، وعن دراستها وحياتها وأحلامها وخططها للمستقبل، ومواصفات الشاب الذي تريد الارتباط به، دُهِشت من استغراقها في الحكايات لهذه الدرجة، رغم أن معرفتنا لم تتجاوز الساعة، ولا تتعدى علاقة طبيب بمرافقة إحدى مريضاته، رغم ذلك كانت كلما شارفت على إنهاء موضوع بحثت عن موضوعات أخرى تضمن لها استمرار الحديث ومواصلته لأطول وقت ممكن، وحتى عندما كنت أستأذنها لفحص أحد المرضى أو الرد على الهاتف، كانت تعود لتواصل من نفس النقطة التي توقفت عندها بمجرد عودتي.

تحسنت حالة يارا كثيرًا وأصبحت قادرة على السير دون مساعدة، طلبَت من سارة المغادرة إلى بيتها لحاجتها إلى

نـوم هـادئ بعيـدا عـن أجـواء المستشـفى، قاومـت سـارة رغبتهـا بشـدة وحاوَلـت طويـلا إقناعهـا بالبقـاء والصعـود إلى إحـدى غـرف المستشـفى، لحـين الاطمئنـان عليهـا تمامـا وإجـراء كل الفحوصـات اللازمـة، لكـن يـارا صممـت بشـدة عـلى المغـادرة، طلبـت مـني سـارة رقـم هاتفـي للرجـوع إليّ في حالـة حـدوث أي طـارئ لصديقتهـا، أعطيتهـا إيـاه رغـم تأكـدي مـن أن الحالـة لا تسـتدعي كل هـذا القلـق، وتأكـدي أيضـا مـن أن هـذا ليـس السـبب الـذي طلبـت رقمـي مـن أجلـه.

لم أكن مستاءً على أي حال، ولكن لم أكن سعيدًا أيضا.

كانـت الشـمس ترسـل أشـعتها الأولى حـين صعـدت إلى غرفـة الأطبـاء لتغيـير ملابـسي والاسـتعداد للعـودة إلى المـنزل، بعـد سـهرة شـاقة، لكـن طيـف سـارة اسـتقر في عقـلي بشـكل عجيـب وأبى أن يغـادره، لسـت مـن الشـباب المغرمـين بالفتيـات، صعـب جـدا أن أنجـذب لأيهـن، لـم يحـدث ذلـك أصـلا سـوى مـرة واحـدة، زميلـة دراسـة كانـت تكـبرني بعامـين، انجذبـت إليهـا لفـترة لم تتجـاوز فصلاً دراسـيا واحـدا، وانتهـى كل شيء دون حـتى أن أصارحهـا بمشـاعري، ومـن بعدهـا لـم يحـدث أن انجذبـت لأي فتـاة مجـددا، وانحـصرت علاقـاتي بالجنـس الآخـر في إطـار الزمالـة والصداقـة والعمـل.

لكن سارة كانت مختلفة.

أعجبـت بقـوة شـخصيتها وجرأتهـا واعتزازهـا بنفسـها، احترمـت حبهـا لأسرتهـا ودراسـتها وصديقتهـا، أدهشـتني قدرتهـا عـلى صياغـة أفكارهـا وترتيـب كلامهـا بحيـث لا يصيبـك الملـل مهمـا استرسـلت في الحديـث، أحببـت براعتهـا في اسـتخدام لغـة الجسـد وتعبـيرات الوجـه وتـراوح عينيهـا بـين الضيـق والاتسـاع، بحيـث تحـوّل أي حكاية

إلى مشهد مسرحي أخاذ.

بالتأكيد لا يمكن أن يكون ذلك حبا من أول نظرة، مجرد إعجاب بشخصية مختلفة اقتحمت حياتي دون ترتيب، واحترام لقدراتها الخاصة وعقليتها اللافتة، أو هكذا حاولت إقناع نفسي.

اكتشفت أنني قضيت وقتا أطول من المعتاد في تغيير ملابسي، أكملت الأمر على عجل وأنا أبحث لعقلي عن موضوعات أخرى ينشغل بها، بعيدا عن الفتاة التي ظهرت في حياتي فجأة، وربما ينتهي الأمر على ذلك ولا أقابلها مجددا، لكن قبل أن أعثر عن موضوع أفكر فيه رن هاتفي المحمول، أخرجته من حقيبة يدي ونظرت في الشاشة، لم يكن الرقم مسجلا على ذاكرة الهاتف، لكنه كان مميزا جدا.

فتحت الخط فإذا بآخر شخص توقعت أن أسمع صوته الآن:

- صباح الخير يا دكتور أنا آسفة إني بازعج حضرتك تاني. أنا سارة اللي جيت لحضرتك من شوية مع صاحبتي.

لم أكن محتاجا لتعرّفني بنفسها، فقد ميزت صوتها من أول كلمة، فلم يغادر أذنيّ أصلا منذ تركتني وحتى اتصلت، حاولت أن أبدو جادا لكي لا تكشف نبرة صوتي عما كنت أفكر فيه منذ لحظات:

- أهلا آنسة سارة فاكرك طبعا. خير؟ الآنسة يارا فيها حاجة؟ حست بأي ألم؟

- لا خالص، يارا ارتاحت جدا ونامت. أنا بس كنت بتأكد إن الرقم اللي اديتهولي شغال، علشان يعني لو حست بأي حاجة في أي وقت أبقى أتصل بيك على طول.

ابتسمتُ وصمتُّ لثوان عدة قبل أن أجيب:

- أيوه هو ده رقمي وتقدري تتصلي بيا طبعا في أي وقت، لو لا قدّر الله حصل أي حاجة. بس إن شاء الله ده مش هيحصل لأن الحالة استقرت وأنا مطمئن عليها جدا. المهم بس تخلي بالها من الأكل وتاكل بس الحاجات اللي كتبتها لها، لمدة ٣ أيام على الأقل علشان ماتتعبش تاني. وطبعا تاخد العلاج في مواعيده اللي قلت لك عليها.

- لا ماتقلقش، أنا كده كده هافضل معاها لحد ما تخف خالص، وهاتابع بنفسي كل حاجة أول بأول.

- عظيم.

صمتنا لثوان كأن كلينا يبحث عن كلام جديد يطيل به وقت المكالمة، وقطعت سارة الصمت بلهجة آمرة جعلها الدلال محببة:

- سجل بقى رقم موبايلي علشان لما أكلمك تاني ترد عليا على طول.

- حاضر، مجرد ما تقفلي هاسجله على طول.

أغلقت الخط ونظرت بشرود في شاشة الهاتف، فيبدو أن الأمر لن يكون مجرد لقاء عابر في قسم الاستقبال.

-٨-

أنهى يوسف إجراءات الوصية، بعد رحلة استمرت يومين وزار خلالها عددا من المصالح الحكومية بصحبة محاميه فهمي، لكن أسوأ ما في الرحلة كانت نظرات الموظفين إليه، إذ وصل الخبر إليهم وعرفوا أن الخادم الفقير قد أصبح من الأعيان بعدما منّ عليه سيده الراحل بنصف ثروته، بدت البغضاء في نظراتهم والحقد والغيرة في كل تصرفاتهم، حتى إنهم كانوا يتعمدون كثيرا تأخير الأوراق عندهم أو تركه منتظرا أمامهم لأطول فترة ممكنة دون مبرر، ولولا حدة فهمي في التعامل معهم، والشكوى لرؤسائهم أحيانا، لما انتهت الإجراءات في شهر كامل.

وصل يوسف إلى السراي أخيرا بصحبة فهمي بعدما أنهى الإجراءات، وكان قد قضى اليومين الماضيين في شقة صغيرة مملوكة لفهمي بمدينة كفر الشيخ، حتى يكون قريبا من المصالح الحكومية الموجودة في المركز، بدلا من إضاعة الوقت في التنقل بين القرية والمدينة يوميا. في مدخل السراي وجد مقعد سيد الخفير فارغًا، بينما كان فرج يقوم بتقليم الأشجار الموجودة في الحديقة، سأله يوسف عن سبب تغيب سيد عن مقعده، فأجابه بعدما وضع المقص على الأرض ومسح عرقه بطرف ثوبه:

- سيد ساب الشغل، عنده ظروف ومشاكل كده في البيت ومش هيقدر يكمل.

- ظروف ومشاكل ولا مش عاوز يشتغل معايا؟

- كل واحد ينام على الجنب اللي يريحه يا عم يوسف (ثم استدرك وهو ينحني لالتقاط المقص) قصدي يا يوسف بيه.

نظر يوسف إلى فهمي بأسى حتى كادت عيناه تدمعان، فيما صرف الأخير نظره إلى باب السراي المفتوح وربت على كتفه مطالبا بالتحرك.

دخلا من الباب فوجدا في استقبالهما سعدية وكوثر وهانم وإبراهيم الطباخ، هنأ الجميع يوسف بالوضع الجديد، وحاولوا نسيان أن هذا الذي سيدفع رواتبهم من الآن كان في السابق أحد زملائهم في خدمة البيه، وحدها كوثر لم تشترك في الحوار واكتفت بنظرة شبه ساخرة، فحصته فيها من أعلى لأسفل عدة مرات، قطع يوسف حديث الجميع ونظرات هانم بسؤال مفاجيء:

- يونس فين هو كمان؟

رد إبراهيم:

- يونس السفرجي؟

- هو احنا عندنا ١٠٠ يونس؟

ساد الصمت المكان وبدأوا في النظر إلى بعضهم البعض قبل أن تُجيب سعدية:

- جت له شغلانة تانية. سلم العهدة ومشي.

احمرّ وجه يوسف وأطلق زفيرا غاضبا، ثم توجه نحو المكتب وأغلق الباب خلفه بعنف، تبعه فهمي بعدما طلب منهم مباشرة أعمالهم والحرص على إبقاء السراي على ما كانت عليه في حياة مراد بك، كان يوسف يقف مستندا على مقعد عال في

أحد أركان المكتب مطأطئًا رأسه، حيث أغلق فهمي باب المكتب برفق ووقف أمامه مباشرة، واستمرا على هذا الوضع دقيقة كاملة قبل أن يبدأ المحامي حديثه:

- إيه يا عم يوسف؟ إيه اللي مضايقك بالشكل ده؟

- يعني مش عارف فيه إيه يا أستاذ فهمي؟

- إيه المشكلة يعني؟ اتنين سابوا الشغل؟ بكرة هييجي غيرهم.

رفع يوسف نظره بحدة في اتجاه فهمي:

- لا يا سي الأستاذ. المشكلة مش في مين يمشي ومين ييجي. المشكلة إني هعيش اللي باقي من حياتي كده. كل الناس يا إما بيكرهوني، يا إما عاملين نفسهم بيحبوني علشان عاوزين مني حاجة، فكرك اللي لسه قاعدين برة دول قاعدين علشان مبسوطين بشغلهم هنا؟ دول قاعدين علشان بس ماعندهمش حتة تانية يشتغلوا فيها ويأكلوا منها عيالهم، ويوم ما يلاقوا الحتة التانية دي هيجروا عليها ويسيبوني.

من كام يوم بس كان كل أهل البلد بيحبوني، علشان عارفين اني راجل غلبان وفي حالي، وكان كل اللي برة دول بيحبوني علشان كنت واحد منهم، وكان مراد بيه بيحبني علشان خدامه ومتربي على إيده، دلوقتي ماعادش حيلتي غير فلوس وطين وحجارة، ودول لا بيحبوا ولا بيكرهوا ولا هيردوا عليا لما أكلمهم.

- إنت غلطان يا عم يوسف، الفلوس هتخلي الناس كلها تتمنى رضاك.

- متهيأ لك، الفلوس ممكن تخلي الناس يضحكوا لي في وشي، لكنها مش هتغصب عليهم مايضحكوش عليا لما اديهم ضهري.

- وانت بعد الفلوس والأطيان والعز اللي بقى تحت إيدك يهمك الناس أصلا في إيه؟

- أنا واحد مقطوع من شجرة، لا ليا أب ولا أخ ولا اعرف لي خال ولا عم، واللي زيي بيبقى زي اللي تايه في صحرا وقابل ناس تانية تايهين برضه، ساعتها حتى لو ماتعرفش ولا واحد منهم بتكون متطمن بيهم، خوفك من الموت بيقل وبتحس إنكم لو مالقيتوش طريق ترجعوا منه أقل ما فيها هتلاقي حد يلقنك الشهادة ويحط عليك شوية تراب لما تموت من العطش.

الناس ليهم قيمة كبيرة قوي يا أستاذ فهمي ميعرفهاش إلا اللي عاش نص عمره لوحده، وأنا في كام يوم خسرت كل اللي باحبهم ويحبوني بسبب شوية ورق وحجارة، ولو رجع بيا الزمن شهر واحد كنت وطيت على رجل مراد بيه بوستها علشان يلغي الوصية الملعونة دي، ويخليني أكمل بقية حياتي خدام الناس بتحبه ولا إني أكملها بيه الناس بتكرهه.

أضاء كلام يوسف مساحات في قلب فهمي لم يصلها نور من قبل، أشفق عليه بشدة وتفهم موقفه، وهو الذي كان قبل دقائق بدأ يشك فعلا في قواه العقلية، فكيف لخادم فقير ألا يسعد بتحوله بين عشية وضحاها إلى واحد من الأعيان، لمجرد خوفه من تأثير ذلك على علاقته بأشخاص لا يقلون عنه بؤسًا؟ الآن أصبحت الصورة أكثر وضوحًا، عندما تقترب حياتك من نهايتها يصغر في عينيك كل ما يتقاتل عليه الناس، ويصبح إحساسك بحب الناس هدفك الأول، كأن كل نظرة حب منهم تطيل عمرك يوما.

لم يجد فهمي مخرجا من هذا الموقف سوى الاستئذان في

الانصراف، متحججا بالانشغال بقضايا مهمة في المكتب، على وعد بعودة قريبة للاطمئنان على أحواله، طلب منه التكيف مع الوضع الجديد وعدم التفكير في أي شيء، فالأمر ما زال في بداياته ومع الوقت سيذوب الجليد، وتزول أو حتى تخف وطأة الاغتراب، أكد له أيضا أنه سيدبر له، في أسرع وقت، خفيرا وسفرجيا بدلا ممن غادرا.

شكر يوسف محاميه على المجهود الذي بذله معه في اليومين الماضيين وطلب منه ألا يطيل الغياب، فقد أصبح الوحيد تقريبا الذي يرتاح في التعامل معه ولا يشك في نواياه تجاهه.

غادر فهمي واستلقى يوسف على المقعد، بعد قليل اكتشف أنه يجلس على هذا المقعد للمرة الأولى رغم أنه موجود في نفس المكان منذ عقدين من الزمن، فهو من حمله بيديه من عربة الأثاث التي توقفت أمام باب السراي إلى نفس مكانه الموضوع فيه الآن، عشرون عاما لم يجلس عليه أو يلمسه إلا عند تنظيفه، صحيح أنه أصلا لا يرتاح في الجلوس على الصالونات والأرائك، لكن مراد بك أيضا لم يكن ليتهاون معه إذا رآه جالسا على مقعده المفضل.

- مراد بك؟

قالها لنفسه بصوت مسموع وانتفض واقفا، اعتقد أحدا يبلغه بأنه قادم إليه، لكنه انتبه بعد لحظات إلى أنه لن يدخل عليه مجددا، لن يضربه بعصاه إذا أخطأ ولن يسبه بأبويه إذا تأخر في تنفيذ أحد أوامره، انتبه لكونه أصبح صاحب المقعد وغرفة المكتب والسراي نفسها، عاد فجلس على المقعد وأسند ظهره، ابتسم، ثم بكى.

-٩-

استمر غرق يوسف في بحور عميقة من الذكريات حتى انتشله صوت طرقات على باب حجرة المكتب.

- مين.

- أنا كوثر.

- عاوزة إيه يا كوثر.

- الغدا جاهز.

- طيب أنا جاي أهو.

اكتشف أنه جائع فعلا وأن معدته لم تستقبل أي كسرة خبز منذ الصباح، قام متثاقلا وتوجه نحو الباب في خطوات بطيئة، فتحه وتوجه تلقائيا نحو المطبخ، وجد إبراهيم يقوم بتنظيفه وجمع الأواني والأدوات المتسخة بالقرب من الحوض، نظر يمينا ويسارا فلم يجد شيئًا.

- أومال فين الأكل ده.

نظر إليه إبراهيم مدهوشًا:

- أكل إيه؟

- الأكل، كوثر قالت لي إن الأكل جاهز.

- والأكل إيه اللي هيجيبه هنا؟ الأكل في أوضة السفرة يا بيه.

قالها وواصل عمله في جمع بقية الأواني، وترك يوسف مشدوها يحاول أن يستوعب دفعات المياه الباردة التي تنزل على رأسه

تباعا، فعلى مدار أكثر من نصف قرن قضاها في هذا البيت كان مكان الطعام الدائم هو المطبخ، حاول أن ينفذ وصايا فهمي ويطرد هذه الأفكار من رأسه، وتوجه مسرعا ناحية غرفة السفرة، فلو استسلم لأفكاره لن يفعل أي شيء في حياته سوى عقد المقارنات بين ما كان وما هو كائن.

وقفت كوثر في مدخل الغرفة بعدما انتهت من ترتيب الأطباق على المائدة، عامرة بكل ما لذ وطاب، لحوم حمراء وفراخ محمرة، تتوسطها بطة كبيرة بخلاف الأرز والخضراوات والطواجن والصواني الخارجة للتو من الفرن.

تسمر أمام المائدة لثوان يقلب عينيه بين الأطباق والصواني، ويميز بأنفه الروائح الشهية الخارجة من كل صنف، والتي تكفي وحدها للشعور بالشبع.

- أنا هابقى معاك هنا لحد ما ييجي سفرجي جديد، اتفضل الأكل بالهنا والشفا.

قالت له كوثر ذلك بعدما لاحظت وقوفه الطويل أمام المائدة دون حراك.

- وهو انا هاكل كل ده لوحدي؟

- كُل اللي تقدر عليه. خير ربنا كتير.

هز رأسه إيجابا دون أن ينطق وجلس على أحد مقاعد السفرة، سحب طبق شوربة صغير كان أمامه وشرب قليلا منه ثم أعاده لمكانه، انتقل بعدها إلى الفرخة المكتوفة فأخذ منها قطعة صغيرة وضع في فمه منها قطعة أصغر، لاكها يمينا ويسارا لفترة طويلة وبلعها بصعوبة وشرب خلفها كمية كبيرة من الماء.

كانت كوثر ترصد كل ذلك باستغراب شديد، رجل قضى عمره كله في شقاء وحرمان لا يأكل إلا الفتات، وعندما أصبح سيدا صاحب قصر مترامي الأطراف وأمامه مائدة تخطف الأبصار يُعرض عنها، ويعاني ليبتلع بعض الشوربة أو قطعة صغيرة من الدجاج.

كان مراد بك رجلاً أكولاً، بوسعه أن يلتهم وحده محتويات مائدة كالتي أمام يوسف الآن، ويسب إبراهيم بعدها لأنه لم يجهز كمية كافية من الطعام، حتى عندما كان يتبقى منه شيء لم يكن يسمح لأحد من خدمه بتناوله ويأمرهم بإلقائه في القمامة، إذ كان يتشاءم إذا تناول أحد ما تبقى من طعامه، وهي العادة التي أخذها من زوجته وحافظ عليها حتى بعد موتها.

دائما ما كان للخدم، ومنهم يوسف، طعامهم الخاص، يتراوح بين البصارة والعدس والفول والبطاطس المهروسة، اللحوم مرة واحدة أسبوعيا، ولا تكون لحوما بالمعنى المعروف، لكنها تكون عبارة عن رؤوس وأرجل وأحشاء الطيور التي يأكلها مراد بك طوال الأسبوع، ويتم تجميعها في الثلاجة حتى تصبح كافية لوجبة يأكل منها كل من يعملون في القصر.

إذن فيوسف ليس متشبعا باللحوم للدرجة التي تجعله عازفا عنها الآن، حين توضع أمامه بهذه الكمية وذاك التنوع، وبعدما فشلت كوثر في العثور على إجابة لأسئلتها سألته:

- هو الأكل مش عاجبك ولا إيه؟

فاجأه سؤالها فتطلع إليها بارتباك:

- هاه؟ لا أبدا الأكل زي الفل والله، بس بايّني أنا اللي شبعان.

- بس انت ماكلتش حاجة طول النهار ووشك أصفر ومخطوف، كل أي حاجة ترُم عضمك وتجرِّي الدموية في بدنك.

- آه والله أنا كنت جعان خالص بس مش عارف من ساعة ما قعدت نفسي اتسدت، يمكن عشان مش واخد على الأكل على السفرة ولا عشان...

صمت قليلا ثم لمعت عيناه وكأنه اهتدى إلى سبب ضعف شهيته، نظر إلى المائدة وما عليها ثم إلى كوثر التي كان تعقد حاجبيها استغرابا من تصرفات سيدها الجديد غريب الأطوار، ثم قال:

- والله فكرة. لمي كل الأكل ده وخديه افرشيه في المطبخ ونادي إبراهيم وفرج وهانم وكل العيال ييجوا ياكلوا معانا.

تجمدت كوثر في مكانها، واتسعت حدقة عينيها وهي تنظر إلى يوسف معتقدة أن الثروة المفاجئة أصابته بلوثة، لكنه واصل حديثه غير عابئ برد فعلها المرسوم على وجهها:

- مالك بتبحلقي فيا كده ليه؟ همّي يلا اعملي اللي قلت لك عليه، الأكل يحب اللمة وأنا لا واخد آكل لوحدي ولا واخد آكل على سفرة.

تحركت ناحية المطبخ لتجمع زملاءها وتخبرهم بما قاله يوسف، اعتقدوها في البداية تسخر أو تحاول توريطهم، لكنهم تحركوا تحت وطأة إلحاحها لينقلوا الطعام من غرفة السفرة إلى المطبخ، وبينما هم في الطريق إلى حجرة السفرة وجدوا يوسف قادما بنفسه يحمل طبقين ويطلب منهم إحضار بقية الأطباق، فعلوا ذلك سريعا وفرشوا ملاءة في منتصف المطبخ وضعوا

عليها الطعام وتحلّقوا حولها ومعهم يوسف، أكلوا جميعا بشراهة وخطفوا الطعام من بعضهم، وارتفعت ضحكاتهم حتى إن المارين من أمام السراي كان يمكنهم سمعاها بوضوح.

أكل يوسف حتى شبع، وجلس يسمع حكايات سعدية التي لا تنتهي، طلب من هانم إعداد كوب شاي ثقيل يهضم به هذه الأكلة، وهو ما أمّن عليه الجميع وطلبوه لأنفسهم أيضا، غضبت هانم بتكليفها بذلك من بين كل الجالسين لكنها قامت في النهاية على مضض، استمرت سعدية في حكاياتها، وأخذ إبراهيم يخبط على بطنه الذي دخلته اليوم أصناف أبدع في صنعها لسنوات، دون أن يأكل منها إلا خلسة وبكميات لا تُذكر وبغرض التذوق فقط، فيما استند فرج على أحد أركان المطبخ مغمضا عينيه في غفوة قصيرة، أما كوثر فانشغلت برفع بقايا الطعام أو الأطباق بالأحرى لأن الطعام نفسه لم يتبق منه أي شيء!

- عارف يا يوسف بيه؟

قاطع يوسف سعدية قبل أن تكمل الجملة، وقال لها:

- أهي يوسف بيه دي هي اللي منغصة عليا حياتي في البيت ده. جرى إيه؟ هو انا مش يوسف اللي عايش معاكم بقالي سنين؟ إيه اللي اتغير يعني؟

قال إبراهيم:

- من ناحية اللي اتغير فاللي اتغير كتير، إنت بقيت صاحب السرايا وولي نعمتنا واحترامك واجب.

- استغفر ربك، هو بس ولي نعمتنا كلنا، وبعدين هو الاحترام مايجيش غير بالبهوية والبشوية؟

- أومال نقول إيه؟

- زي ما طول عمركم بتقولوا، عم يوسف.

التقطتها سعدية سريعا وكأنها كانت تنتظرها:

- عارف يا عم يوسف؟ باين كده ان أيامك هتبقى أحلى أيام وهتنسينا الشقا اللي شفناه طول عمرنا مع مراد، الله يجحمه بقى مطرح ما راح.

تغيرت ملامح يوسف وكاد الدم يفجر وجهه إلى أشلاء تملأ أرض المطبخ، ظنت الخادمة أنها يمكن أن تتقرب لسيدها الجديد بذم القديم، لكنها لم تكن تعرف أن يوسف يمكن أن يتقبل طعنة في قلبه بصدر رحب ولا توجه كلمة سوء لسيده ساكن التراب.

- بصي يا سعدية، وبصوا انتو كمان كلكم، اللي عاوز يقعد في البيت ده يحترم صاحبه، وصاحبه هو مراد بيه، هو صاحبه وهيفضل صاحبه حتى لو بقاله ١٠٠ سنة في التُربة، فاللي هسمعه بيقول عن البيه كلمة رضيّة بعد كده مش هيحصل له كويس أبدا.

قالها ثم قام وغادر المطبخ وهو يتمتم بكلمات غاضبة غير مفهومة، فيما أخذ الجميع ينظرون إلى سعدية وإلى بعضهم البعض بعدما انتهت الغدوة السعيدة نهاية مأساوية، لكن الجيد في الأمر أنهم عرفوا مبكرين الشيء الذي يحوّل صاحب القصر الجديد إلى وحش كاسر.

-١٠-

- شايفين الإخلاص؟ الحاجات دي انتهت من الدنيا خلاص ولا عاد فيه وفاء ولا إخلاص لحد، بقى كل واحد همه يحط إيده في بطن اللي قدامه وياخد مصارينه يعملها ممبار.

ضحكنا أنا وهيثم وعمي عاطف على غرابة التشبيه، بينما ظل عمي شحاتة ينظر إلينا باشمئزاز وينتظر انتهاءنا من وصلة الضحك وضرب الكفوف، ثم قال:

- خلصتم؟ أهو ده اللي انتم فالحين فيه، عاوزين تقضوا حياتكم كلها ضحك ومألسة وهزار، لكن تسمعوا الكلام وتشوفوا اللي قبلنا كانوا جدعان ازاي وبيصونوا العشرة والعيش والملح ازاي يمكن تتعلموا منهم حاجة؟ لأ.

وضعت يدي على فمي حتى تأكدت أن أثر الابتسامة زال من عليها تماما، غمزت بعيني لهيثم ليتماسك ويتوقف عن الضحك هو الآخر، ثم توجهت ناحية عمي شحاتة متجنبا النظر في عينيه:

- خلاص يا عمي احنا آسفين. مش قصدنا حاجة والله بس التشبيه بتاعك كان حلو قوي خلانا نضحك، اتفضل كمل واحنا هنسمع من غير ما نتكلم خالص ولا نفتح بقنا خالص.

- شغال عندكم انا أظن، إحكي استنى إحكي استنى، أصلي باحكي لكم حدوتة قبل النوم، بس هاقول إيه؟ أنا اللي غلطان إني صغرت نفسي مع شوية عيال زيكم.

وقف عمي والتقط عصاه ووضع عباءته حول كتفيه وهم بالانصراف، فقمت ووضعت يدي على كتفه برفق وحاولت الاعتذار له وإقناعه بالبقاء ومواصلة الحكي، لكنه أزاح يدي من على كتفه ورمقني بنظرة حادة، وقال:

- رايح انام يا اخويا، واقِف على رجلي طول اليوم.

ذهب باتجاه الباب وقبل أن يخرج استدار برأسه إلينا وتحوّل ببصره بيني وبين هيثم وقال:

- جتكم الهم.

حزنت بشدة لأن عمي قطع حكاية عبد الميت في لحظة كنت أود معرفة ما حدث بعدها، كما خفت أن يكون عمي شحاتة قد قرر أن يتوقف عن الحكي، أو حتى يواصله لكن ليس بنفس الحماس ولا بنفس الاهتمام بالتفاصيل، غير أن عمي عاطف، الذي قام واستأذن في الانصراف هو الآخر، طمأنني وهو يرتدي حذاءه قائلا:

- ماتخافش، شحاتة بيحب يحكي حدوتة عبد الميت أكتر ما انت بتحب تسمعها.

طلب مني هيثم أن نقوم نحن أيضا لنرتاح استعدادا ليوم عزاء جديد، خصوصا أن غدا هو اليوم الثالث للوفاة، وهو في عادات القرية في نفس أهمية وازدحام اليوم الأول، ويأتي كل أهل القرية تقريبا للعزاء مجددا، استغربت الفكرة لكنني لم أناقش أو أسأل أو أعترض كما قررت أن أفعل من البداية.

طلبت منه أن يخلد هو للنوم، أما أنا فسأذهب إلى منزل عمي حسن للاطمئنان على أمي، فمنذ أتممنا مراسم الدفن

لم أرها سوى مرة واحدة خاطفة، عرض أن يأتي معي لكنني رفضت وأكدت له أنني أعرف الطريق إلى بيت عمنا جيدا، لم يكرر عرضه وأخبرني بأنه أخرج لي ملابس من عنده ووضعها على الفراش حتى لا أنام بملابسي، ثم خرج قاصدا غرفته، ربما فهم أنني أريد أن أتحدث مع أمي وحدنا، وهو كذلك.

في الطريق إلى بيت عمي كانت البلدة أشبه بمدينة أشباح، لا أحد في الشارع سواي، نظرت في ساعة المحمول فإذا هي العاشرة والنصف ليلا، أنهى الجميع يومهم سريعا واستقروا في بيوتهم استعدادا ليوم جديد، بسيطة هي تلك الحياة، لا تعقيدات تحكمها ولا وسائل رفاهية كثيرة تفسد أهلها، حتى رائحة الهواء مختلفة لدرجة أنك تشعر ببرودة كل شهيق في رئتيك، لا تختلط به أدخنة ولا ملوثات ولا حتى أنفاس بشر، هو هواء، هواء وفقط.

السماء صافية والنجوم لامعة وكبيرة، أقوم بتوصيل كل مجموعة منها ببعضها البعض في مخيلتي، فيكون الناتج قطعا فنية تفوق في جمالها وإتقانها لوحات بيكاسو وسلفادور دالي، هذا حصان يطير بجناحين، تلك العذراء مريم حاملة المسيح، هناك طفل يحبو، وفي الخلف فتاة بفستان منفوش ومرصع بالألماس، لا أصدق أن هذه السماء هي نفسها التي أراها في القاهرة، كأنني لم أسافر بين محافظتين، بل انتقلت عبر مجرتين.

وصلت إلى بيت عمي، طرقت الباب، جاء صوت ابنته الوسطى فرح من خلفه:

- مين؟

- أنا خالد.

فتحت الباب سريعا واستقبلتني بحفاوة كبيرة:

- أهلا يا دكتور، اتفضل، البقية في حياتك ربنا يجعلها آخر الأحزان.

- الحمد لله على كل شيء، ماما موجودة؟

- أيوه طبعا، اتفضل في أوضة الأنتريه وهناديها حالا.

شكرتها ودخلت الغرفة، وقبل أن أصل إلى المقعد كانت أمي قد وصلت، سمعت فرح وهي تنطق باسمي فجاءت على الفور، أغلقت الباب خلفها ونظرت إليّ بعين مرتجفة، هرعت إليّ ودخلت في حضني، لم يكن أينا قادرا على الكلام ولا راغبا فيه، شعرت بدموع ساخنة على كتفي، وسمعت آهات مكتومة لو خرجت كما هي لأيقظت جميع سكان هذه البلدة النائمة، استغرق الأمر دقائق حتى خرجت من أمي أول جملة:

- أبوك مات يا خالد.

أمسكت برأسها، قبّلت جبينها، ثم يديها، أجلستها بجانبي على الأريكة نفسها، كنت قد جهزت كلمات كثيرة أواسيها بها لكنني لم أتذكر منها أي شيء، ولم أنس تلك الكلمات فحسب، بل أظنني نسيت الكلام بوجه عام، لا أقدر على صياغة جملة متماسكة، لا أعرف ماذا يجب أن أقول، أمي سيدة قوية، المرات التي رأيت دموعها فيها لا تتجاوز أصابع يد واحدة، وفي مواقف عصيبة أكبر من أن يحتملها إنسان، لكنها الآن تبكي كما لم تبكِ من قبل، أصابتني دموعها وأنفاسها المضطربة وروحها الشريدة بفقدان مؤقت في الذاكرة، لكن يبدو أنني بدأت في التعافي، ها أنا تمكنت من صياغة جملة:

- الحمد لله يا أمي، ادعي له ربنا يرحمه ويجمعنا بيه في الآخرة على خير.

أخرجت من طيات ملابسها منديلا مسحت به دموعها، ثم ربتت علي يديّ برفق، وقالت:

- ماعلش يا حبيبي زودت همك. بس أنا بقالي يومين كاتمة الدموع دي، ولو ماخرجتش دلوقتي كنت ممكن أموت من القهرة.

- بعيد الشر عليكي، وليه تكتمي دموعك يا حبيبتي؟ ريحي نفسك وعيطي، الدموع بتريح، خصوصا في المواقف اللي زي دي.

تركت يدي وأسندت ظهرها وتطلعت في سقف الغرفة:

- ضهري انكسر يا ابني، أبوك ده كان أهم حاجة عندي في الدنيا، من ساعة ما مات وأنا حاسة اني ماعادش ليا لازمة في الدنيا دي، وبدعي كل دقيقة إني أروح له.

- ماتقوليش كده تاني لو سمحتي، يعني إيه مالكيش لازمة؟ كفاية إنك تبقي معانا وتاخدي بالك مننا وتربي ولادنا زي ما ربيتينا وتفرحي بآية، وفوق ده كله تدعي لنا، لو كنتي خلاص مش عاوزانا فاحنا عاوزينك يا ستي.

- ربنا يخليك يا ابني ويخلي اخواتك وولادكم، أنا بس صعبان عليا فراق أبوك.

- وصعبان علينا كلنا، وانتي عارفة كويس هو كان بالنسبة لي إيه، بس يعني انتي كان عاجبك تعبه في أواخر أيامه؟ هو دلوقتي في مكان أحسن بكتير مافيهوش تعب ولا وجع.

- ربنا يرحمه ويرحمنا من بعده.

دخلت شقيقاتي الثلاث علينا، تبدلت ملامحهن تماما، كسى

الشحوب وجوههن، وانتفخت أعينهن من كثرة البكاء، سلمن عليّ وبكين في حضني، عنفتهن وطلبت منهن النظر في المرآة، وأخبرتهن أن أبانا لو كان حيا لما أعجبه ما يفعلنه بأنفسهن، هدأن قليلا وجلسن، بعدها دخلت سارة وسلمت عليّ ببرود وجلست على مقعد بعيد نسبيا، بدأت أحكي مواقف أبي وعباراته المضحكة حتى أهوّن على أمي وشقيقاتي، ابتسمن بتحفظ وبدأت ملامحهن في التحسن، شعرت بإرهاق يعتصر عظامي وأعضائي وتذكرت أنني سأستيقظ مبكرا، لبدء يوم جديد من أيام العزاء التي لا يبدو أنها ستنتهي، طلبت من أمي وشقيقاتي الذهاب إلى النوم، واستعديت للمغادرة، لكن سارة تحدثت للمرة الأولى في الجلسة قائلة:

- ثواني يا خالد عايزاك.

خرجت أمي وشقيقاتي وبقيت أنا وسارة وحدنا في الغرفة، أغلقت الباب ووقفت أمامي:

- البقية في حياتك.

- حياتك الباقية يا حبيبتي.

- هي قصة العزا دي هتخلص إمتى؟

- قصة؟ لا والله مش عارف، المفروض فيه يوم طويل بكرة وبعدها بنسبة كبيرة مش هيكون فيه حاجة، يعني ممكن على بعد بكرة نروح ان شاء الله.

- بس انا هاروّح بكرة الصبح.

- ويا ترى بتاخدي رأيي ولا بتعرفيني.

- باخد رأيك، أنا تعبت من الجو ده، وكمان اخواتي هيتجمعوا

بكرة عند بابا وأنا عاوزة أكون موجودة.

- يعني حتى وبابا ميت مش عاوزة تضيعي ميعاد تجمع في بيت أهلك؟ وبمناسبة بابا صحيح هو ليه ماجاش العزا؟

- هو كلمك على الموبايل كذا مرة وانت ماكنتش بترد فقال لي أعزيك.

- كلمني على الموبايل، آه، لا والله فيه الخير، سعيكم مشكور، بس ازاي هتروّحي بكرة، أنا مش هاقدر أسيب العزا.

- بابا هيبعت لي العربية بالسواق الصبح علشان ياخدني.

صمت طويلا وتعمدت النظر في اتجاهات أخرى ثم نظرت إليها قائلا:

- تبقي بتعرفيني.

خرجت من بيت عمي بعدما رأيت أمي وشقيقاتي وبعدما سمعت كلام سارة، لأجد كل شيء قد تغير، هدوء الشوارع صار موحشا، الهواء النقي أصبح خانقا، والنجوم أفلت تاركة السماء أكثر سوادًا.

-١١-

وقفت بنفس الطريقة في نفس المكان لأستقبل الأشخاص نفسهم وأسمع الكلام ذاته فأرد بالردود نفسها، جميل أن يتشارك الناس في المحَن والأحزان، السيئ أن يتحول ذلك إلى عبء يفوق المحن والأحزان نفسها.

الفارق أنني هذه المرة أصبحت أكثر خبرة في طريقة الاستقبال وسرعة الرد، كما أنني أصبحت أعرف بعض أسماء الضيوف خصوصا الذين حضروا للعزاء في الأيام الثلاثة، وعلى دراية أكثر بما يسميه أعمامي «الأصول»، متى أقف ومتى أجلس، متى أقف في منتصف قاعة العزاء لأقول لهم سعيكم مشكور، متى أشير لهيثم لكي يوزع الشاي.

في منتصف اليوم كنت قد أنهكت تماما، كأن مجهود الأسبوع الأخير، بدءا من تأخر حالة والدي مرورا بوفاته ودفنه وتلقي العزاء فيه، التف حولي وأخذ ينهش في لحمي ويسحق عظامي، حاولت التحامل مصبرا نفسي بأنها قد هانت، ساعات قليلة وتنتهي هذه المعاناة ويعود كلٌ إلى حياته وعمله، أعرف أنه حين يحدث ذلك، ويصبح بوسعي الجلوس مع نفسي، سأشعر حينها بغياب والدي لتبدأ معاناة جديدة، لكنها مراحل سأمر بها على أي حال، لذلك سيكون انتهاء إحداها أمرا جيدًا.

فجأة انتفض المعزون القريبون من مدخل القاعة قيامًا، وقبل أن أتساءل عما حدث كان مبروك يدخل من الباب، وخلفه

أربعة يبدو أنهم من أعيان القرية، وفي المؤخرة خفيران يحملان بنادق عتيقة، تحرك عمي شحاتة ليقابله عند الباب وسلم عليه بحفاوة، ثم جاء فسلم عليّ وعلى عمي عاطف وعمي حسن وهيثم وأسامة زوج شقيقتي، وفي تلك الأثناء كان عمي شحاتة يخلي له ولمرافقيه موقعا مميزا في القاعة، وينقل زجاجتين من المياه المعدنية إلى المنضدة المقابلة لهم.

وقبل أن يترك العمدة يد أسامة كان حذاء طائر يصافح صدره بعنف، وعندها سادت الفوضى القاعة، وتوجه الخفيران ناحية الشخص الذي ألقى الحذاء فأوسعاه ضربا وعاونهما في ذلك بعض مرافقي العمدة وبعض الحضور، وفيما يتلقى الركلات واللكمات من كل اتجاه كان الرجل يكيل السباب واللعنات للعمدة.

- خدت أرضي يا حرامي؟ لهفتها في كرشك يا ضلالي؟ حار ونار في جتتك، إن شاء الله آخرتك سودة، حسبي الله ونعم الوكيل فيك. حسبي الله ونعم الوكيل!

- شيلوا الكلب ده ارموه برة، العزا هيبوظ.

قالها العمدة بهدوء وهو ينفض آثر الغبار الذي تركه الحذاء على عباءته السوداء، وسريعا استجاب الخفر للأمر ومعهم عمي شحاتة الذي جذبه بعنف من ملابسه وقال له بغضب:

- بقى يا سرحان الكلب جاي تضرب العمدة وهو ضيفي، تلاتة بالله العظيم لولا الظروف لكنت ضربتك بالنار.

- ما هو انتم كلكم كده. تحطوا صدغكم تحت جزمة الظالم وبعدين تستغربوا بيدوس عليه ليه؟ خليكم طبلوا له لحد ما

ياخد أرضكم واحد ورا التاني، وتبقى البلد كلها بتاعته وتشتغلوا عنده بالأجرة.

لم يرد عليه عمي ودفعه بقوة خارج القاعة، فيما لحق به الخفيران وواصلا ضربه حتى ابتعدوا عن المنطقة تمامًا، نظرت إلى هيثم وعمي حسن الذي بدا عليهما التعاطف مع سرحان، أما عمي شحاتة فذهب إلى العمدة يطيب خاطره ويعتذر له، لكن الأخير بدا باردا رغم صعوبة الموقف، وانشغل بفتح زجاجة مياه موضوعة أمامه، وخاطب عمي دون أن ينظر إليه:

- ماحصلش حاجة يا شحاتة انت مالكش ذنب، روح مكانك وخد عزاك.

عاد المعزّون إلى أماكنهم وواصل المقرئ تلاوة القرآن، لكن التوتر بدا واضحا على كل الوجوه، ونظرات الجميع معلقة بمبروك تراقب ملامحه وتعد عليه أنفاسه، أما هو فجلس واثقا من نفسه مستندا بمرفقه على عصاه، ولم تكن قسماته وحركاته تشي أبدا بأن هذا الشخص تعرض لموقف محرج يصل إلى حد الإهانة منذ لحظات، هل هي الثقة في أنه لم يرتكب خطيئة تستدعي الاضطراب؟ أم أنه سلوك الذي رفعه الغرور منزلة لم يعد يرى منها ضحاياه أصلا؟

ثم ما هذه البلدة؟ من يرى ليلها حين لا تفرق شوراعها شيئا عن مقابرها، لا يراها في النهار وهي غارقة في الشائعات والجدل والحكايات والمعارك.

انتهى المُقرئ من تلاوة الربع، فهب العمدة واقفًا ومعه من دخلوا معه، توجّه ناحيتنا وسلم علينا وسار مسرعا نحو الباب متبوعا بأبصار كل من في القاعة، ولحق به عمي شحاتة

وهـو يتمتـم في أذنـه بكلمـات غـير مسـموعة حـتى غـاب الجميـع عـن الأنظـار.

اقتربت من هيثم وسألته:

- إنت فاهم حاجة؟

- لا مـش عـارف، بـس هتلاقيـه واحـد مـن الـلي مـبروك نصـب عليهـم وخـد أرضهـم

- واحد من اللي نصب عليهم؟ هم كتير؟

- يووووووه ماتعدّش.

- ده أنـا كنـت فاكـر موضـوع العمـدة المفـتري ده انتهـى مـن السـبعينات.

اعتـدل هيثـم في جلسـته واسـتند عـلى ظهـر المقعـد، وقـال بعـد أن رفـع صوتـه قليـلا:

- مش كل حاجة يبطّلوا يعملوا عليها أفلام تبقى خلصت.

عـاد عمـي بوجـه شـديد الحمـرة يهـز رأسـه بعصبيـة ويضم شـفتيه ويعضهما في حـركات لإراديـة، جلـس بجـواري شـارد الذهـن حـتى إنه لـم يشـعر بدخـول مجموعـة جديـدة مـن المعزيـن وظـل جالسـا رغـم أننـا قمنـا جميعًـا، وقـف أمامـه أحـد المعزيـن باسـطا يـده، لكـن عمـي بقـي عـلى نفـس الحالـة حـتى غمزتـه في كتفـه فالتفـت إليّ ثـم نظـر إلى اليـد الممـدودة أمامـه، وعندهـا وقـف وسـلّم عـلى الداخلـين ثـم عـاد لنفـس حالتـه الأولى.

- إهدا يا عمي، اللي حصل حصل وانت مالكش ذنب.

قلتهـا بصـوت منخفـض قـدر الإمـكان واضعـا يـدي عـلى فمـي، لكنـه نظـر إليّ باحتقـار واضـح ابتلعتـه مُجـبرا، ورد:

- اسكت يا ابن عبد الله انت مش فاهم حاجة.

- لا فاهم، واحد مفتري خد أرض واحد تاني فأول ما الواحد التاني شافه ضربه بالجزمة، يعني انت مش طرف في الموضوع أصلا.

- ما شاء الله، والله وبقيت خبير بالبلد ومشاكلها كمان، لا يا ابن اخويا، اللي حصل إن العمدة انضرب عندي وهو ضيفي وفي مكاني، دي حاجة مش هيفهمها واحد جاي البلد بس عشان ياخد عزا ابوه ويرجع.

بدأ المُقرئ في التلاوة مجددا فصمتنا وعاد كلٌّ منا إلى وضعه، ولم تمر عدة دقائق حتى سمعنا صوت صرخات تطلقها مجموعة من النساء في الشارع، كانت الصرخات عالية ومتتابعة ومتزايدة بحيث لم يعد ممكنًا تجاهلها، توقف المقرئ وخرج كل من في القاعة إلى الشارع ومن بينهم أنا، كان المشهد مروّعا، نساء في أعمار متفاوتة يتبارين في الصراخ ويسرن بخطى متسارعة أقرب إلى الركض إلى جانب بعض الرجال والأطفال.

- إيه يا بت انتي وهي فيه إيه؟

سألهن عمي بعدما اعترض طريق الموكب شبه الجنائزي، وجاء الرد من شاب ثلاثيني يرتدي فانلة حمالات بها أكثر من ثقب فوق بنطلون ليس أفضل حالا:

- العمدة حاجز أخويا في الدوار والغفر بتوعه هيموتوه من الضرب، تعالى معانا يا حاج شحاتة والحقهم قبل ما يموتوه.

بدا على عمي التوتر وهو يحاول اتخاذ قرار، فكيف له أن يشفع لمن أهان ضيفه، وكيف له أن يرد من طلب نجدته، أخذ

يلـوم أهـل سرحـان عـلى مـا فعلـه أمـام عينيـه وقلـة احترامـه في حضرتـه وحـضرة كبـار البلـد، وفي محاولـة معرفـة تفاصيـل أكـثر عمـا حـدث بعـد خروجـه مـن العـزاء بصحبـة الخفيريـن، ومـن أبلغهـم بأنـه في دوار العمـدة، وبـدا أنـه يحـاول فقـط إضاعـة بعـض الوقـت لحـين الاسـتقرار عـلى قـرار مـن بـين خيـارات تبـدو كلهـا صعبـة، وفي النهايـة اتخـذ عمـي القـرار:

- هاجـي معاكـم، مـش عشـان خاطـره، إن كان عليـه هـو يسـتاهل كل اللـي يجـرا لـه وزيـادة، أنـا هاجـي بـس عشـان ولاده.

صعـد عمـي إلى البيـت ليرتـدي ملابـس أخـرى، لـم أكـن أعـرف مـا الداعـي، فالملابـس الـتي يرتديهـا طـوال العـزاء قيّمـة جـدا، لكـن يبـدو أنـه كان يريـد أن يدخـل عـلى العمـدة في زينتـه علّـه يخـشى. بعـد دقائـق نـزل فعـلا يرتـدي جلبابـا شـديد الأناقـة فوقـه عبـاءة سـعودية تكشـف هيئتهـا عـن ثمنهـا، وحـتى الحـذاء يبـدو مـن بريقـه ونقـاء جلـده أنـه يرتديـه للمـرة الأولى، لـولا أنـه عمـي وأنـني أعرفـه لاعتقدتـه عمـدة القريـة أو نائـب الدائـرة.

كان كل المعزيـن قـد نزلـوا ووقفـوا في الشـارع ليسـتطلعوا الأمـر، وأصبحـت القاعـة خاويـة تمامـا إلا مـن المقـرئ، كان يُفـترض أن ينتهـي العـزاء بعـد سـاعتين تقريبـا، لكـن عمـي وقـف أمـام القاعـة وخاطـب المعزيـن الملتفـين حـول أسرة سرحـان:

- سعيكم مشكور جميعا.

ثـم دخـل إلى القاعـة وشـكر المقـرئ وطلـب منـه الاكتفـاء بهـذا القـدر، لحـق بـه عمـي عاطـف وأخـبره بـأن الوقـت مـا زال باكـرا عـلى إنهـاء العـزاء، وأننـا يمكـن أن نواصلـه لحـين عودتـه، لكـن عمـي شـحاتة التفـت إليـه بعنـف، ورمقـه بنظـرة كادت تردِيـه أرضـا، وقـال

لـه بصـوت دوّى في أرجـاء الغرفـة:

- إنت اتهبلت ولا إيه يا عاطف؟ عاوزين تاخدوا العزا في غيابي؟

غضِـب عمـي عاطـف مـن الطريقـة الـتي كلمـه بهـا شـقيقه أمامنـا، فانـصرف دون أن ينطـق بكلمـة واحـدة، تابعتـه بعينـي مشـفقا وربمـا هـذا كل مـا يمكنـني فعلـه، فقـد أصبحت أشـعر بأنـني مشـاهد وحيد لمسرحيـة فلكلوريـة تجـري كل فصولهـا أمامـي ولا أملـك إلا المتابعـة والصمـت، لكنـني سـئمت مقعـدي في الصالـة، أريـد أن أكـون أحـد المشـاركين في هـذه المسرحيـة، لا أشـترط دور بطولـة، يكفـي دور كومبـارس صامـت بحيـث أشـارك في الأحـداث عـلى خشـبة المـسرح.

- أنا هاجي معاك يا عمي.

غضبـت مـن عمـي لاتخـاذه قـرارا منفـردا كالعـادة بإنهـاء عـزاء أبي، لكـن ذلـك منحـني فرصـة لأطلـب الذهـاب معـه إلى بيـت العمـدة، وهـو الطلـب الـذي أمّـن عليـه هيثـم وطلبـه لنفسـه أيضـا، انتظرت أن يرفـض عمـي طلبنـا، أو عـلى الأقـل يوافـق عليـه بعـد مفاوضـات وأخـذ ورد، لكـن المفاجـأة أنـه نظـر إليّ وإلى هيثـم لثـوان ثـم وافـق عـلى الفـور، توقعـت أنـه يخـشى مواجهـة العمـدة وحـده فـأراد أن يدخـل عليـه بـ«عزوتـه» وهـو أمـر غريـب عـلى عمـي الـذي ظننتـه لا يخـاف أحـدًا، لكـن الواضـح أن الحـال مـع مـبروك مختلفـة.

-١٢-

سرنا على الأقدام لنحو عشر دقائق حتى وصلنا إلى دوار العمدة، كنا في مسيرة كبيرة يتقدمها عمي شحاتة وخلفه بخطوة واحدة كنا نسير أنا وهيثم وعمي حسن، وفي الخلف أسرة سرحان وأقاربه، ثم بعض أهالي القرية الفضوليين الذين أرادوا أن يروا ما يحدث رأي العين، أما الدوار فلم يكن مبنى قديما كما جرت العادة أو كما كنت أتصور أنا، بل هو أقرب لفيلا مبنية على الطراز الحديث الذي نراه في ضواحي القاهرة الراقية، محاطة بسور عالٍ يجمعها بمساحة كبيرة أمامها، لكنها رغم ذلك بدت موحشة مؤثِّرة، خصوصا مع وجودها على أطراف القرية وسط مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية، ما يجعل السكون يسيطر على الأجواء، لا يقطعه سوى أصوات نباح الكلاب الآتية من خلف أسوارها، وحفيف نعال السائرين خلفنا.

أمام الباب جلس خفير على مقعد من الخوص ممسكًا بعصا طويلة ينبش بها في الأرض، طلب منه عمي أن يخبر العمدة بقدومه، دخل لدقائق قليلة لكنها مرت ببطء شديد، أخرج فيها عمي منديله الأبيض أكثر من مرة ومسح به وجهه ورأسه، ولم يتحدث خلالها أينا إلى الآخر، وحدها الأعين كانت تتكلم وتكشف عن قلق واضطراب يسود الجميع، وتزيده عنفا أصوات النحيب الخارجة من قريبات الفلاح الأسير.

قطع الصمت رنين هاتف عمي شحاتة، أخرجه من جيبه ونظر في شاشته ثم رد سريعا:

- أيـوه يـا حـضرة العمـدة.. أيـوه.. أنـا وحسـن أخويـا وخالـد ابـن اخويـا وهيثـم ابـني وأهـل سرحـان وشـوية مـن أهـل البلـد.. ماينفعـش ياحـضرة العمـدة.. ماهـو برضـه.. أصلهـم عايزيـن... خـلاص.. الـلي تشـوفه.. مـع السـلامة.. مـع السـلامة.

تعلقت كل الأعين بعمي لتعرف ما دار في المكالمة، فقال:

- العمـدة مـش عـاوز زيطـة كتـير، هدخـل لـه أنـا وحسـن وهيثـم والدكتـور خالـد وانتـم اسـتنونا هنـا لحـد مـا نطلـع لكـم ونعرفكـم كل حاجـة، وإن شـاء الله سرحـان يخـرج معانـا.

تعالـت أصـوات أقـارب سرحـان بمـا يعـني رفضهـم ذلـك الاقـتراح وإصرارهـم عـلى الدخـول، أشـار لهـم رجـل يبـدو في العقـد الخامس مـن العمـر بيـده ليصمتـوا، ثـم قـال لعمي:

- إزاي يعـني يـا حـاج شـحاتة؟ إزاي هنقعـد هنـا ومـش عارفـين ابننـا بيجـرى لـه إيـه؟ إحنـا رجلنـا عـلى رجلـك ومـش طالعـين غـير وسرحـان في إيدينـا انشـاالله تطـير فيهـا رقـاب.

غضـب عمي بشـدة وشـق الصفـوف ليصـل إلى المتحـدث فمسـكه بعنـف مـن ثيابـه:

- إنـت بتصغـرني يـا عبـد العزيـز؟ إنتـم جبتـوني عـلى مـلا وشي وسـبت عـزا أخويـا عشـان خاطركـم، وجـاي هنـا تكـسر كلامـي؟

- أنـا مابكـسرش كلامـك يـا حـاج، أنـا باكـسر كلام مـبروك. مـا هـو مـش أصـول عيلتكـم بـس الـلي تخـش وعيلـة صاحـب الشـأن تفضـل مرميـة هنـا لحـد مـا حـد يحـن عليهـا ويقـول لهـا أي حاجـة.

ترك عمي الرجل ثم عاد مجددا ووقف بيننا، وشأل في حسم:

- خلاصـة الـكلام، هتسـمعوا الـلي انـا قلتـه وتنفـذوه. ولا آخـد

ولادي وأرجع داري وتتصرفوا انتوا بقى زي ما انتم عاوزين؟

نظرت أسرة سرحان لبعضها البعض باستسلام، ثم قال شقيقه بصوت هامس:

- اتفضل يا حاج واحنا مستنيينك، بس أمانة ماتتأخرش علينا وترجع لنا بكلام يطمنا على اخويا.

هدأ عمي وأشار إلينا لنتحرك، فعبرنا البوابة الضخمة وأغلقها الخفير خلفنا على الفور، قلبت بصري في أرجاء المكان الذي أوشكت الشمس على مغادرته، لو كانت الظرف مختلفا لاعتبرت حديقة الفيلا غاية في البهجة، تملأها أشجار الفواكه المثمرة وتحيط بها أشجار النخيل وتغطي أرضها طبقة خضراء من الحشائش المهذبة، وتتوزع بها بشكل مدروس أشجار الورد البلدي مختلف الألوان، تختلط رائحته بروائح النعناع والقرنفل المنتشرة في فضاء الحديقة لتصفي الذهن وتبعث على السرور.

حاولت عدم الانشغال بذلك والتركيز فيما أتينا لأجله، وقبل أن أصل إلى باب الفيلا رأيت في الجانب الآخر من الحديقة سرحان، وقد ربطوه في مقعد خشبي وبقع الدماء تغطي ملابسه، ويقف خفير بجواره مثبتا خرطوم مياه موصول بـ«كولدير» على رأسه إمعانا في تعذيبه، هالني المشهد فانتفضت ناحيته دون تفكير لكن عمي جذبني من يدي بعنف، وقال بلهجة آمرة:

- طول ما انت هنا ماتعملش أي حركة ولا تقول أي كلمة غير بإذني وإلا هطلعك برة، انت فاهم؟

هززت رأسي بالموافقة بعدما أكدت لي طريقة كلامه أنه جاد في تهديده، كما أنني أشعر بالضغط النفسي الواقع عليه ولا

أريد أن أكون سببا في زيادته، هذا طبعا بخلاف تأكدي من أنني لن أتمكن من إنقاذ المسكين بهذه الطريقة. صعدنا درج السلم بهدوء وتوجهنا إلى غرفة مفتوحة على مدخل الفيلا ساقنا إليها الخفير. كان مبروك يجلس على مكتبه المزين بالأرابيسك والأصداف، أشار إلينا لنجلس دون أن يحرك ساكنا، فجلس عمّاي شحاتة وحسن على المقعدين المواجهين للمكتب، وجلست أنا وهيثم على مقعدين من المقاعد الجلد المنتشرة بطول جدران الغرفة.

- خير يا حاج شحاتة، أؤمر.

- خير إن شاء الله، أنا جاي لك يا جناب العمدة بخصوص سرحان.

- ماله سرحان؟

- أهله قالبين الدنيا وبيقولوا إن الغفر خدوه وجابوه هنا الدوار وبيضربوه.

- ماحصلش!

- ازاي بس يا عمده؟ احنا لسه شايفينه حالا واحنا داخلين لك.

- آه قصدك الكلب المربوط برة ده (ألجم رده عمي فواصَل) مافيش يا سيدي ده واحد اتهجم عليا وحاول يقتلني، واحنا حاجزينه عندي هنا لحد ما الحكومة تيجي تاخده وتحقق معاه.

لم أعد قادرا على الاحتمال أكثر من ذلك، فقلت موجها كلامي لمبروك:

- بس ده ماحصلش!

لم ينظر إليّ حتى، وواصل حديثه مع عمي:

- هيه يا حاج؟ عاوزني في حاجة تانية غير الموضوع ده؟

- يا حضرة العمدة أنا عشمان فيك ماتكسفنيش، ده عيل أهبل وعبيط وغلط، وانت كبيرنا وعمدتنا والمسامح كريم.

- بس أنا اسمي مبروك مش كريم.

قالها وأطلق ضحكة طويلة عالية ومُفتعلة، قطعها عمي قائلا:

- بس لا مؤاخذة يعني يا حضرة العمدة برضه انت خدته من قلب داري والمفروض يكون ليا خاطر عندك.

تغيرت ملامح مبروك للنقيض في لحظات، من الضحك المُفتعل إلى الجدية المخيفة، طرق بقبضته المكتب بعنف وكادت مقلتاه تخرجان من وجهه وهو ينظر إلى عمي بقسوة:

- دارك؟ وانت عملت إيه في دارك دي لما كلب زي ده اتطاول على أسياده ورفع جزمته عليا؟ مش قعدت تتفرج زيك زي أي حد وجيت تراضيني بكلمتين كأني عيل صغير؟ احمد ربنا يا شحاتة إن دماغي كبيرة وإلا كان زمانك مربوط جنبه.

استقبل عمي شحاتة الكلمات كمن تلقى رصاصة بين حاجبيه، ووقف هيثم منتصبا في غيظ متأهبا للرد، ووقفت بدوري أيضا متحفزا، لكن عمي حسن سبق الجميع وانفجر في مبروك:

- احترم نفسك يا مبروك. انت بتكلم الحاج شحاتة الصبان، وانت عارف كويس يعني إيه عيلة الصبان ويعني إيه كبيرها، احنا مش فلاحين غلابة من اللي بتتشطر عليهم هتهتّنا بكلمتين فنقوم خايفين ونقول لك العفو والسماح، فوق كده وماتخليش غرور العمودية والأطيان ينسوك انت بتتكلم مع مين.

قالها عمي حسن ثم وقف وأشار إلينا للانصراف ومد يده إلى شقيقه الأكبر الذي كان لا يزال متجمدا في مكانه بعد الإهانة البالغة التى وجهت إليه في هذا السن، لكن مبروك وقف وجاء من خلف عمي شحاتة فربت على كتفيه وألّح على عمي حسن ليجلس مجددا:

- متآخذنيش يا حاج، انت عارف مقامك عندي غالي قد إيه، بس انت برضه ماترضاليش أتهان وسط رجالتي، أنا لو ماخدتش حقي دلوقتي تالت ومتلت الناس هتستهتر بيا، وساعتها مش هاعرف أحكمهم ولا أظبط البلد، ومش هتقوم لي قومة تاني، وأظن انت عارف ومجرب يعني إيه بلد من غير عمدة.

بلع عمي شحاتة ريقه وشد عوده وحاول الرجوع إلى وضعه الأول بعدما هوّن اعتذار مبروك صدمته بعض الشيء، رغم أنه لم يكن اعتذارا صريحًا، فقال:

- واديك خدت حقك وضربته وعدمته العافية. كفاية بقى كده وسيبه.

- لا مش كفاية، لسه حقي مارجعش.

- وهيرجع ازاي؟

- لما أخليه عبرة لكل أهل البلد، لما كل واحد يفكر ألف مرة قبل ما يفكر بس يحط عينه في عيني ولا يبص لي بصة ماتعجبنيش. اوعى تكون فاكرني حاطه في دماغي؟ ده صرصار أنا ماشوفهوش أصلا غير لو بصيت تحت رجلي، بس هو بعد اللي عمله ده حط نفسه في قفص واحد مع الأسد، يا إما الأسد يقطعه بسنانه وساعتها ماحدش هيكررها تاني، يا إما يلعب مع

الأسد شوية ويطلع سليم وساعتها مش بعيد بعدها العيال يحطوا بردعة على الأسد ويركبوه.

ساد الوجوم الغرفة بعد هذه المحاضرة وعاد مبروك إلى مقعده منتشيا كأن وجهة نظره أخرستنا، فقررت أن أدخل في الحوار ولا أمتعه طويلا بهذه النشوة:

- وليه تحكمهم بالخوف؟ ليه ماتحكمهمش بالود والاحترام؟ تخليهم يسمعوا كلامك علشان بيحبوك مش علشان بيخافوا منك.

- إن شاء الله لو ربنا ادانا العمر نبقى نتكلم في الموضوع ده بعد ٢٠٠ ولا ٣٠٠ سنة، لكن لحد ده ما يحصل البلد دي ماينفعش تتحكم غير بالخوف، واللحظة اللي الناس تبطل فيها تخاف، ساعتها اللي بيحكمهم لازم يخاف.

- وعشان الناس تخاف المفروض تموّته مثلا؟

- أموّته؟ ليه يا دكتور شايفني قتال قُتلة؟ أنا هاخد حقي منه بالقانون.

- وفيه قانون يخليك تعمل فيه كده؟

- عملت فيه إيه؟ عشان شوية الميه دول؟ ده أنا بحميّه، يعني المفروض يشكرني، دي حاجة كانت بتحصل له من السنة للسنة.

بدا أن الحوار معه مضيعة للوقت وأنه يعرف جيدا ماذا سيفعل وأي كلام قلناه أو سنقوله لن يزحزح قناعاته قيد أُنملة، فوقف عمي شحاتة، وتوّجه بكلمة أخيرة لمبروك:

- شكلك مصمم تروّحني للناس قفايا يقمر عيش.

- مجيتك على راسي يا حاج. بس سامحني، فيه حاجات كده

الكلام فيها بيبقى زي عدمه.

- ماشي يا عمدة، سلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. قول لأهل الحمار ده يروحوا له بكرة المركز هيلاقوه متلقح هناك، وقول لهم يشوفوا له محامي كويس عشان يحاول يجيب له حكم مخفف.

نظر إليه عمي وهز رأسه دون تعقيب، وخرج ومن خلفه عمي حسن ثم هيثم فأنا، وقبل أن أصل إلى الباب جاءني صوت مبروك:

- بقول لك يا دكتور

توقفت واستدرت إليه فقال:

- انت هنا ضيف، فيا ريت تكون ضيف خفيف وماتحاولش تفهم حاجة. لأنك مش هتفهم.

- ليه، عشان غبي؟

- لا مش غبي لا سمح الله ده أنت أبو المفهومية. عشان غريب، واللي شفته واتعلمته في مصر مش هينفعك أبدا هنا، هنا فيه ناس تانيه وقوانين تانيه.

لم أكن راغبا في خوض أي جدال مع هذا الشخص، لذا لم أردّ عليه ولحقت بعمي على السلم، نظرت بقلة حيلة إلى سرحان الذي ما زالت المياه المثلجة تنسكب عليه، أفكر في المصير الذي يمكن أن ينتظره، وما ستسفر عنه محاكمته بقوانين غير التي نعرفها.. قوانين مبروك.

-١٣-

في طريق عودتنا أصرّ عمي حسن أن يستقبلنا في بيته باعتباره أقرب لبيت العمدة، وافقنا جميعا لأننا بالفعل كنا مُتعبين بدنيًا وذهنيًا لأقصى درجة، لم ينطق عمي شحاتة بكلمة واحدة طوال الطريق، كان الصدمة ما زالت تسيطر عليه سواء من الطريقة التي كلمه بها مبروك، أو من رد فعل أسرة سرحان عندما خرج إليهم دونه، اتهموه بالموالسة مع العمدة ومحاولة تسكينهم للتستر على جريمته، بعدها حاولوا دخول الفيلا لمواجهة مبروك وتحرير سرحان، ولكن بمجرد خروج خفيرين وجّها سلاحهما إلى السماء وهددا بتوجيهه إلى صدورهم إذا لم ينصرفوا، اكتفوا بالدعاء على الظالمين وولوا الأدبار وهم يفكرون في كيفية دفع مصاريف المحامي الذي سيذهب إلى المركز في الصباح.

- ماعلش يا حاج انت عملت اللي عليك وزيادة كمان وماحدش يقدر يلومك.

حاول عمي حسن بكلماته تلك أن يهدئ من روع شقيقه، لكن الأخير اكتفى بهز رأسه دون أن ينظر إلى المتحدث، فالتقط هيثم طرف الحديث قائلا:

- بس مبروك ده افترى قوي. هو فاكر نفسه ربنا واللا إيه؟

لم يرد عمي شحاتة أيضا فرد شقيقه:

- يا ابني اللي يعمل خده مداس حق عليه ينداس.

- تقصد مين يا حسن؟

أخيرا نطق عمي بعدما شعر أن الكلام موجّه إليه، لكن حسن استدرك مصححا على الفور:

- أهل البلد يا حاج، هم اللي وصلوه لكده بسكوتهم عليه وخوفهم منه، يا راجل ده أهل سرحان كان بينهم وبينه ١٠ متر وساعة ما السلاح اترفع عليهم سابوه ورجعوا على دارهم، أنا لو مكانهم هدخل أجيب ابني واللي يحصل يحصل.

تدخلت في الحوار للمرة الأولى:

- مش بالبساطة دي يا عمي، أكيد ماوصلوش للمرحلة دي غير لما جربوا معاه كذا مرة وفشلوا ياخدوا حقهم، انت نفسك قلت ازاي هو بياخد الأراضي من الناس وإن بتوصل ساعات إنه يحرق لهم المحصول، وأكيد اتعمل ضده قبل كده محاضر وشكاوى، لكن آديه لسه عمدة ولسة بيرازي في الناس. يبقوا ليه بقى يدخلوا معركة خسرانه؟

- أهو قالك اللي جاي من مصر ومايعرفش حاجة عن البلد. عشان تعرف إنك انت اللي مخك تخين وعامل زي الغشيم المتعافي، ده واحد عنده ألف حاجة ساناداه ومقوية قلبه، والجدع هو اللي يعرف يبعد عن طريقه ويتقي شره.

قالها عمي شحاتة وشعرت بارتياح بعدما استحسن كلامي وأمّن عليه، هذا يعني أنني بدأت أفهم وضع البلد وموازين القوى فيها، لا أعرف لماذا يسبب ذلك لي السعادة أصلا لكن هذا ما حدث، فقال هيثم:

- طول عمر الفساد موجود في كل حتة والمسنودين كتير، لكن فيه بلاد بتقبل بالوضع ده وبلاد تانية بتقاومة لحد ما تهزمه، ما

احنا حوالينا بلاد تانية ليها عُمد برضه، لكن ماشفتش حد فيهم مفتري زي الراجل ده، أكيد برضه أهل البلد لو كانوا وقفوا له من الأول ماكانش وصل لكده.

رمقه والده بنظرة حادة كأنه أغضبه أنه انحاز لرأي عمه لا لرأيه هو، فسأله:

- وانت بقى يا فالح مش من أهل البلد دول؟ ماتشمللتش ووقفت له ليه؟ ده انت حتى الوحيد اللي مانطقتش لما كنا عنده من شوية كأنك كنت واكل سد الحنك، ابن عمك الغريب ناطح معاه ورد عليه وانت عملت زي اللي نسيت الكلام.

اعتبرها هيثم فرصة لتخفيف حدة المناقشة وداعب والده قائلا:

- ما هو مايصحش اتكلم في وجودك يا حاج، مش دي الأصول برضه ولا إيه؟

ضحكنا جميعا ما عدا عمي شحاتة الذي حافظ على جديته وحافظ معها على نظراته الحادة، وواصل حديثه لهيثم:

- لا ياض وانت اسم النبي حارسك بتفهم في الأصول قوي!

نادت فرح على والدها ليأخذ منها صينية الشاي، حملها وفي طريق عودته بها وجه كلامه لشقيقه من جديد:

- يعني صدقتني يا حاج؟ أصلي كل ما أقول لك إنه مفتري وضلالي ومايعرفش أبوه، كنت تطلع فيا وتقول لي أصله بيحب شحاتة وماعندوش إلا شحاتة

- خلاص يا سي حسن بقيت انت الناصح وأنا الأهبل المضحوك عليا؟ ما انا عارف يا خويا انه مفتري وضلالي وأقول لك فيه

كلام أكتر من كده ١٠٠ مرة كمان، لكن أهو على وضعه ده عمره ما داس لي ولا لحد من العيلة على طرف، يبقى نكمل على كده بقى ونأمن شره ولا ندور نتكلم عليه فالكلام يوصل له ويحطنا في دماغه؟ لما تبقى الموجة عالية مش الشطارة انك تقف قدامها صالب طولك عشان ماتوطيش، لأنها ساعتها هتكسر ضهرك وهتقضي بقية عمرك موطي.

ساد الصمت الغرفة لفترة، ربما أخذ كل منا يقلّب كلام عمي في رأسه، فالكلام له وجاهته ومنطقه، عندما يبلغ الظلم أشده وتبدو نهاية الظالم أبعد من أن تُرى، يصبح غاية الجميع السلامة، تماما كالحرب غير المتكافئة، يشعر الطرف الأضعف فيها أنه انتصر عندما فقط يحافظ على رأسه بين كتفيه، وإن خسر بعدها كل أرضه وعتاده.

طرقت أمي الباب ودخلت، سلمت على الجالسين، واساها عمي شحاتة لأنه لم يرها منذ وصلت إلى القرية، شكرته على تعبه معنا، جلست على أقرب مقعد للباب وسألتني:

- هنسافر إمتى ان شاء الله.

- بكرة يا أمي على بعد العصر كده.

- بس لازم قبلها نروح نزور قبر ابوك ونقرا له الفاتحة.

- آه طبعا لازم.

استنكر عمي حسن حديثنا قائلا:

- مستعجيلن على أيه يا ام خالد، الأيام اللي فاتت كانت صعبة عليكم، اقعدوا يومين هنا في البلد تهدوا فيهم أعصابكم وكمان تبقوا جنب المرحوم.

- ماعلش، نريح في بيتنا ونفتحه عشان ماينفعش بتقفل بعد المرحوم، وكمان جيراننا بيتصلوا كل يوم علشان ييجوا يعزونا.

- إن شاء الله يفضل مفتوح بحسك وحس خالد واخواته، أنا بس كنت عاوز أقوم معاكم بالواجب.

- إنت عملت الواجب وزيادة يا ابو أحمد، كتر خيرك بقى لنا ٣ أيام زانقينكم.

دخلت في الحوار محاولا إنهائه:

- أنا برضه يا عمي محتاج أرجع بكرة لأني لازم انزل الشغل من بعد بكرة إن شاء الله.

لمس عمي شحاتة إصرارنا على موقفنا فقال:

- سيبهم على راحتهم يا حسن النفر مننا راحته في بيته، واحنا في كل الأحوال هنبقى معاهم ومش هنسيبهم سواء هنا أو هناك.

شكرناه أنا وأمي، وقامت هي لتخبر شقيقاتي بموعد مغادرتنا، بينما عدت أنا إلى عمي شحاتة بالموضوع الذي يشغلني منذ عدنا من عند مبروك:

- تفتكر يا عمي العمدة ممكن يعمل إيه في سرحان؟

- علمي علمك يا ولدي، أهو بيقول انه هيوديه المركز الصبح.

- مش يمكن بيهوّش كده وخلاص وهيحجزه شوية عنده وبعدين يسيبه؟

قاطعني عمي حسن مستهزئا:

- يسيبه؟ ده ما صدق لقاه، ده نزل له من السما.

- اشمعنى يعني؟

- هو كل فترة كده يعوز يهرس حد عشان أهل البلد كل ما ييجي ينسوا الدبيحة القديمة يفكرهم بدبيحة جديدة، والدور المرة دي على سرحان، أهو راجل غلبان لا له ضهر ولا عيلة كبيرة تسنده، هيلاقي أحسن من كده إيه بقى؟

نظرت إلى عمي شحاتة الذي تشاغل بنظرة طويلة وغير مبررة إلى ساعة يده، فانتقلت ببصري إلى هيثم الذي رفع حاجبيه وضم شفتيه حتى أخرجتا صوتا قريبا من صوت صرصور الحقل. فعلا، هو الصوت الأنسب للمرحلة.

-١٤-

فتحت باب الشقة وأغلقته خلفي بهدوء أملا أن تكون سارة نائمة، لم أكن راغبا في خوض أي مناقشة من أي نوع بعد هذه الليلة الطويلة الدامية، أضف إلى ذلك الغاز المسيل الدموع الذي استنشقت كميات كبيرة منه ومنعني الانهماك في العمل والتأثر بالحالات من الشعور بأعراضه حينها، قبل أن تداهمني الآن دفعة واحدة.

لكن كل أحلامي تحطمت بعدما وجدتها جالسة بتحفز على أريكة الصالة، تمسك بريموت التليفزيون وتراقب اقترابي منها خطوة خطوة، وصلت إلى الأريكة أخيرا، ألقيت عليها السلام، ثم ألقيت نفسي على المقعد المجاور.

- إيه ده؟ انتي بقيتي بتتفرجي على قنوات دينية؟

نظرت إليّ بحدة دون أن ترد ثم عاودت النظر إلى الشاشة، لم أنزعج، فلم أكن أصلا أنتظر إجابة بقدر ما كنت أبحث عن بداية هادئة، كانت تشاهد أحد الشيوخ ذوي اللحى الطويلة وهو يكيل الاتهامات للمتظاهرين في شارع محمد محمود، قال إنهم مأجورون يريدون هدم المؤسسات وتوريط الشرطة في الدماء وتعطيل الانتخابات البرلمانية، زعم أن شهود عيان رأوهم وهم يدخنون الحشيش ويحملون أسلحة نارية ويمارسون الجنس على أطراف الميدان، وطالب الدولة بردعهم بكل الطرق الممكنة حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر.

- هم دول بقى اللي انت رايح تعالجهم؟

قالتها بعصبية شديدة وهي تجلدني بنظرات تخلو من أي ود، فحاولت احتواء الموقف والرد دون عصبية مشابهة تجنبًا للصدام:

- وانتي من إمتى بتصدقي دول؟ مش دول اللي كنت بتقولي قبل كده إن هم اللي عملوا الثورة وهم اللي قتلوا المتظاهرين مش الشرطة وهم السبب في كل المصايب؟

- أيوه، ما هو ده اللي انت بتعمله دايما، تغير الموضوع وتوديني لسكة تانية خالص، بس برضه مش هانسى الموضوع الأساسي يا خالد. إيه اللي نزلك التحرير في الظروف دي؟

- قلت لك زمايلي كلموني عشان عدد الدكاترة هناك قليل وناس كتير مصابة وممكن تموت لو ماحدش عالجها.

- ما يموتوا ولا يروحوا في ستين داهية! هم كانوا من بقية عيلتنا؟ دول شوية بلطجية متأجرين مالهمش سعر!

- وأنا دكتور مش قاضي، ولو دخل عليا المستشفى بلطجي ولا حتى قتال قتلة هعالجه برضه، وفيه ناس تانية غيري شغلتهم يحققوا معاه ويحاكموه أو حتى يعدموه لو شافوا إنه يستاهل الموت. بس العيال دي ولا بلطجية ولا حرامية، انتي بتقولي كده بس عشان بتسمعي عنهم من ناس بيكرهوهم، جربي كده وانزلي هتلاقيهم كلهم شباب زي الورد كل اللي عايزينه بلد نضيفة بتحترمهم وتحتويهم.

- عرفت بقى إنك مانزلتش عشان تعالجهم بس؟ إنت نزلت علشان بتحبهم وبتحب الثورة بتاعتهم!

- وإيه المشكلة يعني إني أحب الثورة؟

- المشكلة إنك عارف كويس إنها سبب كل المصايب اللي حلت على دماغنا، وعارف ازاي بابا بيكرهها واحنا كلنا بنكرهها!

- ورغم كده عمري ما تدخلت في ده ولا قلت لك حبيها، يبقى المفروض انتي كمان تحترمي رأيي زي ما بحترم رأيك.

- آه ده لو بتقول رأيك في أكلة ولا في فيلم، لكن لما تحب الحاجة اللي دمرت عيلتي وجابت لنا الكافية يبقى الكلام اللي بيقوله اخواتي عنك صحيح.

- وإيه بقى إن شاء الله الكلام اللي بيقوله عني اخواتك؟

- بيقولوا إنك فرحان جدا باللي حصل لنا علشان الفرق الكبير اللي بين عيلتي وعيلتك يدوب وتحس إن الروس اتساوت، واديك أهو كل تصرفاتك بتأكد كلامهم، بس انسى، عيلة أبو المجد هتفضل محافظة على وضعها مهما حصل.

استقبلت كلماتها كطعنات متتابعة في صدري بينما هي استدارت بكل بساطة لتواصل مشاهدة التليفزيون، لم أكن أعرف من قبل أنها تنظر لي ولأسرتي بهذه الدونية وتعتبر زواجها بي جميلا يجب أن أشكرها عليه كل صباح ومساء، عجزت بعدها تماما عن الكلام، كلما فكرت في رد وجدته لا يكفي لرد الإهانة وتهدئة أعصابي الثائرة.

في النهاية قررت ألا أرد، قمت ودلفت إلى غرفة نومي، بدّلت ملابسي بينما كلامها يتكرر في أذني طوال الوقت، استلقيت على الفراش وأغمضت عيني في محاولة لإنهاء ليلة هي الأسوأ في حياتي، بدأت بصراخ وغاز وأصوات طلقات ودم، وانتهت بنقاش

بائس لن تكون علاقتي بزوجتي بعده مثلما كانت قبله.

شعرت بها تجلس بجانبي على الفراش، تجاهلت الأمر حتى ربتت على كتفي برقة، فتحت عيني ونظرت إليها ثم أعدت إغماضها:

- ماتزعلش مني، أنا خايفة عليك.

ابتسمت ابتسامة باردة دون أن أغير وضعي ولا أفتح عيني، فواصلت:

- إيه؟ مش مصدق إني خايفة عليك؟

- لأ.

قلتها ثم اعتدلت جالسا، وأكملت كلامي:

- مع إني والله كان نفسي جدًا أحس إنك خايفة عليا فعلا، انتي قلتي كلام كتير قوي، كله خوف على مشاعرك ومشاعر أبوكي وأهلك بس ماسمعتش كلمة واحدة تقول إنك مش عاوزاني أنزل علشان خايفة عليا، بس دي حاجة مش هتكلم فيها كتير، المشاعر لا ينفع نشتريها ولا نطلبها، لكن اللي مستحيل أنساه بجد، هو الكلام الواطي اللي قلتيه عن عيلتي وعيلتك واللي ماكنتش أبدا أتصور إني ممكن اسمعه منك.

- ماتحاسبنيش على كلام اتقال في لحظة غضب.

- ده أنا باشكر لحظة الغضب دي جدا لأنها خلتك تقولي اللي جواكي، بس انا أفهم ان اخواتك يقولوا كده ويكونوا فاكرين مثلا إني ضحكت عليكي واتجوزتك علشان فلوسك، وفرحت باللي حصل لكم علشان الروس تتساوى وتبقوا غلابة وشحاتين زينا زي ما بيقولوا، لكن إنك تقولي انك بدأتي تصدقي الكلام ده،

أهو ده بقى الكلام اللي مايتصدقش، علشان انتي بالذات اللي المفروض عارفة مين اللي شاغل مين ومين اللي حاول يلفت نظر التاني ليه، إلا بقى إذا كنتي فقدتي الذاكرة كمان.

- أنا قلت ان اخواتي قالوا كده لكن ماقلتش اني وافقت على اللي قالوه!

- لكن قلتي إنك اكتشفتي ان اللي بيقولوه عني صحيح، يعني مش بس ماردیتیش غیبتي ودافعتي عن الراجل اللي بتنامي كل يوم جنبه على سرير واحد، لكن كمان فكرتي في كلامهم وصدقتيه، عموما زي ما قلت لك، أنا باشكر لحظة الغضب دي لأنها خلتني أتأكد ان التساهل في موضوع ارتباطك المبالغ فيه بأهلك كان غلطة وآن الأوان إنها تتصلح.

- تقصد إيه؟

- يعني ده بيتك، واللي هناك بيت أهلك، الطبيعي إنك معظم الوقت تكوني هنا مش هناك، وإنك لما تروحي هناك تروحي زيارات، مش الوضع يتقلب وتبقي بتيجي هنا زيارات!

أطلقت ضحكة ساخرة وقالت:

- آه ده انت بتفكر تعيش دور سي السيد بقى! بس مين قال لك إني ممكن أرضى بدور أمينة؟

ساد الصمت للحظات اكتفينا فيها بالنظر إلى بعضنا البعض، ثم قلت وأنا أسحب الغطاء عليّ وآخذ وضع النوم:

- أنا كلامي خلص.

بقيت في مكانها للحظات ثم خرجت وأطفأت النور، أغمضت عيني مجددا محاولا الاستغراق في نوم عميق وطويل، ربما لم

أتمنّ النوم من قبل كما تمنيته هذه الليلة، فربما أكتشف عندما أفتح عيني في الصباح أن كل ما سبق كان حُلما، وكل ما حدث لم يحدث.

-١٥-

مر يومان دون أن تتصل سارة مرة أخرى، لا أنكر أنها زارت خيالي خلالهما عدة مرات لكن الأمر كان يفتر في كل ساعة مقارنة بالساعة التي سبقتها، قلت لنفسي إن الأمر انتهى عند هذا الحد، تحسنت حالة صديقتها الصحية، انشغلت هي بأمور أخرى وانتهى الأمر، ثم لم يكن هناك أمر أصلا لينتهي، ليس أكثر من لقاء مع مرافقة مريضة تخلله إعجاب وفضول متبادل وبعدها ذهب كلٌ إلى حال سبيله.

في ظهيرة اليوم الثالث كنت نائما بعد سهرة عمل طويلة عندما رن هاتفي المحمول، مددت يدي أسفل الفراش فالتقطته، فتحت عينا واحدة نظرت بها إلى الشاشة حتى تصبح العودة إلى النوم مجددا أسهل، لكن الاسم المكتوب أجبرني على فتح العين الأخرى سريعا.

إنها هي، نعم هي.. سارة!

هل تريد أن تسأل فقط عن شيء يخص صديقتها، أم أن هناك شيئا آخر؟

رددت سريعا لأعرف الإجابة على سؤالي:

- آنسة سارة صباح الخير.

- أنا آسفة أنا شكلي كده صحيتك من النوم.

- لا أبدا أنا مش نايم ولا حاجة ده أنا حتى صاحي النهارده من بدري جدا.

- غريبة أصل صوتك زي اللي لسه صاحي.

- لا أنا صوتي ساعات بيبقى كده. خير أؤمريني.

لم أكن مستعدا للإطالة أكثر من ذلك في موضوع النوم والاستقياظ والاعتذارات والاستفسارات، فكل ما أريد معرفته الآن هو سبب المكالمة، وها أنا على بعد خطوة واحدة من ذلك:

- بص بقى انت أكيد فاكرني باكلمك علشان يارا، بس لأ مش هو ده السبب.

- أومال إيه السبب؟

- السبب إني عاوزة أشوفك تاني، ممكن؟

بقدر ما سعدت بعد معرفتي سبب المكالمة، وبأن إحساسي ليلة مقابلتها الأولى أنها لن تكون الأخيرة كان صادقا رغم شكوك اليومين التاليين، بقدر ما فاجأتني صراحتها ووترتني جرأتها، وترتني لدرجة أن عقلي تعطل عن العمل فلم يجد لساني ردًا حتى أعادت السؤال مجددا:

- ممكن ولا مش ممكن؟

اكتشفت أنني في حاجة لرد، ورد سريع، فأجبت دون تفكير:

- ممكن طبعا.

- خلاص يبقى نتقابل بعد ساعة في الزمالك قدام فندق أم كلثوم، ونتحرك من هناك على كافيه هيعجبك جدا، اتفقنا؟

عاد عقلي للتعطل مرة أخرى، ويبدو أنها لاحظت تلعثمي في الرد فردت هي نيابة عني:

- اتفقنا، باي باي.

وضعت الهاتف بجانبي وتسمرت على الفراش لدقائق أعاد استيعاب ما حدث، من يعرفونني يؤكدون أن لي شخصية قيادية من الصعب أن تُقاد، لكن ما حدث في هذه المكالمة الخاطفة يؤكد عكس ذلك، فقد كنت مسلوب الإرادة تماما، وكان زمام المبادرة وسلطة اتخاذ القرار في يدها وحدها، قد تكون لذلك دلالات فلسفية عميقة لكن الوقت ليس مناسبا الآن للتحليق في فضاءات النفس البشرية، فقد مرت عشر دقائق من الساعة التي يُفترض أن ألتقيها بعدها وما زلت على الفراش.

أزحت الغطاء جانبا وفتحت خزانة ملابسي أبحث عن ملابس مناسبة، أخرجت طقما جديدا اشتريته قبل ١٠ أيام تقريبا ولم ألبسه بعد، ثم خجلت من نفسي ومن طريقتي الطفولية في التعامل مع الموضوع، فأعدته مجددا إلى مكانه وأخرجت آخر وضعته على الفراش، دخلت الحمام غسلت وجهي وأسناني وحلقت ذقني وصففت شعري، كل ذلك في عشر دقائق تقريبا على عكس المعتاد.

خرجت فوجدت أمي تتطلع إليّ باستغراب، تجنبت النظر إليها وتشاغلت بتجفيف وجهي بالمنشفة، ثم حاولت تصنع الضيق:

- صباح الخير يا ماما.

- صباح النور يا حبيبي، صحيت على طول ليه كده انت مالحقتش تنام!

- هعمل إيه بقى؟ كلموني في الشغل وعاوزيني في اجتماع ضروري علشان بيعيدوا ترتيب الشيفتات.

سمعت أمي ما قلته ولم تعقب، واصلت تجفيف وجهي رغم

أنه صار أكثر جفافًا من المنشفة نفسها، وقبل أن أدخل غرفتي دُهِشت لعدم تعقيبها، فاستدرت وسألتها:

- هو انتي مش مصدقاني ولا إيه؟

اتسعت عيناها وارتفع حاجباها وهي تنظر إليّ باستغراب:

- ومش هصدقك ليه يعني؟

- آه ما انا برضه مستغرب.

أنهيت الجملة ودلفت إلى غرفتي سريعا، فلو بقيت أمام أمي ثلاث ثوانٍ أخرى سأجثو على ركبتي أمامها وأعترف بكل شيء، ارتديت ملابسي سريعا وألقيت على أمي السلام متجنبا عينيها ثم خرجت.

سمعت عبارة «يكاد المريب أن يقول خذوني» كثيرًا، لكن للمرة الأولى أعرف معناها، لأنني وللمرة الأولى أكون ذلك المريب!

التقينا في المكان المحدد، أخذتني في سيارتها الميني كوبر، كانت المرة الأولى التي أجلس فيها داخل سيارة من هذا النوع، كنت أراها فقط وهي تسير في الشوارع وأعرف أن سعرها رقم بجواره كثير من الأصفار، يبدو أنها ثرية أكثر مما يجب. وصلنا إلى وجهتنا بعد دقائق قليلة، تركت مفتاحها لسائس قابلها بحفاوة تشي بأنها دائمة التردد على المكان، دخلنا الكافيه وجلسنا على منضدة تطل على الشارع من خلف الزجاج وتابعتُ السائس وهو يركن سيارتها بحرص.

- كان نفسي نقعد برة بس الجو النهارده برد.

- أيوه انا برضه مش بحب الأماكن المقفولة.

أشارت للنادل فجاء سريعا، طلبَت «كابتشينو» وطلبت لنفسي

عصير مانجو، وبمجرد أن أعطانا ظهره وابتعد بحيث لا يمكنه سماعنا، قالت:

- طبعا انت زمانك بتقول إيه البنت المجنونة دي؟

- الحقيقة آه.

ضحكنا بصوت مسموع من غرابة السؤال وتلقائية الجواب، فتحتْ زجاجة المياه الموجودة على المنضدة ووضعت قليلا من الماء في الكوب وشربَته، ثم أخرجت منديلا جففت به أسفل عينها لتتخلص من آثار الضحك، كنت أتابعها في كل ذلك مشدوها، كانت رقيقة رائقة رقراقة تتعامل كأنثى وتصدق أنها أنثى، وهنا مربط الفرس، فما دامت الأنثى تشعر بأنها أنثى تصبح جميلة ومثيرة وجذابة ولو كانت ملامحها أقرب للرجال منها إلى النساء. نعم لم تكن لي علاقات نسائية في السابق، لكنني أجيد قراءتهن وأستطيع التمييز بينهن.

انتهت من طقوسها، وألقت المنديل في المطفأة، وعادت إلى وضع الجدية الممزوجة بابتسامة آسرة:

- بص هاقول لك الموضوع على طول علشان أنا مش بحب اللف ولا الدوران، أنا لما شفتك يوم المستشفى ارتحت جدا وانا باتكلم معاك واتشديت ليك بجد، ماقدرش أقول إنه حب من أول نظرة لأني أصلا مش مؤمنة إن فيه حاجة كده، بس حسيت إني عاوزة أشوفك تاني واتكلم معاك تاني، حسيت إننا لازم نقرب من بعض أكتر، إيه شكل العلاقة بقى وإيه اللي هتنتهي عليه مش عارفة، تبقى صداقة تبقى زمالة تبقى معرفة تبقى حب، ده الأيام قادرة تحدده، لكن اللي متأكده منه دلوقتي إني عايزه أعرفك أكتر، والغريب إن الحكاية دي أول مرة تحصل لي، رغم

اني عرفت وقابلت شباب كتير في محيط العيلة والدراسة والنادي وكمان دخلت في قصص حب ماكملتش، لكن دي أول مرة أنا اللي أبقى حابة أتعرف على شاب واتكلم معاه مش العكس.

صمتت قليلا ثم واصلت:

- فاجأك كلامي؟

ساءني أنها توقفت عن الكلام وأن دوري جاء لأتحدث، ليس لأني لا أجد كلاما هذه المرة، لكن لأني كنت مستمتعا فعلا برؤيتها تتكلم، لكني في كل الأحوال مضطر لأن أرد:

- أنا كمان هاتكلم معاكي بصراحة. ممكن يكون فاجئني كلامك وجرأتك إنك تعبري عن اللي جواكي من غير خوف ولا كسوف، لكن ماتفاجئتش من مشاعرك، يمكن لأن أنا كمان حسيت بنفس المشاعر من ساعة ما شفتك، وكنت حابب برضه أشوفك تاني وتالت، لكن ماكانش عندي الجرأة الكفاية إني أعبر عن ده، يمكن علشان زي ما انتي قلتي الموضوع مُربك ومش واضح معالمه ومش معروف منه غير إني مهتم أشوفك وأسمعك مرة تانية، ويمكن علشان لما عدا يومين من غير ما تتكلمي ولا حتى علشان تطمنيني على صحة صاحبتك وصل لي إحساس إن ممكن يكون كل ده مش حقيقي ومجرد إعجاب لحظي انتهى في وقته، بس أنا لو متأكد من حاجة دلوقتي فهي إني مبسوط إني قاعد معاكي باكلمك وباسمعك.

تهلل وجهها فرحا بما سمعته مني، ارتشفت بعضا من كوب الكابتشينو، وأخرجت طرف لسانها التقطت به بقاياه التي استقرت على شفتيها، أغمضت عينيها للحظات وهزت رأسها يمينا ويسارا، ثم فتحت عينيها وأصابتني بنظرة في أم عيني وقالت:

- الله؟ طيب ما انت بتعرف تقول أهو؟ ده أنا كنت قربت أفقد الأمل وقلت ان أنا هافضل اتكلم لوحدي على طول.

- الحقيقة أنا كمان اتفاجئت. الكلام خرج كده لوحده ماعرفش ازاي. ويمكن لو طلبتي مني أعيد اللي قلته ده تاني ماعرفش!

- عشان خارج من جواك وماحاولتش تعمل كنترول عليه، ويا ريت تعمل كده على طول وكل اللي تحس بيه تقولهولي على طول.

- عمومًا أنا مبسوط بالصيغة دي ومبسوط إن احنا الاتنين متفقين عليها ومتفهمينها. إحنا هنعرف بعض أكتر وبس، ونسيب الأيام بقى لوحدها تعرّفنا الطبخة دي هتطلع في الآخر إيه.

ضمت شفتيها ونظرت في السقف كأنها تعيد تمرير كلامي على عقلها، ثم نظرت إليّ وللمرة الأولى لم أصرف بصري إلى ناحية أخرى، نظرت في عينيها الواسعتين السوداوين بكل حواسي محاولا قراءة ما تقولانه، نظرت بعمق لدرجة أنها -للمرة الأولى- هي التي هربت من نظرتي:

- طيب، أنا المرة اللي فاتت دوشتك في المستشفى وكلمتك عن نفسي كتير مع إنها كانت أول مرة أقابلك، ولا الظرف ولا المكان كانوا يسمحوا بده خالص، بس المرة دي بقى أنا اللي عاوزة أسمعك وانت بتتكلم عن نفسك. عاوزة أعرفك.

- هو أنا مش باعرف أتكلم عن نفسي الحقيقة، بس هاحاول. أنا اسمي خالد عبد الله الصبان، أبويا كبير موظفين في شركة الكهربا، فاضل له أقل من سنة ويطلع معاش، أنا الابن الوحيد

على ٣ بنات، مممممم، دكتور زي ما انتي عارفة، أهلاوي. مش هاعرف أقول أكتر من كده، بس لو انتي عاوزة تسألي عن حاجة معينة هاجاوبك.

- كلمني أكتر عن علاقتك بأهلك، عميقة ولا سطحية؟ مرتبط بيهم ولا عادي؟

- أنا تقريبا أصلا ماعنديش علاقة غير بأهلي، أبويا كان قافل علينا قوي من صغرنا، عيلة والدي الكبيرة في كفر الشيخ، وعيلة أمي في الدقهلية، انتقلوا بعد الجواز للقاهرة بسبب ظروف شغل أبويا، ولما جينا الدنيا أنا واخواتي كان فيه مسافات كبيرة قوي بيننا وبين قرايبنا، وممكن تعدي علينا سنة كاملة من غير ما نشوف حد فيهم، كمان أبويا ماكانش له أصحاب، من الشغل للبيت ومن البيت للشغل، وأمي ماكانتش بتحب تختلط بالجيران منعا للمشكلات، من الآخر ماكانش لينا غير بعض احنا الستة، عايشين مع بعض ولبعض، أبويا عمل كل حاجة حلوة علشاني وأنا عملت حاجات مش باحبها علشانه، حتى كلية الطب دخلتها علشان هو كان عايش حياته على أمل يشوفني دكتور، مع إن رغبتي الشخصية كانت إني أدخل كلية الآداب وأبقى شاعر أو كاتب أو أديب. أمي برضه كانت بتتعامل معانا على إننا مشروع عمرها اللي بتستثمر فيه وكل يوم بتشوفه بيكبر وينجح قدامها، واحنا بنتعامل معاها على إنها ضميرنا اللي بيمشي على رجلين وصوتنا اللي لما مانعرفش نعبر عن اللي جوانا تقوله بالنيابة عننا. علاقتي باخواتي برضه قوية جدا، بيحكوا لي عن أي حاجة تخصهم وأنا كمان باعمل معاهم كده.

- تعرف إن دي حاجة مشتركة مهمة بيننا؟ أنا كمان أهلي هم

أهـم حاجـة في دنيـتي وممكـن اسـتغنى عـن أي حاجـة في الدنيـا بـس ماقـدرش استغنى عنهـم يـوم واحـد، يمكـن الموضـوع عنـدي ماكانـش مقفـول كـده، أيـوه كنـت باخـرج وبـاروح وباجـي وباتصاحب مـع نـاس وأقابـل نـاس وأحـب نـاس واتصـدم في نـاس، بـس طـول مـا أهـلي كويسـين وبخـير أي مشـكلة كبـيرة أو صدمـة كانـت بتهـون.

- إنتي حبيتي قبل كده؟

صدمهـا قيامـي المفاجـئ بتحويـل مجـرى الحديـث، لكـن في الوقت نفسـه بـدا عليهـا الارتيـاح مـن دخـولي هـذه المنطقـة، فأجابت:

- آه أكيـد، ماقـدرش أقـول يعـني إنهـا كانـت تجـارب مكتملـة لكنهـا أحيانـا كانـت إعجـاب، أحيانـا تانيـة كانـت إني عايـزة أحـب وأتحـب زي بقيـة زمايـلي.. كـده يعـني.

- تعرفي إني عمري ما كنت مؤمن بالحب؟

لم تنطق بكلمة، وواصلت الإنصات في انتظار شرحي لما قلته:

- أيـوه، عمـري مـا كنـت مؤمـن بالحـب، مـش قصـدي إني مـش مؤمـن بالحـب في المطلـق، لأن الـلي بـين أمـي وأبويـا مثـلا قصـة حـب عنيفـة وملهمـة جـدا، أنـا باتكلـم عن الحـب بتـاع الأفـلام، اللي هـو واحـد يشـوف واحـدة يحبهـا وهـي تحبـه ويحسـوا إن حياتهـم مـش هتكمـل غـير وهـم مـع بعـض، في معظـم الحـالات دول لمـا بيتجـوزوا حياتهـم مـش بتكمـل غـير لمـا بيسـيبوا بعـض!

الحـب الحقيقـي مـن وجهـة نظـري هو الـلي بياخـد مسـار طبيعي، مسـار تصاعـدي، يبـدأ باسـتلطاف وقبـول وفي النـص يحصـل ارتباط، وتـتزرع بـذرة الحـب الحقيقيـة مـع التعـود والعـشرة ويبـدأ يكـبر حبة حبـة، الحـب ده بقـى كل مـا تـدوس عليـه الأيـام أكـتر وكل مـا يقابـل مطبـات في سـكته أصعـب، كل مـا عـوده يبقـى أشـد، وفي آخـر أيـام

العمر اللي بتتغير فيها الأشكال وتظهر التجاعيد ويضيع جمال الست وتضعف قوة الراجل بيكون الحب بينهم وصل لمرحلة بتخلي كل الكلام ده شكليات.

لكن إذا بعد كام شهر من بداية العلاقة اتقال كل كلام الحب واتعملت كل أفعاله وكل واحد وعد التاني بألف وعد، بيكون الحب وصل لأعلى نقطة، واللي جاي بعده بيبقى هبوط، علشان كده بعد سنة ولا سنتين بتلاقي اللي بيقول لهم «عفوا لقد نفد رصيدكم ولا يمكن إعادة شحن البطاقة».

كانت تسمعني بإنصات شديد، وبمجرد إنهاء كلامي قالت:

- يا ساتر. إيه التشاؤم ده؟ معقولة دي نظرتك عن الحب؟ مع إن شكلك يبان رومانسي.

- ما هو المشكلة إن الناس فاهمة الرومانسية والواقعية عكس بعض، أنا بقى شايف إن أحسن أنواع الرومانسية هي الرومانسية الواقعية، اللي بتخليكي على الأرض شايفة الدنيا حواليكي على حقيقتها زي ما هي، مش بتطلع بيكي سابع سما بأغاني حب وكلام متزوق وفجأة تنزل بيكي على جدور رقبتك، أنا لو في يوم حبيت، هاحب وأنا على الأرض علشان بخاف جدا على رقبتي.

ابتسمنا واستندت بظهرها على المقعد وربعت يديها ثم نظرت لي بتحدٍ وقالت:

- عموما أنا مش متضايقة من كلامك ولا هاتعب نفسي وأرد عليه، عارف ليه؟

أشرت برأسي مستفهما، فواصلت:

- علشان هيتغير قريب.

-١٦-

أصبحت مقابلاتنا شبه يومية، تحدثنا في كل شيء وعرفنا عن بعضنا كل شيء، زاد ارتباطي بها لكنني لم أكن متأكدا أن الذي بيننا يمكن أن يتطور إلى حب، نعم أرتاح للجلوس معها والحديث إليها، تعجبني شخصيتها وطريقتها في التعبير عن نفسها وأفكارها، لكن في الوقت نفسه هناك خلافات كثيرة بيننا أهمها الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها كل منا، لا يتعلق الأمر بالمفهوم الطبقي الضيق، لكنه يتعلق أكثر باختلاف النظرة إلى الأشياء، فما أعتبره أنا مبهرا تعتبره هي عاديا، وما أعتبره منفرا ربما يكون في حياتها عادة.

استمرت لقاءاتنا على هذا الحال، حتى فاجأتني يوما بقولها:

- مش انا كنت قلت لك في الأول إن الأيام هي اللي هتحدد اللي بيننا ده إيه؟ أنا بقى دلوقتي عارفة الإجابة؛ أنا باحبك.

وضعتني كلماتها في ورطة، الآن يجب أن أحدد موقفي وأرد، الآن لم يعد ممكنا أن أستمر كصديق مع من تعتبرني حبيبا، الآن يجب أن أختار بين استمرار بالصيغة التي حددتها، أو صد يتبعه افتراق. كان السؤال الذي طرحته على نفسي وقتها؛ هل أنت مستعد لتركها إذا جاء ردك مخيبا لآمالها؟ وكانت الإجابة نفيا قاطعا، فأيا كانت الصيغة والمسمى أريد أن أبقى معها، ولو لم يكن شعوري تجاهها الآن حبا فهو على الأقل إعجاب وارتياح ربما يصيران حبا مع الأيام، أليس هذا ما كنت أحاول

إقناعها بـه أصـلا؟

- وانا كمان باحبك.

قلتهـا والتقطـت كفهـا وضعتهـا بـين كفّي، تحدثـت أعيننـا كثـيرا دون أن ينطـق لسـاننا بكلمـة، شـعرت بارتيـاح لأنهـا سـتبقى معـي لفـترة أخـرى، ومـن يـدري، قـد تكـون رفيقـتي إلى الأبـد. تحركنـا إلى المستشـفى لإحضـار أغـراضي، في المصعـد اقتربـت منهـا وطبعـت عـلى شـفتيها أول قبلـة، كانـت خاطفـة ومتوتـرة لكنهـا كانـت كافيـة لأتذوقهـا، ابتسـمنا ثـم ضحكنـا وانفتـح بـاب المصعـد فخرجنـا وأحـضرت أغـراضي عـلى عجـل، في هـذه الأثنـاء لـم نكـن نفعـل شـيئا سـوى أننـا ننظـر إلى بعضنـا ونبتسـم، طلبـت المصعـد مجـددا لنـنزل وكان كل مـا أفكـر فيـه أنهـا فرصـة للحصـول عـلى قبلـة أخـرى، وأعتقـد أن نظراتهـا وابتسـاماتها الخجولـة كانـت لأن هـذا مـا تفكـر فيـه أيضـا.

وصـل المصعـد، دخلنـا وضغطـت عـلى الـزر وقبـل أن يلتئـم نصفـا البـاب وضعـت إحـدى الممرضـات سـاعدها لتعيـد فتحـه ثـم دخلـت وقفـت بيننـا وقالـت:

- لا مؤاخذة يا دكتور.

نظرنـا إلى الأرض والابتسـامة تعلـو وجهينـا، وفجـأة انفجـرت سـارة في الضحـك، ولـم أسـتطع أن أمنـع نفـسي فضحـت أيضـا بصـوت عـال، حـتى إن الممرضـة أخـذت تنظـر إلينـا باسـتياء وربمـا اعتقـدت أننـا نضحـك عليهـا، لـم نهتـم بـرد فعلهـا أو مـا يمكـن أن تعتقـده أو تقولـه علينـا، كل مـا همنـا اغتنـام لحظـات السـعادة تلـك لأقـصى درجـة.

استمرت لقاءاتنا، زادت حكاياتنا، أصبحنا نفكر أكثر في مستقبلنا معا، مكان سكننا، أسماء أطفالنا، ما نريده من بعضنا وما لا نريده، كانت حريصة على بدء إجراءات الارتباط الفعلي في أقرب وقت ممكن وكنت متخوفا جدا من هذه الخطوة، فإقناع أسرتي صعب بها، وإقناع أسرتها أصعب، لكنها قالت إنها مستعدة لخوض أي معركة معي أيا كانت نتائجها.

دخلت بيتنا في المساء، كان أبي وأمي يشاهدان التلفاز، أمسكت الريموت وضغطت زر كتم الصوت وسط دهشتهما ومتابعتهما، جلست وأخبرتهما بأنني أريد التحدث معهما في أمر هام، علقا بصرهما بي في انتظار معرفة الموضوع، وصمتُّ أنا لفترة محاولا ترتيب الكلام:

- فاكرين البنت اللي قلت لكم إني باقابلها من وقت للتاني وان فيه بيننا استلطاف؟

كنت قد حكيت لأمي عن إعجابي بفتاة بعدما لاحظت كثرة خروجي في غير أوقات العمل على غير العادة، وبالطبع وصلت المعلومة لوالدي الذي أخفيت عليه أمرا للمرة الأولى في حياتي، لكنهما لم يكونا يعرفان حتى اسمها. تبادلا النظرات ثم قال أبي:

- آه فاكرين، ولو اني عرفت من أمك أصلا مش انت اللي حكيت لي ولا حاجة.

تجاهلت عتابه المبطن عامدًا لأن تركيزي كله منصب في اتجاه واحد، وأكملت:

- أهي البنت دي بقى أنا عاوز أرتبط بيها.

حافظ والدي على ثباته وترقبه، بينما تهللت ملامح والدتي

وقالـت:

- يـا نهـار أبيـض، وانـا في ديـك السـاعة لمـا أشـوفك عريـس يـا خالـد وأفـرح بعيالـك؟ ومـين بقـى سـعيدة الحـظ وبنـت مـين؟

- اسمها سارة، سارة عاطف أبو المجد.

واصلـت والـدتي محـاصرتي بالتهـاني والتبريـكات ومـدت يديهـا ربتت عـلى كتفـي ومسـحت عـلى رأسي، لكنـني لـم أركـز معهـا وظلـت عيـني معلقـة بـردود فعـل أبي الـذي قال:

- عاطف أبو المجد اللي هو.. عاطف أبو المجد؟

- أيوه يا بابا.. هو.

أوقفـت أمـي طقوسـها الاحتفاليـة بعدمـا شـعرت بـأن هنـاك شـيئا نفهمـه نحـن ولا تفهمـه هـي وسـألت أبي:

- إيه ده؟ هو انت تعرف أبوها يا حاج.

- وهو فيه حد في الجيزة ولا في مصر كلها مايعرفوش؟

- اشمعنى يعني؟

- ده صاحـب مصانـع العصيـر المشـهورة ورجـل أعمـال كبـير عنـده مشـاريع وأراضي وفلـوس مالهـاش آخـر، وكان مترشـح في الانتخابـات الـلي فاتـت بـس سـقط.

نظرت إليّ أمي وتساءلت باستغراب:

- هو ده يا ابني الراجل اللي قصدك عليه ولا حد تاني؟

- أيوه يا ماما هو.

- بـس ده كـده يـا ابـني يبقـوا أغـنى منـا بكتـير ومسـتواهم أعـلى منـا، وماينفعـش مراتـك تبقـى أغـنى منـك!

- ومراتي هتبقى أغنى مني في إيه يعني؟ هي هتعيش معايا وفي بيتي، وأبوها الله يسهل له مش عاوزين منه حاجة.

- إزاي يا ابني بس؟ هيقولوا عليك عاوز بنتهم عشان طمعان في فلوسهم، وبعدين ما البنات حوالينا على قفا من يشيل وزينا ومن توبنا، وأنا بقى لي كتير عمالة أتحايل عليك تشوف واحدة منهم اخطبها لك، كان لازم تشطح قوي كده؟

- ما هي دي حاجات مش بتبقى بمزاج الواحد يا ماما، وبعدين أنا فعلا لا فكرت هي بنت مين ولا عندها إيه.

- ما أنا متأكدة من ده يا ابني ومصدقاك وعارفة مربياك ازاي، بس لا أهلها هيصدقوك، ولا الناس هيصدقوا، وكله هيفتكرك طمعان فيها.

تابع أبي الحوار صامتا ثم دلف إلى غرفته وأغلق الباب خلفه، قمت وتركت أمي تصارع أفكارها وتحركت بخطوات مترددة نحو غرفته، طرقت على الباب فلم أتلق ردا ففتحته ببطء وأغلقته خلفي، كان يجلس على الفراش وظل معلقا بصره بي منذ دخلت عليه وجلست بجانبه:

- عاوز تهزأني يا خالد على آخر الزمن وتخليني مُسخة؟

- لا عاش ولا كان يا بابا اللي يعمل كده، ولا عشت ولا كنت لو حطيتك في موقف وحش.

- طيب ما انت عشت وكنت وعملت أهو، عاوزني أروح لراجل زي ده أقول له يا عاطف بيه أنا طالب إيد بنتك لابني أنا الموظف الغلبان، متوقع يكون رده إيه؟ يطلب الشربات؟

- لا يا بابا، هتقول له أنا عبد الله الصبان الراجل المحترم

اللي سمعتي سابقاني، وباطلب إيد بنتك لابني الدكتور خالد.

- يا ابني الناس دي ماتعرفش الكلام اللي انت بتقوله ده، دول أول حاجة بيسألوا عليها انت مين وعندك إيه، لا هتفرق معاهم سمعتي ولا شهادتك.

- يا بابا البنت كويسة جدا وبتحبني وعاوزاني، وهي مش هتقول لي تعالوا غير لما تمهد الموضوع مع أهلها وتاخد موافقتهم كمان، يعني احنا هنكون واخدين الموافقة قبل ما نتحرك من بيتنا.

انتهى الحوار مع والدي عند هذا الحد بموافقة على مضض في انتظار رد سارة، وأظنه كان يصلي ليأتي بالرفض تجنبا لإحراج هو في غنى عنه، لكنه على عكس ما تمناه جاء بالموافقة، فهمت من كلام سارة أنه كان على مضض أيضا، وبعد نقاشات طويلة بينها وبين الأسرة ورفض مبدئي تكسر على صخرة إصرارها وعنادها، حدث ما أردناه، وأتممنا مراسم الزواج الذي لم يرض عنه سوانا.

-١٧-

بقدر ما سببه كلام سارة لي من ألم نفسي، كان مفيدًا على جانب آخر، فقد أصبح نزولي لموقع الاشتباكات في ميدان التحرير وشارع محمد محمود روتينا في الأيام التالية دون أن أضع اعتبارات لرأيها أو أخشى غضبها.

بمرور الوقت كانت الاشتباكات تزداد عنفًا، والإصابات تزداد تنوعًا، وعداد الوفيات يزداد بلا توقف، كما جاءت الإصابات المباشرة والعنيفة في العيون لتسبب لنا ارتباكًا كبيرًا، فالمستشفيات الميدانية لم يكن بها أطباء عيون، وحتى عندما استدعينا بعضهم لم تكن إمكانات مستشفيات الميدان تسمح بالتعامل مع الحالات، لذلك اقتصر دورنا على محاولات وقف النزيف والحقن بالمسكنات، لحين قيام سيارات الإسعاف بنقل المصابين إلى المستشفيات القريبة.

لم تكن مناقشاتي مع المصابين تتوقف، نعم أنا أحب الثورة وأؤمن بها وأتمنى أن تحقق ما قامت من أجله وطالبت به، لكنني عندما كنت أحاول أن أضع نفسي مكانهم لم أكن أتصور أنني يمكن أن أتخذ قرارا كالذي أخذوه وأضع نفسي في مواجهة غير متكافئة كتلك، موازين القوى فيها مختلة بشكل مرعب، وأدوات الردع فيها يحتكرها جانب واحد، وحتى عامل الدعم الشعبي لم يكن متوافرا، فالملايين خارج الميدان متأثرون بالدعاية السلبية لإعلام الدولة وجماعات الإسلام السياسي على السواء، بينما الآلاف القليلة التي تنقص في بعض الفترات إلى بضع مئات

ظهرها مكشوف تمامًا.

لكن إسلام طارق عرّفني السبب!

دخل علينا المستشفى الميداني محمولا على أكتاف ثلاثة من زملائه، التشخيص المبدئي كشف إصابته بانفجار في عينه اليسرى، طلبنا عربة إسعاف لتحمله إلى مستشفى خاص تعودنا على التعامل معه في الحالات المشابهة، وحاولنا دفعه للاسترخاء حتى نستطيع التعامل مع إصابته، لكنه رفض بشكل قاطع وأصر على تلقي العلاج في وضع الجلوس.

لم يتوقف الشاب الذي يقف عمره على أوائل العشرينات عن البكاء منذ دخل، وفشلت كل محاولاتنا في تهدئته، ظننا أنه يبكي من الألم فأعطيناه حقنة مسكنة وأخرى للسيطرة على النزيف ووضعنا بعض المطهرات على الجرح، لكنه استمر في البكاء واستمر جرحه في النزيف، وفوق الذقن كانت الدماء القادمة من عينه المصابة تختلط بالدموع القادمة من عينه السليمة قبل أن نزيلها بالقطن والشاش.

فارق كبير بين دموع ألم الجسد ودموع وجع الروح، وأزعم أن بإمكاني التفريق بينهما، الطريقة التي كان يبكي بها الشاب تشي بأن الألم الناتج عن إصابته آخر ما يعنيه، وأن دموعه ناتجة عن جرح غائر آخر لا نراه.

- هو اسمه إيه؟

همست بالسؤال في أذن أحد أصدقائه فجاءتني الإجابة سريعا:

- إسلام طارق.

جلست بجواره واحتضنته غير آبه بدمائه التي أغرقت كتفي،

كنت أشعر برغبة حقيقية في التخفيف عنه وبمسؤولية كبيرة تجاهه لا أعرف مصدرها، اقتربت من أذنه وقلت له:

- إيه يا عم إسلام؟ مش تجمد كده؟ ولا انت فاكر الثورة شوية هتافات ومظاهرات وخلاص؟

أبعد رأسه عن كتفي ونظر إليّ بعينين تملؤهما الدماء ودموع وقال بصوت متهدج:

- انت فاكرني باعيط علشان عيني؟ أنا باعيط علشان صاحبي مات.

زاد بكاؤه ومسح بمعصمه دموعه المختلطة بالدماء، فمددت يدي أحضرت بعض القطن، مسحت به يده وعينيه ثم سألته:

- مات النهارده؟

- لأ مات يوم ٢٨ يناير، اسمه عادل صالح، كنا مع بعض في مظاهرات الزاوية الحمرا، كنت لامس كتفه بكتفي علشان اتطمن، فجأة مالقتش حد ساند كتفي، ببص لقيته وقع غرقان في دمه بعد ما خد رصاصة في راسه، وقبل ما أفكر أعمل إيه وأتصرف ازاي كان قلبه وقف. كان صاحبي الوحيد، ماسبناش بعض يوم واحد من ساعة ما كنا في الحضانة، بس فيه حد قرر يحرمنا من بعض ويحرم أهله منه علشان بس خرج يطلب حقه.

الحاجة الوحيدة اللي صبرتني وخلتني أكمل في الحياة إن الثورة نجحت واللي نزل علشانه حصل، قلت لنفسي أكيد مبسوط في مكانه وهو شايف البلد بتتحرر ورايحة للمستقبل اللي كان بيتمناه ليها، وقلت أكيد برضه بعد ما الثورة نجحت والبلد اتغيرت اللي قتله هيتحاسب، عدى أكتر من ١٠ شهور واللي قتله عايش

وسط أهله عادي ومش بعيد كمان يكون واحد من اللي بيقتلونا في الشارع جوة دلوقتي، لكن كمان لما الثورة نفسها تبقى رايحة في سكة غلط والبلد بترجع لنفس الحتة الغلط يبقى عادل مات تاني النهارده وهيفضل يموت كل يوم.

ساد الصمت المكان، ذرف جميع الواقفين العبرات، ونظرت في الأرض حتى لا ترى عينه السليمة دموعي، وأنا من يفترض أني جالس بجانبه لأشد من أزره، فشلت في العثور على أي كلمات تصلح للموقف فقررت مواصلة الصمت، وكان هذا أيضا قرار كل الموجودين في المستشفى من أطباء ومصابين ومرافقين للمصابين وواقفين للمشاهدة، صمتوا، بعضهم تسمروا في أماكنهم، وبعضهم تظاهروا بالانشغال بأي شيء أو باللاشيء، أما أنا فكنت أشعر بندم شديد على دفعه للكلام، فليته واصل بكاءه الصامت ولم يتكلم.

تجاهل إسلام صمتنا وواصل حديثه دون أن ينظر لأينا:

- كان نفسي الرصاصة تكون في راسي علشان أروح لصاحبي، أو حتى كانت طلقة تانية جت في عيني التانية علشان ماشوفش اللي قتلوه وهم بيرجعوا تاني يطلعوا لنا لسانهم، كان نفسي النهاية تكون غير كده خالص.

وصلت سيارة الإسعاف أخيرا لتنهي وصلة التعذيب التي تلقيناها على يد إسلام، حملته مع أصدقائه الثلاثة وانطلقت، وبقينا نحن ننظر إلى بعضنا ونجفف دموعنا، وبعدها عرفت الذي يدفع هؤلاء للتواجد في مكان يحوم حوله ملك الموت وتزكم الأنوف فيه رائحة الدماء، هي دوافع تتجاوز مكاسب السياسة وأطماعها، مثل هذه الثورة للواحد منهم كمثل الحب

الأول، الذي أخلص له أشد الإخلاص، وضحى من أجله بالغالي والنفيس، وفقد في سبيله الأهل والأصدقاء، وتحدى به الأقربين والغرباء، وفي النهاية وجده في أحضان غيره، هو شعور بالخيانة قبل أي شيء، قبله نزلوا لأنهم يحلمون بغد أفضل، وبعده صاروا ينزلون لأن الثمن الذي دفعوه لا يرد ولا يستبدل.

في الشهور التالية أصبح وجودي في المستشفيات الميدانية طقسًا، لا أفوّت اشتباكات إلا وأكون على أطرافها لتطبيب الجرحى، قرأت كُتبا كثيرة في علم النفس لأخفف عنهم وأشفي بعضا من جراح نفوسهم في الدقائق التي يجلسون فيها أمامي لتضميد جراح أجسادهم، أصبحت أشجع الثورة كجماهير الدرجة الثالثة، أهفو إلى انتصاراتها الصغيرة وأنتظر اليوم الذي ستحقق فيه كل ما أراده لها هؤلاء الشبان، لأن ذلك سيجعلهم يفرحون وكفى به هدفًا.

ساءت علاقتي بسارة، كانت تعتقد أني أفعل ذلك فقط من باب العند ولمعاقبتها على إساءتها لي ولأسرتي، ردت بزيادة الفترات التي تقضيها في بيت أبيها حتى إننا كنا نتقابل في شقتنا بالمصادفة كل يومين أو ثلاثة، والدي أيضا لم يكن مرتاحًا لما أفعله لأنه يرى أن هؤلاء الذين أعالجهم «يستاهلوا الدبح»، لكن أمره كان هينًا مقارنة بأمي، فهو يمكن إقناعه بأن الطبيب واجبه أن يعالج الجرحى أيا كان موقفه منهم، بخلاف أمي التي لم يكن يعنيها من قتل من ولا من يريد السيطرة على حساب من، بقدر ما يعنيها أن وجودي في هذا المكان خطر على حياة ابنها الوحيد، كل محاولاتي لطمأنتها كانت تنتهي ببكائها وبجملتها الثابتة:

- إنت أصلا كبرت علينا ومابقاش لنا كلمة عليك، ومش

هترتاح غير لما تجيب لنا مصيبة احنا مش قدها.

خسرت الثورة معاركها تباعًا، تعثرت وسط بركة الدم، سارت في طريق عكسي، وبدا أن كل القرابين التي قُدمت لها لم تكن كافية لترضى، شيئا فشيئا قلت الاشتباكات، وقلت المظاهرات، فنزول الشارع نفسه أصبح من المحرمات، بالتبعية انتهت قصة المستشفيات الميدانية وتفككت جمعية أطباء التحرير، أخرجت طاقتي في العمل وحققت به نوعا من التقدم، حصلت على الماجستير، وأصبح اسمي معروفا بين الأطباء والمرضى.

لكن وجه إسلام الملطخ بالدم لم يفارق عيني، وكلماته ظلت محفورة على جدران عقلي، لا أعرف أين هو الآن، لا أعرف حتى إن كان على قيد الحياة أو قضى نحبه في معركة تالية، لكن الأكيد أنه ليس حيًا، حتى لو كان قلبه ما زال يخفق ونفَسه يدخل ويخرج.

-١٨-

دخل يوسف غرفة مراد بك وأغلق الباب خلفه، جال ببصره في أركان الغرفة، استشعر أنفاس سيده في هوائها، رآه على كل قطعة أثاث وكل شبر أرض، مستلقيا على الفراش يطالع مجهولاً ما في السقف، جالسا على أحد المقعدين المستقرين في منتصف الغرفة يقرأ كتابا، واقفا في النافذة يراقب تقليم أشجار الحديقة، متسمرا أمام الخزانة مفاضلا بين الثياب للقاء أحد الأعيان. أطلق زفرة حارة، تلتها دموع انسابت من عينيه بغزارة، لم يهتم ببسط كفه لمسحها حتى تجاورت قطرات كثيرة من عينيه على السجادة الإيرانية الفاخرة.

هو لا يشعر بالحزن، بل يشعر باليتم.

عندما مات والده لم يذرف نصف هذه الدموع، كان يعرف أنه من بعده يستند على سيد قوي ذي بأس يعصمه من الناس، الآن تغير كل شيء، للمرة الأولى يفكر في الغد، يشعر أنه بلا ظهر، عارٍ وسط ميدان عام، لا يعرف من أين ستأتيه الصفعة وممن، كان يسمع أن الثروة غالبا ما تكون مصدر حماية، لكنه غني مستجد، لا يعرف كيف يحدث ذلك، بل إن هذه الثورة قد تكون دافعا أكبر للخوف، فهو الآن يملك ما قد يجعله هدفا لأطماع الناس وأحقادهم.. وكراهيتهم أيضا.

أصيب بصداع شديد من كثرة التفكير والبكاء، شعر برغبة في النوم، أو بالأحرى إجازة لدماغه التي لا تتوقف الأفكار عن

العبث بها، بالطبع لم يفكر ولو للحظة في النوم بهذه الغرفة، هي بالنسبة له غرفة مراد بك وستظل كذلك، قام إلى غرفة نوم مجاورة كان مراد بك قد جهزها للضيوف، لكن أحدا لم يدخلها على مدى سنوات بخلاف الخدم لتنظيفها، أغلق الباب وأطفأ النور وألقى بجسده المتعب على الفراش آملا نوما سريعا وعميقا.

ولكن يبدو أن الأمر لن يكون بهذه السهولة.

تنقل من جانبه الأيمن إلى الأيسر إلى ظهره عشرات المرات، غيّر وضع الوسادة ونام في الاتجاه العكسي، وضع رأسه تحت الغطاء، ضغط على أذنه بساعده، لكن النوم لم يأت بعد كل هذه المحاولات. جلس فوق الفراش في وضع القرفصاء، غاص برأسه بين ركبتين وأحاطهما بيديه، لا يدري ما الذي ينقصه لينام، إرهاق وغرفة مظلمة وفراش، فراش؟ نعم. ربما هو المشكلة.

قام من جلسته غير المريحة فجأة، أضاء الغرفة وسحب ملاءة وغطاء ووسادة وضعها على السجادة، أطفأ النور مجددا وعاد فافترش الملاءة وتلحف بالغطاء، ودون أن يفكر في أي شيء غرق في نوم عميق!

هو الطبع إذن الذي يغلب التطبع، هو الماضي الذي قد يمنعه طوال الوقت من التمتع بالحاضر، هو ميراث خمسة عقود ولا يمكن نسيانه في يوم وليلة. قبل ذلك عندما كان ينظف غرفة مراد، كان يضغط بيده على الفراش اللين ويراهن نفسه أنه لو جاء يوم ونام على فراش مثله لن يستيقظ قبل أسبوع، لكنه حين أصبح ملكه بالكامل تركه بكامل إرادته ونام على

الأرض. الوصفة سهلة، افرض على أي شخص نموذج حياة معين لسنوات، ثم اترك له حرية الاختيار وتأكد أنه بمحض إرادته سيختار ما كنت تفرضه عليه.

لم تكن الأيام والليالي التالية أقل ثقلا من تلك الليلة، تمر الساعات بطيئة بلا جديد، ساعات انتظار طويلة في الغرفة وتركيز في الفراغ، لا يقطعها سوى فترات تناول الطعام مع بقية العاملين في القصر كما جرت العادة، وبمجرد الانتهاء من طعامه يصعد فورا إلى الغرفة، فحتى جلسته مع زملائه السابقين لم تعد مريحة، يتحفظون جدا في الحديث أمامه خوفا من ارتكاب خطأ كالذي ارتكبته سعدية حين حاولت أن تجامل يوسف بالإساءة لمراد، فكان خيارهم عدم الحديث معه إلا في أضيق الحدود وحين تقتضي الحاجة فقط.

لثلاثة أيام متواصلة حاول النوم على الفراش، وكان يفشل في كل مرة، وينتهي به الحال ممدًا على السجادة، بعد الأيام الثلاثة لم يعد يحاول، وقتما قرر النوم سحب الملاءة والوسادة إلى الأرض ونام، وفي الصباح يعيد كل شيء إلى الفراش حتى لا يكشف الخدم سره فيُهديهم بذلك مادة جديدة للسخرية منه والحديث عنه من ورائه.

- عم يوسف، الأستاذ فهمي المحامي قاعد تحت مستنيك.

قالتها هانم بعدما طرقت باب الغرفة، فقام مبتهجا كطفل عادت إليه أمه بعد غياب طويل، أسرع الخطى حتى إنه سبق هانم على السلم ووصل إلى فهمي، فسلم عليه بحفاوة واضحة وأدخله معه إلى المكتب، أطلعه فهمي على بعض الحسابات وحاول أن يطلعه على مواعيد تحصيل الإيجارات وبعض

المعاملات المالية الأخرى، لكن يوسف لم يكن يعنيه كل ذلك، منعه من الاستطراد وأخذ يحكي له عن معاناته في ذلك البيت.

حدثه عن نظرات الخدم إليه وعدم قدرته على التعامل معهم وهم يعرفون أصله وفصله وأنه كان حتى أسبوع سابق واحدا منهم، ورفض مجددا اقتراح محاميه بتسريحهم والإتيان بآخرين حتى لا يكون سببا في قطع أرزاقهم، حدثه عن شعوره بالوحدة والملل في ظل عدم وجود أي عمل يقوم به، وعدم قدرته على الخروج من المنزل، فطلب منه فهمي أن يخرج من السراي ويتجول في البلد ويتحدث مع الناس ويتعرف على الأعيان باعتباره أصبح أحدهم، رفض الاقتراح في البداية لكنه استسلم أمام إلحاح محاميه وإصراره على أن يخرج معه الآن ليجوبا شوارع القرية، بالحنطور الذي كان يستخدمه مراد بك في التنقل داخل القرية.

ركبا الحنطور وتولى فهمي القيادة، وفي طريق خروجهما لمح يوسف شابا غريبا يجلس على مقعد الخفير، أشار إلى المحامي مستفهما فأوقف الحنطور سريعا وأشار إلى الشاب ليأتي:

- سلم على يوسف بيه يا جابر.

أقدم الشاب على مهل وسلم على يوسف ضاغطا بشدة على يديه:

- أهلا وسهلا.

- ده جابر الغفير الجديد يا عم يوسف اللي هيشتغل مكان سيد، وإن شاء الله يومين تلاتة بالكتير وأكون جبت لك سفرجي مكان يونس.

هز يوسف رأسه موافقا وعلّق بصره بجابر الذي عاد إلى مقعده بخطوات هادئة كما جاء، وانطلقا في طريق ترابي على جانبيه حقول الذرة، وأخذ يفكر في هذا الشاب ضخم الجثة الذي يقترب عمره من الثلاثين، ملامحه الحادة ونظرة عينيه الجامدة وخطواته الواثقة لا تشي أبدا بأنه مجرد خفير يبدأ يوم عمله الأول، طلته الأولى تقول إنه مختلف عن نموذج العاملين المنسحقين أمام رب عملهم والذين لم ير سواهم طوال فترة عمله مع مراد، بدءا بوالده ووصولا إلى سيد الذي كان يجلس على نفس المقعد قبل أيام قليلة مضت، والذي كان يحدث مراد مطأطئ الرأس وتتفكك مفاصله إذا نادى عليه فقط.

أفاق من الانشغال بخفيره الجديد على صوت ضحكة نسائية رقيعة أتبعتها صاحبتها بالقول:

- آخر زمن والله! ولسة ياما هنشوف.

نظر خلفه فإذا بها سيدة من أهالي القرية يتذكر وجهها ولا يعرف اسمها، تقف مع سيدة أخرى وتتظاهر بأنها توجه الحديث إليها، تطلع إلى وجه محاميه الذي تشاغل بالقيادة رغم أنه على يقين بأنه سمع جيدا ما قيل ويعرف مغزاه، واصلا السير في شوارع القرية وبين حقولها، وكلما مرا بأحد ترك ما يفعله، الفلاحون يتركون فؤوسهم، والنساء يتركن الأواني التي يغسلنها في الترعة، والمتناجيان يقطعان حديثهما، والجميع يلتفت إليه، فمنهم من جهر بضحكته ومنهم من أخفاها، منهم من قال كلاما مبطنّا عن دوران الدنيا وألاعيب الحظ ومنهم من ذكر الله الوهاب الذي يعطي بغير حساب.

- كفاية كده يا أستاذ فهمي! يلا نرجع.

- ليه يا عم يوسف؟ هو احنا لحقنا؟ ده أنا لسه هاخدك على أرضك تبص عليها وتقعد فيها شوية.

- لا مافيش داعي. أنا تعبت وعاوز أروح.

لم يجادل فهمي كثيرًا، فوكز الحصان ليغير اتجاهه ويتخذ طريق العودة، كأنه هو أيضا ندم على اقتراحه ويريد إنهاء التجربة في أسرع وقت، بعد دقائق كانت السراي تظهر من بعيد، وبعد دقيقة أخرى كانا على بابها، جلس جابر يحتسي كوبا من الشاي وينظر في الفضاء الموجود أمامه دون أن يبدي أي رد فعل لمرورهما بجواره، لفت ذلك نظر فهمي فأوقف الحنطور ونادى عليه، وضع كوب الشاي بجانبه واتجه إليه:

- أؤمر يابيه.

- انت مش شايفنا داخلين؟

- آه. المفروض أعمل إيه؟

- تسيب اللي في إيدك وتقف. أظن دي أقل واجبات الاحترام يعني!

- بص يا بيه. أنا شغال هنا غفير. يعني شغلانتي إني أحمي السرايا. لو قصرت في ده حقك تحاسبني. لكن الوقوف وتعظيم السلام والكلام ده مش من ضمن شغلي، وكمان مالهوش دعوة بالاحترام.

احمرّ وجه فهمي غيظا من رد الخفير الذي رأى فيه إهانة بالغة وتجاوزا في حقه، حاول التماسك حتى لا يزيد الإهانة بالدخول معه في سجال الأنداد، اكتفى بضرب الحصان ليتحرك ويدخل حديقة السراي، وقال قبل أن يتجاوز البوابة:

- شكلك مش هتطوّل معانا.

لم يعقّب الخفير وعاد إلى مقعده بهدوئه المعتاد، عَقَل فهمي الحصان في الوتد الحديد المثبت في أرض الحديقة وساعد يوسف على النزول، اعتذر له عن موقف الخفير وحديثه الصلف، وأخبره بأنه سيتركه فقط حتى يجد بديلا له حتى لا يبقى البيت بلا حارس، ووعده بأن ذلك سيحدث في أسرع وقت، رفض يوسف الاقتراح وطلب منه ألا يقطع عيشه، وأكد له أن موضوع الوقوف احتراما لا يفرق معه في شيء، بالعكس هو يتمنى لو تزول الفوارق تماما بينه وبين كل العاملين لديه، حتى لا يشعر بالاغتراب الذي يشعر به الآن.

استأذن فهمي في الانصراف للانتهاء من بعض الأعمال، ودخل يوسف من الباب فوجد إبراهيم في استقباله:

- نجهز لك الأكل دلوقتي يا عم يوسف؟

رفض وأكد له أنه لا يرغب في تناول أي طعام الآن، وأن طعام الإفطار ما زال مستقرا في بطنه كما هو. صعد سريعا إلى غرفته، أغلق الباب خلفه وأسند ظهره عليه وأخذ يتطلع في أركان الغرفة وقطع أثاثها، فيبدو أنها ستكون موطنه الدائم إلى وقت غير قريب.

-١٩-

- إنت إيه اللي منيّمك هنا يا طين البِرّك؟ اتهبلت ولا إيه؟

استيقظ يوسف على هذه الجملة الغاضبة، مع وكْز عنيف من عصا مراد، هب واقفا في لحظات وهو لا يفهم شيئا، ماذا يجري؟ ما الذي جاء به إلى هذه الغرفة؟ وهل بُعث مراد بك من موته؟ لكن ضربة قوية من عصا مراد بك على كتفه جعلته يقترب من فهم ما حدث، مراد لم يمت أصلا ليُبعث، كل ما سبق كان حُلما، مجرد حُلم!

- لا مؤاخذة يا سيدي، كنت بنضف الأوضة وراحت عليا نومة.

قالها باستسلام دون أن يسترد وعيه بشكل كامل، وبدأ في رفع الوسادة والغطاء من على الأرض ويعيد ترتيب الفراش، بينما مراد بك يتحدث إليه في غضب:

- قلبت عليك السرايا من طلعة النهار وصوتي اتبح من الندهان عليك أنا والخدامين ولا انت هنا، نايم في عزبة أبوك أظن؟

لم يجد يوسف ما يمكن أن يرد به فواصل التنظيف في صمت، وخرج مراد بك من باب الغرفة تاركا إياه يحاول استيعاب ما يحدث، والعودة من مرحلة الحلم إلى أرض الواقع، الواقع الذي لم يتغير، مراد بك ما زال موجودا، وهو ما زال خادمه، لم ينزعج مما حدث، فما رَآه لم يكن حُلما بالأساس بل كان كابوسا، والوضع الذي هو فيه الآن على ما فيه من تعب وتسلط من

جانب سيده أحب إليه ألف مرة من الوضع البائس الذي رآه في منامه، على ما فيه من راحة ونعيم ظاهر.

انتهى يوسف من ترتيب وتنظيف الغرفة، وخرج من الباب ونزل درج السلم ببطء أجبرته عليه فضلا عن خشونة ركبتيه وألم عظامه، تزاحم وتدافع الأفكار في رأسه وكثرة التناقضات بين الوضعين، لكن هانم التي كانت تمسك بالمنفضة وتهوي على أحد مقاعد الصالون بعنف لإخراج التراب منه، وإن كان ما تفعله يكفي لتمزيق القماش وإخراج القطن والخشب، توقفت عما تفعله ووقفت على مطلع السلم وقالت بصوت منخفض:

- إنت كنت فين يا عم يوسف؟ ده البيه قالب الدنيا عليك وشتمنا كلنا بسببك عشان ماكناش عارفين طريقك.

- وزعلانة ليه ياختي؟ أول مرة تتشتمي ولا حاجة؟ ده انتي بتكملي غداكي شتيمة.

ضحكت حتى ظهرت نواجذها، واستمرت في الضحك حتى ضحك هو أيضا، مسحت عينيها بطرف كُمها وقالت:

- طيب يلا بقى عشان ناكل احنا لسه مافطرناش ومستنيينك، الله يسامحك بقى زمان الطعمية تلّجت.

- يلا، أنا كمان ميت من الجوع.

قالها واتخذ طريقه ناحية غرفة السفرة، لكنه توقف في منتصف الطريق على صوت هانم:

- رايح فين يا عم يوسف مش وقت شغل باقول لك جعانين.

ابتسم ابتسامة لم تفهم مغزاها، وتدارك الأمر قائلا:

- هاه؟ أصلي كنت ناسي حاجة جوة، خلاص هاكل الأول

وبعديـن أبقـى أشـوف الموضـوع ده.

سـبقته ناحيـة المطبـخ ومـشي هـو في إثرهـا والابتسـامة مـا زالـت عـلى وجهـه، يبـدو أن الحلـم عـوده عـلى حيـاة الأسـياد.

في المطبـخ جلـس الجميـع يتناولـون الإفطـار، إبراهيـم وسـيد ويونـس وسـعدية وكوثـر وهانـم، عاتبـوه عـلى التأخـير وافترشـوا الأرض وأمامهـم الفـول والطعميـة والباذنجـان المقـلي وطبـق جبنـة بيضـاء، اسـتفسروا منـه عـن سـبب اختفائـه، وعندمـا علمـوا بأمـر نومـه في غرفـة نـوم الضيـوف أصيبـوا بصدمـة أوقفتهـم جميعـا عـن الأكل، وقـال إبراهيـم:

- يعني انت كنت نايم في أوضة الضيوف؟

- آه

تدخل فرج في الحوار:

- والبيه شافك؟

- آه شافني.. وهو اللي صحاني كمان!

عـاد الجميـع لتنـاول الطعـام مـرة أخـرى، وقـال سـيد وهـو يدفـع لقمـة فـول كبـيرة في فمـه:

- لـو واحـد مننـا هـو الـلي عملهـا ماكانـش هيبـات في السرايـا، ده لـو البيـه كمـان ماتهـورش وطخـه مطـرح مـا هـو نايـم.

ضحكـوا جميعـا وأخـذوا يتحدثـون عـن المكانـة الـتي يحظـى بهـا يوسـف عنـد البيـه، وعـن ذكرياتهـم مـع مـراد وتعاملـه الحـاد معهـم مقارنـة بـه، شـعر بفخـر شـديد وهـو يسـمع ذلـك، وجعـل كلامهـم مـذاق الطعـام أطيـب في فمـه، وإن كان قـد حـاول إقناعهـم بـأن مـراد بـك يحتـد عليـه كثـيرا ويضربـه أكـثر، وأنـه عندمـا وجـده نائمـا

قبل دقائق ضربه بعصاه بعنف، لكنهم أصروا على موقفهم بأن مكانته عند البيه أعلى بمراحل منهم مجتمعين، وبأنه يستطيع أن يستغني عن أي واحد منهم بسهولة أو حتى عنهم جميعا لكنه لا يمكن أبدا أن يستغني عنه ولا يستبدله.

استند بظهره على حائط المطبخ وأخذ رشفة من كوب الشاي الذي أحضرته له هانم، وتركهم يستمعون لإحدى حكايات سعدية، وأخذ يفكر كيف أنه في السابق كان يحزن من قسوة البك وتعنيفه ويتمنى لو ترك له أبواه ثروة تغنيه عن الإهانات وتضمن له حياة كريمة، هو الآن ليس واثقا أنه سيكون أسعد إذا حدث ذلك الآن، ربما مضى أوان تغيير نمط الحياة، فالاستمرار على حياته المشمولة بعناية سيد قوي، وفي حضرة زملاء يبادلهم الحب والمودة، وبلقيمات تكفي ليقيم صلبه وزيادة، أكثر أمنا من تغيير قد يبدو في ظاهره للأحسن، لكنه يحمل بين طياته العقاب.

- إنت يا فرج الزفت.

جاء صوت مراد إليهم في المطبخ مزلزلا، فانتفض فرج وجرى نحو سيده الواقف في منتصف الصالون، وهب الجميع فوقفوا لاستطلاع الأمر وانتظار دورهم، أشار بعصاه ناحية الحديقة وقال:

- أنا مش قلت قبل كده العنباية دي تتخَف. ماخفّتهاش ليه يا بغل؟ واللا انت مش فالح غير بس في الأكل والحَش وشغل مافيش!

- والله يا بيه خفّيتها مرتين زي ما سعادتك أمرت.

- وانت هترد عليا كمان يا ابن الكلاب؟ اتحرك يلا اعمل اللي قلت لك عليه!

- حاضر حاضر.

- واعمله بذمة يا خويا مش تقضية أوامر زي كل مرة.

انتظر مراد حتى خرج فرج من الباب مهرولا باتجاه الحديقة، فجلس على المقعد واستند على عصاه، وقال:

- والبيه يوسف فين هو كمان؟

خرج من المطبخ، وفي لمح البصر كان واقفا في خشوع أمام مراد:

- موجود يا سيدي. أؤمرني؟

- بكرة أنا عازم الأعيان على الغدا، عاوزك تعمل كل الترتيبات، هاسألك انت عن كل حاجة، من أول النضافة لحد الأكل، ولو لقيت حاجة واحدة مش مظبوطة هقلب عليك على القديم والجديد. فاهمني طبعا. على الله تكون نومة الأوضة ريّحت جَنابك.

- حاضر. كل اللي تؤمر بيه نافذ.

- غور يلا من قدامي الساعة دي. جتك الهم.

توجه يوسف ناحية المطبخ منتشيا بأن جريمة نومه في غرفة الضيوف مرت بأقل الخسائر، لكنه تذكر ما قاله بشأن عزومة الغد وأنه سيكون المسؤول عنها كالعادة، وربما يكون قد أخّر عقابه فعلا لحين اكتشاف أي خطأ ولو بسيط فيها، لذلك لا بد أن يعمل من الآن على الترتيب لكل شيء حتى لا يجد مبررا يجعله يلحق به عقابا مضاعفا، جمع كل العاملين فراجع مع إبراهيم

الأصناف التي سيطبخها، وشدد على سعدية وهانم التركيز جيدا على التنظيف خصوصا الصالون وغرفة السفرة، بحيث لا يوجد بهما ذرة تراب، واختار مع يونس الطقم المذهب الذي سيقدم فيه الطعام.

في المساء جلس يوسف تحت قدم سيده الممدد على الفراش، أخذ يدعكهما كالعادة بمرهم الروماتيزم الذي أوصاه الطبيب باستخدامه يوميا قبل النوم، وكلما صعد إلى ركبتيه لتدليكهما سمع طقطقة تخرج منهما فاضطر إلى النزول مجددا إلى الساقين خوفا من إيلامه.

- خلاص. عجّزت يا واد يا يوسف.

- عجزت إيه بس يا سيدي. ده انت ما شاء الله اللي يشوفك يقول أصغر مني.

- أصغر منك؟ انت لما اتولدت كنت انا متجوز، ودلوقتي كل اللي أعرفهم ماتوا ومافاضلش غيري، وقريب أنا كمان هاروح لهم.

- تف من بقك يا سيدي اوعى تقول كده بالله عليك. إنت صحتك زي الفل، هم بس شوية الروماتيزم دول وشوية بشوية هيروحوا. إنت عارف لو تسمع كلامي وتتجوز؟ هترجع أصبى من الأول ومش بعيد كمان تجيب لنا عيل.

- بس يا عبيط. الجواز للي في سني فضيحة. أجيب ليه مرة تطلع سري وتقلل هيبتي في عيون الناس، لو مش دلوقتي فبعد ما أموت، وموضوع العيل ده كمان عدى أوانه، لو فرضنا يعني إن فيا صحة أجيبه هابقى كأني بحكم عليه يقضي حياته كلها

يتيم، وهاموت وأنا قلبي بيتقطع من الخوف عليه من بعدي. كده أحسن، مافيش حاجة تخليني زعلان وأنا بسيب الدنيا.

سادت لحظات من الصمت لم يجد فيها يوسف ما يقوله، أشفق على سيده بشدة وهو يراه تعيسا رغم كل هذه الثروة والجاه، شعر تجاهه بحب أكيد وعميق وبرغبة في أن يبقى هكذا تحت قدميه حتى نهاية عمره، رغم قسوته عليه وصوته المرتفع دوما، فهو يعلم أن مراد يحبه من قلبه وربما يكون هو الشخص الوحيد الذي يحبه أو حتى يشعر بوجوده أصلا في هذا العالم، قطع الأخير الصمت بسحب رجليه وإدخالهما تحت الغطاء، ووضع رأسه على الوسادة في وضع النوم، وقال:

- يلا كفاية بقى قوم واطفي النور. أنا عاوز أنام.

قام بعد أن تمنى له أحلاما سعيدة، أطفأ النور وأغلق الباب خلفه بعد أن ألقى نظرة أخيرة على جسد سيده المسجى على الفراش، نزل الدرج وخرج من باب السرايا الرئيسي ودخل غرفته المجاورة لغرفة الجنايني، وألقى جسمه على الأرض في تعب وفي ثوان معدودة كان قد راح في النوم.

-٢٠-

- عم يوسف.. يا عم يوسف

استيقظ على صوت هانم يتخلله طرقات على الباب، نظر حوله فوجد نفسه نائما في غرفة الضيوف، انتفض فجأة وواصل النظر في أرجاء الغرفة بينما صوت هانم وطرقاتها لا يتوقفان، فتح الباب وهو لا يفهم شيئا، قالت له إن السفرجي الذي أرسله الأستاذ فهمي ينتظره بالأسفل، صمت كثيرا وهو ينظر لها، فيما وقفت تميل برأسها يمينا ويسارا تستغرب تعبيرات وجهه العجيبة ونظرات عينيه التائهة، هز رأسه إيجابا دون أن ينطق، وأغلق الباب رغم أنها كانت لا تزال واقفة في مواجهته.

أخذ يهز رأسه في عصبية ويضع يديه على وجهه ويرفعهما، لا يعرف أيهما الحلم وأيهما الحقيقة، هل مات مراد بيه وكتب له نصف ثروته أم أنه ما زال حيا وما زال خادمه؟ هل يحلم الآن وسيستيقظ على وكزة جديدة من عصا سيده، أم أنها الحقيقة التي سيعيشها ما تبقى من عمره؟ لو أن الاختيار بيديه قطعا سيختار البقاء في ظل سيده، لكن الأكيد أن الاختيار لن يكون بيديه، فهناك واقع ما سيُفرض عليه وإن كان بقاؤه على هذا الحال لن ينتهي به إلا إلى الجنون.

ارتدى جلبابا كان معلقا على شماعة خلف الباب، نزل متثاقلا فوجد رجلا أربعينيًا يقف شاردا وينظر بانبهار إلى النجف المتدلي من السقف العالي، ثم ينقل عينيه بين قطع الأثاث الكثيرة،

انتبه إلى قدومه فانتصب وبسط يده حتى وصل إليه فسلم عليه بتوقير كبير:

- جنابك أنا اسمي عبد المعبود، السفرجي الجديد، فهمي بيه بعتني علشان أقابل حضرتك وأبدأ الشغل وإن شاء الله أنول رضاك.

- أهلا يا عبد المعبود. وبإذن الله تتبسط معانا.

- أنا مبسوط ما دام شفتك يا سيدي.

نادى على سعدية وطلب منها أن تأخذه إلى إبراهيم ليسلمه عهدته ويُخبره بتفاصيل العمل، استأذن في أدب وذهب خلف سعدية إلى المطبخ، ألقى بجسده على مقعد وثير من مقاعد الصالون كان مراد بك قد أحضره قبل عدة أعوام من بلجيكا، بدأ الاقتناع يتسلل إليه بأن وضعه الحالي هو الحقيقة وبأن عودة مراد بك إلى الحياة لم تكن أكثر من حلم، شعر بدوار شديد فتذكر أنه لم يأكل شيئا منذ ساعات طويلة، دخل المطبخ أحضر رغيف خبز وضع فيه قرصين من الطعمية، ولفّه كما يفعل دوما بعدما رفض عرض إبراهيم بتجهيز الإفطار له، ووسط نظرات حائرة من عبد المعبود الذي أدرك لتوّه أنه سيتعامل مع رجل غريب الأطوار.

صعد مجددا إلى غرفته وهو يأخذ قضمات متتالية من الساندوتش، فتح النافذة ونظر منها على الحديقة، من السور كان يظهر جزء من جسد جابر، تناول آخر قطعة من طعامه ثم فتح الباب ونزل وتجاوز الدهاليز والممرات تباعا ثم قطع الحديقة وخرج إلى حيث يجلس جابر على دِكة خشبية، انتبه إليه الأخير فنظر إليه دون أن يقوم مستغربا وجوده

- فيه حاجة يا بيه؟

- لا مافيش أنا زهقت من القعدة فوق قلت أنزل أشم الهوا.

- أهلا وسهلا.

قالها ثم صرف بصره عنه لثوان وقف فيها يوسف يحك ذقنه تارة وشعره تارة أخرى، قبل أن يتوجه بحديثه للخفير مرة أخرى بصوت متردد:

- انزاح شوية كده خدني جنبك.

استغرق جابر بعض الثواني حتى يستوعب طلب صاحب السراي، بعدها أفسح له مساحة دون أن يتكلم، جلس يوسف ولم يمض وقت طويل حتى وجد موضوعا يبدأ به الحديث:

- إنت منين يا جابر؟

- من سيدي غازي يا بيه.

- آه أسمع عنها، بس عمري ما رحتها، أنا يمكن ماخرجتش من البلد هنا غير ييجي ست سبع مرات بالعَدد، قضيت عمري كله بين حيطان السرايا دي، في الأول كان الموضوع غصب عني، كان ممنوع أخرج غير بإذن أبويا ومن بعده مراد بيه، بس شوية بشوية خدت على كده وبقيت أنا اللي ماحبش أخرج، وحتى لو حبيت مش هلاقي مكان أروحه ولا حد أروح له، لا أعرف صاحب ولا ليا أخ ولا ابن عم، يبقى البيت اللي أعرفه أولى بيا، ومن خرج من داره اتقل مقداره.

- بس انت دلوقتي ما شاء الله بقى عندك سرايا وأطيان وأملاك، ممكن تروح وتيجي، تشوف أملاكك وتعرف اللي شغالين فيها وتتكلم معاهم وتراعي مصالحك.

- أستاذ فهمي قال لي زيك كده برضه، بس صعب، اللي قضى حياته زي صعب بيجي في آخر أيامه ويغير كل حاجة، زي الأعمى اللي عاش حياته كلها مش بيشوف، لو ربنا شفاه وفتح عينه هيرجع هو يغمضهم تاني بسرعة، أصله مش واخد على النور.

- خلاص. اعمل اللي يريحك.

قالها بنبرة من لا يريد سماع المزيد، لكن يوسف واصل فتح الموضوعات تباعا:

- إنت متجوز؟

- آه الحمد لله. متجوز وعندي ٣ عيال.

- ماشاء الله ما شاء الله. ربنا يخلي. ومبسوط بقى مع عيلتك؟

لم ينتظر إجابة وواصَل:

- أهو أنا بقى عمر ما عرفت يعني إيه عيلة. أمي ماتت وانا عندي ١٥ سنة. جالها السل وهي في عز شبابها، وأول ما الباشا الكبير عرف إن عندها المرض الوحش خلى أبويا يمشيها من السرايا كلها عشان خاف تعدي حد من عيلته، ودّاها بيت أمها، وبعدها بكام شهر قابلت رب كريم، دفنّاها أنا وأبويا وجينا على هنا في نفس اليوم، علشان البيه الكبير كان عازم ناس كبار قوي من مصر وغصب علينا نيجي علشان نخدّم عليهم. جينا وبقينا مش عارفين حتى نبين حزننا عشان الناس مايفكروش اننا مكشرين في وشهم، وبقينا نسمع ضحكهم جايب آخر الشارع وأمي لسه بايتة أول يوم في التُربة، وقبل ما أكمل التلاتين أبويا مات هو كمان، كان نفسه يجوّزني قبل ما يموت بس كل ما نروح نخطب بنت حد يقول بنتنا ماتشتغلش خدامة، وبعد ما مات

أبويا مشي قطر العمر بسرعة لحد ما نسيت موضوع الجواز والعيلة وخدت على حياتي مع مراد بيه.

- بس أهو عوّضك عن كل ده وكتب لك شيء وشويات.

- متأخر. متأخر قوي يا ابني.

قام مستعدا للمغادرة، وواصل:

- أسيبك بقى صدعتك الشوية دول.

- لا يا بيه ماتقولش كده ده انت نورتني.

- بعد كل اللي حكيتهولك ده لسه بتقولي يا بيه؟ بلاش يا بيه دي يا ابني الله يرضى عليك. قول لي زي ما كل الناس هنا بتقول لي، عم يوسف.

- ماشي يا عم يوسف.

- أيوه كده. ربنا يبارك لك في ولادك ويخليك ليهم.

في هذه اللحظة كانت كوثر عائدة من السوق فشاهدت يوسف واقفا مع الخفير، ابتلعت الأمر وألقت السلام ثم دخلت مسرعة على المطبخ، وضعت حقيبة الخضار في الأرض ثم قالت لإبراهيم وسعدية التي كانت تغسل بعض الأطباق:

- شفتوا يوسف وهو واقف مع الغفير الجديد؟

تركت سعدية الأطباق التي تغسلها فورا، وتساءلت مستنكرة:

- والمصحف؟

- آه والله زي ما بقول لك كده. لسه شايفاهم دلوقتي حالا، ولو بصيتي دلوقتي هتلاقيه لسه طالع من معاه.

تداخل إبراهيم في الحوار وهو يواصل تقليب آنية على النار:

- أنا مش فاهم وفيها إيه يعني إنه واقف معاه. عاملين موضوع ليه؟ ما يمكن بيسأله على حاجة ولا بيطلب منه حاجة.

- بيسأله إيه بس؟ ده كان قاعد جنبه على الدكة!

- قاعد جنبه ع الدكة؟ كمان؟

- آه والله زي ما بقول لك كده. وانا جاية من بعيد شفته وهو قاعد جنبه، وأول ما شافني جاية عليه راح قايم وماشي وفاكر اني ماشفتهوش.

- راجل وش فقر.

قالتها سعدية وأتبعت جملتها بصوت نتج عن مصمصة شفتيها استنكارا، فيما أمّن إبراهيم على كلامها:

- أهي دي أول حاجة تقوليها صح في حياتك، هو وش فقر صحيح، أنا لو مكانه وورثت الحوسة دي أول حاجة كنت هاعملها إني أطردكم طردة الكلاب وأقطع علاقتي بأي حاجة تفكرني بأيام الفقر والصحبة الشوم دي، لكن هنقول إيه؟ يدي الحلق للي بلا ودان.

عادت كوثر للمشاركة في جلسة النميمة مرة أخرى:

- بس اللي انا مستغربة له اشمعنى نزل يقعد مع الغفير الجديد اللي لسه يا دوب نعرفه مابقالناش يومين؟ لما هو عاوز يحكي ويتساهر كده مابيجيش يقعد معانا احنا ليه، ده بقى يا دوب ياكل اللقمة ويجري على فوق يحبس نفسه في الأوضة لحد الطقة اللي بعدها.

أجاب إبراهيم:

- اسألوا نفسكم، شوفوا عملتوا له إيه خلاه يغوّر على القعدة

معاكم.

فقالت سعدية:

- وهنكون عملنا له إيه يعني ما انت كنت معانا في كل حاجة، حد مننا داس له على طرف؟ هو اللي شكل الفلوس لحست مخه، أراهنك إن كان بيطلع الأوضة يفضل يقرص في نفسه علشان يعرف ان كان صاحي ولا بيحلم.

غيّرت كوثر الموضوع دون مقدمات:

- المهم انت طابخ لنا إيه النهارده؟

وضع إبراهيم الغطاء على الحلة بغيظ، والتفت إليها:

- أهو تصدقوا بقى إن دي أكتر حاجة مزعلاني من يوسف؟ بقى بعد ما كنت بطبخ لبهوات وبشوات وأعيان ينتهي بيا الحال إني أطبخ لكم انتم يا عرر؟ لو كنت باطبخ له هو بس زي ما كنت بطبخ لمراد بيه الله يرحمه كنت يمكن أبلعها شوية، أهو على الأقل ربنا اداله فلوس بالكوم وبقى من الأعيان بمزاجنا أو غصب عننا، لكن أطبخ لكم انتم؟ إنتم؟ آخر زمن والله!

وضعت كوثر سبابتها على خدها وقالت:

- ليه بقى ان شاء الله؟ مانشبهش ولا إيه؟ ما كلنا ولاد تسعة يا اخويا، واللي ادى يوسف قادر يدينا.

فأضافت سعدية:

- جرى إيه يا إبراهيم؟ إنت هتتشطر علينا احنا ولا إيه؟

أنهى إبراهيم الحوار متأففا:

- خلاص يا اختي انتي وهي، لا اتشطر عليكم ولا تتشطروا

عليا، كل واحدة تشوف شغلها خلوني انا كمان أشوف شغلي.

في الأثناء كان يوسف قد عاد لغرفته مجددا، جلس على الأرض محتضنا ركبتيه لا يصدق هذه الإثارة التي طرأت فجأة على حياته التي ظلت مستقرة وجامدة لعقود، يشعر بأنه بات يحيا بلا هدف، كان يعمل ليتحصل في آخر اليوم على لقمة تقيم صلبه ومكانا يضع فيه جنبه، فأصبح الأكل يأتيه بلا عمل والأمكنة كلها طوع أمره، هل سيعيش فقط ليأكل ويشرب كبعير يجهزونه للذبح؟ أم يعمل على زيادة أمواله؟ وهل يحتاج لأن يزيدها وهي تكفي لأن يأكل منها وجباته الثلاث يوميا طوال حياته دون أن يشعر بنقصانها؟ ولمن سيزيدها أصلا؟

أحس بضيق شديد في صدره وبصعوبة في التنفس، قام ففتح نافذة الغرفة وأخرج أنفه يسحب بعض الهواء من الخارج بعيدا عن هواء الغرفة الذي لا يحوي غير أنفاسه، أنعشت برودة الهواء رئتيه، شعر برغبة حقيقية في الخروج من هذه الغرفة، من هذا المنزل، من هذه القرية، لكنه اصطدم بسؤال كل مرة: إلى أين؟

هذا العالم على اتساعه لا يعرف فيه بقعة تحتويه بخلاف موضع قدميه، لا يعرف فيه أحدا إلا أشخاصا يستطيع عدهم بالواحد في ثوان، لا يعرف فيه شيئا إلا ما عرّفه إياه سيده الراحل. يقولون إن الإنسان عدو ما يجهل، ما بالك بإنسان يجهل كل شيء. ما أكثر أعدائه!

إذن فالخيار محسوم، وما سيفعله الآن هو ما يفعله منذ أن أصبح سيد هذا القصر وكلما طرح على نفسه أسئلة لا يجد إجابة لها، سيسحب فرشته وينام، ربما جاءه مراد بك في المنام

وخفف عنه وحشته، ربما استيقظ على واقع آخر يكتشف فيه أن كل هذا الذي يعانيه مجرد حلم وانتهى، ربما لا يصحو مرة أخرى وتنتهي حيرته إلى الأبد، هذا الحل الأخير يريح جميع الأطراف، يريحه هو أكثر من أي أحد آخر، لكنه يعرف جيدا أنه خيار صعب المنال، فالموت حين يُطلَب.. يتمنّع.

-٢١-

في طريق عودتنا إلى القاهرة جلست أمي بجانبي في المقعد الأمامي، وجلست شقيقاتي الثلاث في الأريكة الخلفية، كانت غاضبة بشدة من سارة، استنكرت عودتها إلى القاهرة وحدها تاركة عزاء حماها، واستشهدت بزوجي أختيّ اللذين لم يتركانا ليوم واحد رغم انشغالهما، حتى إنهما سافرا بين القاهرة وكفر الشيخ نحو ثلاث مرات في هذه الفترة، حتى يستطيعا التوفيق بين العمل وأداء الواجب.

قالت أيضا إنها حتى عندما كانت جالسة في العزاء كانت لا ترفع عينها عن شاشة المحمول منشغلة باللعب على الإنترنت طوال الوقت، ولم يكف أنها لم تذرف دمعة واحدة منذ وفاة أبي بل إنها كانت تبتسم أحيانا بشكل يلفت نظر جميع الحاضرات إذا ما وجدت شيئا مضحكا على شاشتها، وجدتها فرصة جديدة للومي على اختياري زوجة لا تشبهنا، لم أكن راغبا في خوض مناقشات، خصوصا مع اقتناعي بصحة كثير مما تقول، لذلك أمّنت على كلامها باقتضاب ووعدتها بأنني سألومها على ما فعلت.

لم تكتف أمي بذلك وواصلت:

- وبعدين انت ازاي لحد دلوقتي مطاوعها في قلة الخلفة؟ عديتوا ٤ سنين أهو جواز، مستنيين إيه تاني؟

فقالت سحر:

- في دي بقى يا خالد ماما عندها حق، عاوزين بقى نفرح

بـولادك وتجيـب لنـا ولـد نسـميه عـلى اسـم بابـا الله يرحمـه.

قاطعتها أميرة:

- يـا سـتي ولـد ولا بنـت اللـي يجيبـه ربنـا احنـا راضيـين بيـه، بـس يخلفـوا بقـى عشـان كـده كتـير.

فعادت سحر:

- عـلى رأيـك اللـي في سـنه بقـى عنـده عيلـين وتلاتـة واحنـا لسـه بنتحايـل عليـه يجيـب أول عيـل.

لم تفوّت أمي الفرصة وواصلت:

- هـو انـت بتخـاف منهـا يـا خالـد؟ هـي اللـي مـش عايـزة تخلـف وانـت مـش قـادر عليهـا، صـح؟

نفد صبري ولم يعد الصمت ممكنا:

- أنـا مـش مصدقكـم والله. بجـد مـش مصدقكـم. إنتـو شـايفين ان ده الوقـت المناسـب علشـان نتكلـم في الـكلام ده؟ اسـكتوا بقـى لـو سـمحتم عـاوز أركـز في الطريـق خلونـا نوصـل بالسـلامة.

سـاد الصمـت السـيارة وإن كانـت نفسي لـم تعرف الصمت، اسـتمر الحـوار الغاضـب بداخـلي، لـم يعـد ممكنـا التجـاوز عـن تصرفـات سـارة الـتي تزيـد غرابـة يومـا بعـد يـوم، كأنهـا تريـد تدمـير علاقـتي بهـا تمامـا، في السـنة الأولى للـزواج كانـت شـديدة الرومانسـية وكانـت الفـترات الـتي أقضيهـا في المـنزل عـلى قلّتهـا هـي أفضـل لحظـات حيـاتي، أسـتمتع فيهـا بـكل شيء، بـدءا مـن علاقتنـا الحميميـة الـتي كانـت شـديدة التفـرّد، وحـتى أصغـر الأشـياء كمسـاعدتها في إعـداد العشـاء أو مشـاهدة التلفـاز وهـي تسـند رأسـها عـلى كتفـي.

شيء مـا قلـب حياتنـا رأسـا عـلى عقـب، لا أظنـه الموقـف مـن

الثورة، فمنحنى السعادة بدأ في الهبوط السريع قبل بداية عملي في المستشفيات الميدانية بنحو ٦ شهور، ربما يكون ضغط عائلتها الدائم عليها ومقارناتهم التي لا تتوقف بيني وبين من سبق وتقدموا لطلب الزواج بها، خصوصا مع طول الوقت الذي كانت تقضيه عندهم، ربما لم نتعامل جيدا مع حالة الملل التي تصيب أي زوجين بعد عام الزواج الأول لا سيما في غياب الأطفال، ربما لفشلها في انتزاعي تماما من عائلتي وعدم رغبتها في الاندماج وسط أهلي، لشعورها بوجود فارق في المستوى الاجتماعي بين العائلتين، أو قد يكون هذا التطور الكبير للأسوأ الذي أظهرته في الشهور الأخيرة سببه استعادة والدها كثيرا من نفوذه المالي والسياسي في العام الأخير، ودخوله البرلمان مرة أخرى.

لا أعرف تحديدا ما السبب، وهل هو بين تلك الاحتمالات، أو كلها مجتمعة، أم أنه ليس فيها أصلا وهناك سبب آخر لا أعرفه، كل ما أعرفه أن حياتي مع سارة لم تصبح كما تمنيتها، ولا أعتقد أنها ستصبح كذلك بعد التغيرات الأخيرة، إنجاب الأطفال هو أحد أحلامي أيضا وليس حلم أمي وشقيقاتي وحدهن، كنت أتمنى لو حمل أبي حفيده قبل أن يغادر الدنيا، أعرف أن ذلك كان حلمه الأهم رغم أنه لم يفرضه عليّ قط، كان اتفاقي مع سارة قبل الزواج ألا ننجب طفلنا الأول قبل عامين، مر العامان، ثم مر مثلهما ولم يحدث، وكلما فتحت معها الموضوع خرجت بحجة جديدة.

هناك نقاط كثيرة يجب أن توضع على الحروف، حياتي تحتاج لوقفة أعيد فيها ترتيب الحسابات، تركيزي في عملي ونجاحي

فيه لا يعني أنني سعيد في حياتي، على العكس، فما تركيزي فيه أساسًا سوى محاولة للهروب من حسم نقاط كثيرة في حياتي، لا أنكر أن حالتي النفسية تأثرت كثيرا منذ انتهى عملي في المستشفيات الميدانية، لا يتعلق الأمر بحبي للدماء والاشتباكات مثلا، لكنه يتعلق بأن هذا التوقف حدث حين تعثرت الثورة بشدة وعادت الوجوه القديمة البغيضة لتحكم الساحة، هذا الأمر آلمني بشدة، لأنني شعرت بأن كل الأرواح التي أزهقت بين يديّ والعاهات المستديمة التي أكمل بها مئات الشباب حياتهم، راحت سدى، لم يتحقق شيء مما أرادوا، بل ربما تحقق عكسه.

الظلم ما زال موجودا في كل مكان، لم أتوقع حتى أن أجده في قريتي الصغيرة، ما زال الأقوى يسيطر ويبسط نفوذه ويُفسد من حوله بفساده، وما زالت أرزاق الناس محدودة وكرامتهم مهدرة، الإهانة والتنكيل مصير كل من يحاول رفع رأسه، يجب أن يعيش الجميع برؤوس مطأطأة حتى لا يرفع أحد عينه فيرى ما حوله من كوارث، يكفي أن تنظر لموضع قدميك لتبقى آمنا، فإن رفعتها لترى عيناك منظرا آخر كانت النظرة الأخيرة، فمقصلة الظلم لا ترحم أحدا، يصلح ذلك للتعميم على السياسة بشكل عام، أو للاختزال غير المخل في قرية صغيرة يعرف سكانها بعضهم البعض واحدا واحدا.

قد لا يكون إذن فساد حياتي سببه سارة، بل قد أكون أنا السبب، قد يكون هذا الرأس الذي لا يتوقف عن التفكير واسترجاع الذكريات، قد تكون الألوان الثلاثة التي لا ترى عيني غيرها في السنوات الأخيرة عقبة تمنعني عن رؤية بقية ألوان الحياة. نعم، فحياتي في السنوات الأربع الأخيرة توقفت على

ثلاثة ألوان حصرا، الأحمر والأبيض والأسود، لا، الأمر لا يتعلق بألوان علم مصر، فالأحمر هو لون الدماء، والأبيض لون الأكفان، والأسود للحداد، من الصعب على عين رأت ذلك، وعلى قلب منفطر تسكنه صور القتلى، وعلى عقل اكتشف أن ذلك كله ذهب أدراج الرياح وعاد الوضع إلى ما كان عليه وأسوأ، أن يجعلوا صاحبهم يستمتع بأي من متع الحياة.

الوقفة واجبة إذن قبل مزيد من التدهور.

وقفة أتحسس فيها موضع قدميّ لأعرف أين أقف، وموضع خطواتي القادمة لأعرف إلى أين سأذهب، وفاة والدي وزيارتي الخاطفة للقرية، وعلاقتي الآخذة في التدهور بزوجتي، أسباب كافية لاستعجال هذه الوقفة، وأنا على يقين أن حياتي بعد هذه الوقفة لن تكون أبدا كحياتي قبلها. أو هكذا أتمنى.

-٢٢-

توقفت بالسيارة أمام البناية ونزلت أمي وشقيقاتي ثم نزلت أنا، أقبل علينا الكثير من الجيران يجددون المواساة ويعرضون الخدمات ويعتذرون عن التقصير ويسألون إن كنا سنقيم صوانًا للعزاء، نفينا بقطع وأكدنا أن باب شقتنا مفتوح للجميع لكن فكرة الصوان غير مطروحة. استأذنت في صعود الشقة لشعورنا بالتعب بسبب طول المسافة من كفر الشيخ إلى القاهرة، وكما توقعت، بمجرد فتح باب الشقة انفجرت أمي في البكاء ودخلت إلى غرفت نومها أخرجت بعض ملابس والدي احتضنتها بشدة، ومعها شقيقاتي واحدة تحاول تصبيرها والثانية تبكي معها، ثم يتبادلن الأدوار.

جلست على مقعد في الصالة حتى تنتهي أمي من طقوسها وبكائها، وكنت أرغب في تركها تبكي لأطول وقت ممكن لأنني أعرف أن في ذلك راحة لها، وأن إظهار الحزن مهما كان مؤلما يبقى أفضل من كبته وقمعه، وبعد أن هدأت قليلا ذهبت إليها، أشرت لآية حتى تقوم وجلست بجانب أمي على الفراش، وضعت يدي على كتفها، ومسحت دموعها بإبهامي:

- خلاص؟ ارتحتي؟ أنا سبتك أهو تعيطي وتخرجي كل اللي جواكي علشان مايبقاش ليكي حجة.

- ولو عيطت العمر كله عمري ما هارتاح، ده كان جوزي وحبيبي وأخويا وأبويا وعيلتي كلها.

- واحنا رحنا فين طيب؟ ما احنا كلنا جنبك وحواليكي أهو.

- حواليا ازاي؟ إنت كلها كام ساعة وتروّح لمراتك، واخواتك يومين تلاتة وكل واحدة هتروح لجوزها، حتى آية كام شهر وهتسيبني هي كمان وتتجوز، وكل واحد هينشغل في حاله وهافضل أنا لوحدي.

قالت أميرة:

- ماحدش فينا هيسيبك يا ماما، طول الوقت هتلاقينا رايحين جايين عليكي، وانتي كمان اخرجي وتعالي عندنا من وقت للتاني علشان تغيري جو، ولما تلاقي حد مننا قصّر معاكي ساعتها ازعلي وعيطي واعملي اللي انتي عاوزاه.

هزت أمي رأسها باستخفاف، فأضفت:

- وبعدين يا ستي مين قال لك إني كام ساعة وهامشي؟ أنا هابات معاكم النهارده علشان نتلم كلنا زي زمان.

- ومراتك..

- مالكيش دعوة بمراتي، إنتي يا ست الناس أهم عندي من الدنيا كلها.

احتضنتها بقوة وهكذا فعلت شقيقاتي، طلبت منها أن تقوم لغسل وجهها ففعلت، أمسكت هاتفي ودخلت غرفة جانبية وكلمت سارة:

- إنتي فين؟

- عند بابا.

- طيب احنا وصلنا البيت وهبات مع ماما النهارده.

- زي ما تحب.

- مش زعلانة؟

- لأ خالص، أنا كده كده كنت هبيت عند بابا النهارده.

- تمام. سلام.

- باي.

كان يمكنها أن تمثّل التأثر والحزن، أن تدّعي أنها كانت ترغب في رؤيتي لكنها في الوقت نفسه تتفهم رغبتي في البقاء بجانب أمي، أن تدّعي اضطرارها للمبيت عند والدها حتى لا تبيت في شقتنا وحدها، أو حتى لا تقول أي شيء من ذلك وكنت أنا من سأطلب منها المبيت عند والدها، لكن يبدو أنها تقصد تمامًا ما تفعل، وتتعمد توصيل رسالة ما إليّ، ووصلت رسالتها جيدا.

خرجت باتجاه الحمام فوجدت أمي لا تزال بالداخل فانتظرت على مقعد في الصالة حتى خرجَت، دخلت فغسلت شعري ووجهي ولم أنشفهما جيدا حتى يبقى أثر المياه عليهما، دق جرس الباب، الأستاذ كمال جارنا في الطابق الخامس جاء لتقديم العزاء، اعتذر كثيرا عن عدم سفره معنا إلى كفر الشيخ بسبب ظروف قهرية حدثت له في العمل حالت دون ذلك، ثم تحدث عن علاقته المتينة بوالدي والتي تجاوزت العشرين عاما لم ير خلالها منه إلا كل خير وحسن جيرة، إلى آخر هذه الكلمات التي تقال في مثل هذه المناسبات.

أحضرَت سحر الشاي، شرب قليلا منه ثم استأذن في الانصراف، وبينما هو يسلم عليّ ويحتضنني بقوة وافتعال دق جرس الباب من جديد، الحاج جاد صاحب المخبز الموجود في مدخل الشارع،

سلّم عليّ ثم على الأستاذ كمال، دخل هو وغادر الأستاذ كمال، عزّى واعتذر وذكر محاسن المرحوم كما فعل الأستاذ كمال، ولم يكمل شايَه أيضا كالأستاذ كمال، وقبل أن يغادر كان غيره قد جاء لنفس الغرض، تركت باب الشقة مفتوحا واستمر الحال هكذا لساعات دفعة تخرج وأخرى تدخل، وعندما أشارت الساعة إلى العاشرة مساء توقفت الزيارات.

أغلقت الباب بسرعة وأطفأت النور الخارجي، أحضرت آية عَشَاء جهّزته قبل ساعتين ولم نجد فرصة لتناوله، كان الجوع يتمكن مني فعلا ولذلك أكلت بنهم للمرة الأولى منذ أيام، تحدثت مع أمي لبعض الوقت في ما يتعلق بإجراءات معاش أبي، وقمنا جميعا إلى النوم بعد يوم لم نعرف فيه الراحة، بدءا بالسفر الطويل وحتى ليلة العزاء الجديدة التي لم تكن في الحسبان، دخلت غرفتي التي كانت محل إقامتي الدائم وأنا أعزب، نمت على نفس الفراش الذي حكيت له في السابق عن أحلامي ومخاوفي وحكيت له قصتي مع سارة، اليوم أعود إليه وأشياء كثيرة تغيرت، أحلامي منها ما تحقق ومنها ما انقلب إلى كوابيس، مخاوفي حلت محلها مخاوف وهموم أعمق وأصعب، وسارة لم تعد سارة، كما لم أعد أنا أنا.

رغم تعبي الشديد استيقظت مع أول شعاع للشمس، أخذت حمامي وارتديت ملابسي ونزلت قاصدا المستشفى، فقد زادت أيام غيابي عما يجب، بعد وصلة تعزية جديدة من الزملاء صعدت غرفة الأطباء لتبديل ملابسي وبدء العمل، لكن رئيس القسم دخل خلفي وطلب مني المغادرة وأخبرني بأنه أعطاني إجازة ليومين إضافيين، حتى أسترد عافيتي وتتحسن حالتي

النفسية وأكون قادرا على العمل، شكرته دون مناقشة، فقد كنت أشعر فعلا بإرهاق بدني ونفسي شديدين لا يسمحان لي بممارسة عملي كما يجب.

في طريق العودة إلى المنزل تذكرت سرحان، رغبت بشدة في معرفة مصير هذا المسكين، كلّمت هيثم وعرفت منه أن العمدة اصطحبه في الصباح إلى المركز ومعه سلاح أبيض واتهمه بالشروع في قتله، لتبنيه أفكارا تكفيرية تدفعه إلى رفض الاعتراف به كممثل للسلطة، الغريب أن خمسة ممن حضروا الواقعة في المضيفة شهدوا في المحضر بصحة كلام مبروك وزعموا أنه في أثناء محاولة الاغتيال كان يهتف «الله أكبر»!

سألت هيثم عن السبب الذي لم يجعل أيا من أهل البلد، الذين حضروا الواقعة، يذهب إلى المركز لنفي كلام العمدة وغوث هذا البائس المحمل باتهامات تكفيه ليقضي بقية حياته في السجن، لكن عرفت منه أن مبروك رتب كل شيء مع المأمور، وأن أي شهادة مخالفة لروايته لن يتم إضافتها للمحضر، هذا بافتراض أن أحدا سيجرؤ على فعل ذلك أصلا، كما لم يتم إثبات إصابات سرحان التي تملأ وجهه وأنحاء جسده من جراء الاعتداء عليه من خفر ورجال العمدة لساعات، فلماذا إذن يخاطر هو أو غيره بكسب عداوة مبروك ما دام تصرفهم لن ينقذ سرحان؟

أنهيت المكالمة وقد زاد اكتئابي واسودت الدنيا في وجهي، ما هذا العالم الذي يملأه الظلم؟ وإلى متى يواصل الشر انتصاراته؟ ومتى يتحقق ولو لمرة ما نراه طوال الوقت في الأفلام وينتصر الخير في نهاية المطاف؟ شعرت بأنني أحد الشياطين الخرساء

الـتي رأت الواقعـة مـن أولهـا إلى آخرهـا ورغـم ذلـك تـترك بريئـا يُسـاق إلى المقصلـة بتهـم ملفقـة دون تحريـك سـاكن.

قـررت ألا تسـتمر هـذه المهزلـة، وأن يكـون لي دور في نـصرة حـق لا مـراء في كونـه حقًـا، وإذا كان أهـل القريـة يخشـون بطـش العمـدة وهـو بينهـم فأنـا أفضـل منهـم حـالا، ولا يملـك هـذا المعتـوه مـن أمـري شـيئا. ذهـابي لدفـن أبي ووجـودي غـير المرتـب في هـذه المضيفـة في هـذه اللحظـة، وكـوني الغريـب الوحيـد المحصـن مـن بطـش هـذا المسـتبد المجنـون، ربمـا يكـون كل ذلـك ترتيبـا سـماويا لـكي ينتـصر الحـق عـلى الباطـل في النهايـة، وأكـون أنـا الأداة. فرصـة لا يجـب إفلاتهـا.

-٢٣-

- تمام يا دكتور خالد. تقدر تتفضل.

قالها الضابط بعد أن سمع شهادتي وأكد أنه سيضمها إلى المحضر، فقلت:

- أيوه يعني إيه اللي هيحصل بعد كده؟

- اللي هيحصل بعد كده لا بتاعي ولا بتاعك يا دكتور، المحضر والمتهم هيروحوا النيابة وهي هتتصرف، قدامها ٥ شهود بيقولوا إنهم شافوا سرحان وهو بيحاول يقتل العمدة بسلاح أبيض وشاهد واحد بيقول ماحصلش، وبالمناسبة، شهادتك دي بتخالف شهادة سرحان نفسه، لأنه اعترف إنه حاول يقتل العمدة بسكينة.

حاولت استيعاب ما قاله الضابط، لكنني لم أستطع، ولذلك سألته مجددا:

- حضرتك بتقول إيه؟

- زي ما سمعت. سرحان اعترف على نفسه، يعني ممكن العمدة دلوقتي يتهمك بالبلاغ الكاذب ومحاولة تشويه سمعته.

- أكيد الاعتراف ده جه تحت التعذيب، أكيد عذّبتوه وأجبرتوه يعترف!

- لو سمحت يا دكتور. إنت شكلك راجل محترم ومتعلم فيا ريت ماتقولش كلام مستفز يجبرني أرد عليه بطريقة مش هتعجبك. عموما هو خلاص رايح النيابة، ويقدر يقول قدامها

إن اعترافه جه تحت التعذيب لو كان ده حصل فعلا. ويلا بقى بعد إذن حضرتك عشان عندي شغل كتير.

خرجت من مركز الشرطة لا أفهم شيئا، رن هاتفي فإذا به هيثم الذي جاء اتصاله في الوقت المناسب، فقد كنت أفكر فيه حالا ربما يملك معلومة أو تفسيرا لما يحدث، فتحت الخط فورا:

- أيوه يا هيثم ازيك؟

- إيه اللي انت نيلته ده يا ولد؟

لم يكن صوت خالد بل صوت عمي شحاتة:

- خير يا عمي عملت إيه؟

- إنت ازاي تروح المركز وتشهد على العمدة وكمان من غير ما تقول لي، هو انت مالكش كبير؟ مالك انت ومال اللي بيحصل في البلد، ما تسيب القرف لاصحابه وتخليك انت في شغلك وحياتك، هو انت عشان قعدت هنا يومين هتجيب لنا المصايب والمشكلات وتمشي؟

استغربت معرفته السريعة بما فعلته، فلم أصرّح لأحد ولا حتى لأمي بما أنوي فعله، بالتأكيد مصدر المعلومة شخص ما داخل المركز اتصل بعمي، أو بالعمدة الذي بدوره أخبر عمي، حاولت تهدئته بالتأكيد على أنني لم أفعل إلا ما رأيته صحيحا، وبأنني لم أكن أعلم أن هذا سيغضبه، لكنه ظل ثائرا لا يمنحني أي فرصة لإكمال جملة ويكيل لي الإهانات والاتهامات بعدم المسؤولية وعدم معرفة نتيجة ما صنعت، لم أجد مخرجا سوى أن طلبت منه تأجيل الحديث الآن وأخبرته بأنني لن أسافر

إلى القاهرة وسآتي إلى البلد حالا للقائه.

في الطريق اتصلت بهيثم لمعرفة ما جرى وصدق حدسي، مأمور المركز اتصل بالعمدة وأخبره بما فعلته، فاتصل مبروك بعمي على الفور وكال له التهديدات واتهمه بعدم السيطرة على أولاده، سألته إن كانت لديه معلومات بشأن ما قاله لي الضابط عن اعتراف سرحان بمحاولته قتل العمدة، فقال إن ما عرفه أن مبروك قبل أن يسلّم سرحان للمركز خيّره بين التصديق على روايته والاعتراف بها مع الاكتفاء بعقابه هو، أو لا يفعل وساعتها لن يترك أحدا من أهله حتى يشردهم جميعا ويطردهم خارج القرية، فاختار سرحان الحل الأول.

أغلقت الهاتف وقد اسودت الدنيا في عيني، وشعرت بعجز كالذي كنت أشعر به في كل مرة يموت فيها شاب أمامي في المستشفى الميداني دون أن يكون بيدي أي شيء، لا يختلف ما فعلته الآن في المركز عما كنت أفعله وأنا أعطي المحتضر حقنة مسكنة أو عقارا لإيقاف النزيف، كلها محاولة لتسكين ضميري أنا وليس لتسكين ألمهم هم، فلا حقنتي ستعيد محتضرا إلى الحياة، ولا شهادتي ستنتزع سرحان من بين مخالب وأنياب مبروك.

وصلت بيت عمي وأنا بالفعل خائف من لقائه، أصبحت أقدّر غضبه أكثر بعدما عرفت قدرات مبروك وعلاقاته المتشعبة التي تجعله قادرا فعلا على الإيذاء، كان هيثم يقف على الباب منتظرا قدومي، لم يصبر حتى أنتهي من ركن السيارة ونزل ليتحدث إليّ قبل الدخول لأبيه، وبمجرد أن أبطلتها فتح لي الباب، وقال:

- إيه يا خالد، طيب بلاش عمك، كنت كلمتني أنا قلت لي يا

أخي أحسن ما نعرف من الغريب كده!

- كنت فاكرك الوحيد هنا اللي ممكن تقدّر وتفهم اللي انا عملته. ده انا توقّعت اني ممكن أقابلك هناك بتشهد بالحق.

- حق مين يا ابو حق؟ إنت باين كده الثورة كلت دماغك. يا حبيبي الكلام ده مش في مصر. البلد دي كده وهتفضل كده ولو قامت فيها كل يوم ١٠٠ ثورة، هيفضل فيه ناس فوق وناس تحت، وهيفضل الناس اللي فوق يعملوا اللي هم عاوزينه في الناس اللي تحت، والناس اللي تحت مافيش قدامهم غير إنهم يستخبوا جنب الحيط علشان الناس اللي فوق مايشوفوهمش، واللي يبعد منهم شوية عن الحيط، يبقى هو اللي جنى على نفسه. دي قواعد اللعبة يا عم خالد، ولحد ما تغيرها مافيش قدامك اختيار تاني غير إنك تلتزم بيها.

- طيب ممكن نأجل المحاضرة دي شوية علشان فيه محاضرة تانية مستنياني جوة؟ ممكن؟

- آه يا خويا ممكن. اتفضل!

اصطحبني للداخل، حيث كان عمي يجلس على الأرض مستندا على وسادة سميكة وأمامه الشيشة ينفث دخانها بغيظ، ألقيت عليه السلام فلم يرد ولم ينظر إليّ حتى كأنني غير موجود، جلست بجواره وبحثت عن مدخل يمكن أن يذيب هذه الأجواء المتوترة:

- يعني انتو تربونا على الحق والحلال والحرام ولما نعمل باللي ربتونا عليه تزعلوا؟

أخذ نفَسًا جديدا من الشيشة احتفظ به داخله لثوان ثم

أخرجه ببطء، ووضع ليّ الشيشة بجانبه على الأرض ثم التفت إليّ، ورمقني بنظرة لم أحتملها فصرفت نظري إلى الدخان المتكاثر في سقف الغرفة، وبعد ثوان من الصمت قال بهدوء لم أكن أتوقعه:

- لما يبقى فيه قَطْر جاي على آخر سرعة وفيه واحد ماشي على القضيب مش شايفه وخلاص بين القطر والراجل ده ١٠ متر، تسيبه ولا تجري عليه وتحاول تنقذه؟

لم ينتظر إجابتي وواصل:

- لو سبته هيموت، ولو جريت عليه برضه هيموت، الحاجة الوحيدة اللي هتتغير إنك هتموت معاه. ساعتها اللي انت عملته ده ماينفعش يتسمى شجاعة ولا رجولة، ده اسمه عَبَط، اسمه رمْي في التهلكة، وده بالظبط اللي انت عملته.

- بس أنا مارمتش نفسي في تهلكة!

- ما هو ألعن، إنت رميت غيرك، رميتنا احنا، عملت اللي عملته وهتسافر بعدها تشوف شغلك وتعيش حياتك ٢٤ قيراط، وتسيبنا احنا في وش المدفع، في وش واحد مجنون، واللي عملته ده هيزوّد جنانه.

لم أجد كلمات كثيرة أقولها لأن في كلامه منطق متماسك لا يمكن إنكار وجاهته، ولذلك اتجهت لطرح الأسئلة:

- طيب والحل يا عمي؟ نسيب الباطل يكبر والناس تكفر بالحق؟ ولا نحاول ونعمل اللي نقدر عليه؟

أخذ ينبش في إناء فخاري مملوء بالرماد، ويخرج قطع فحم مشتعلة يضعها على حجر المعسل، وقال:

- إياك تكون فاكر اني مبسوط باللي بيحصل، بس احنا خلاص خدنا على كده، حاولنا كتير مع مبروك واللي قبله واللي قبله، وفي كل مرة كانوا بيزيدوا افترا أكتر لحد ما بطلنا نحاول. أنا راجل خلاص في أواخر أيامي مش عاوز حاجة من الدنيا، وكل اللي عاوزه إني أعيش اليومين اللي فاضلين لي محترم من غير ما حد يدوس لي على طرف. انت وأخوك هيثم المستقبل لسة قدامكم طويل، مش عاجبك الوضع تعالى أقعد هنا وحاول تغيره، يا إما بقى تخليك في مصر وتنسانا، ولو مش هنشوف من وراك خير فأقل ما فيها ماتجيبلناش الأذى.

نظرت إلى هيثم فبدا عليه الاقتناع بكلام والده، اعتذرت لعمي عن أي حرج سببته له واستأذنته في الانصراف حتى أصل القاهرة قبل المساء، خصوصا أن أحدا لا يعرف بأمر سفري إلى كفر الشيخ، رفض السماح لي بالانصراف قبل تناول الغداء، لم أجادل لأني أعرف أن الجدل مع عمي شحاتة ليس إلا مضيعة للوقت والجهد، وأنه سينفذ في النهاية ما يريد، تناولنا غداءنا وشربنا الشاي ثم سلمت على الجميع وهممت بالانصراف بعدما طلبت منهم عدم إخبار أمي بأي شيء مما حدث.

-٢٤-

مضت أيام كثيرة وما زال كلام عمي يتردد في أذني، وما زالت صورة سرحان ماثلة أمامي، وما زال طيف مبروك يمر أمامي بين الحين والآخر يخرج لسانه، لم يعد العمل قادرا على أن ينسيني همومي كما كان في السابق بل هو أيضا تعرضت فيه لبعض المشكلات، همومي التي زادت بأعباء زيارتي شبه اليومية لأمي، وفتور علاقتي بسارة لدرجة لا تُحتمل، والفراغ الكبير الذي خلّفه أبي، تشابكت همومي الخاصة مع العامة فتعقدت حياتي.

فكرت في إحضار أمي وآية لتعيشا في شقتي بعض الوقت لحين ترتيب أموري بحيث أخفف عن كاهلي مسؤولية زيارتهما المنتظمة، لم أكن واثقا في موافقة أمي على هذا الاقتراح لكنني استطلعت رأي سارة أولا قبل أن أفاتح أمي بأي شيء.

- لأ طبعا!

هكذا جاء ردها مفاجئًا وصادمًا وقاطعًا، فسألتها مستنكرا:

- لأ طبعا؟ يعني إيه لأ طبعا؟

- متهيألي لأ طبعا مالهاش معنى تاني.

- ولأ ليه بقى ان شاء الله؟

- علشان مش باحب حد يقيّد حريتي في بيتي.

- بس دي مش حد، دي أمي!

- بس مش أمي.

- هـو انـتي ليـه بقيـتي فجـة كـده؟ ليـه بقيـتي بتشـوفي إيـه أكـتر رد ممكـن يزعلـني وتقوليـه؟

- إيه ده انت خدت بالك؟ أخيرًا!

- خدت بالي من إيه؟

- إني مابقتش حابة نكمل مع بعض.

- لا أنا واخد بالي من زمان بس كنت باحاول أعرف إيه السبب؟

- عـاوز تعـرف السـبب؟ أقـول لـك أنـا، وهـو مـش سـبب واحـد الحقيقـة.

يمكـن حسـيت إننـا اتسرعنـا في الارتبـاط، ماخدنـاش فرصـة نعـرف بعـض كويـس ونفهـم إننـا مختلفـين في حاجـات كتـير وكل واحـد فينا ليـه اهتمامـات غـير التـاني خالـص، لا ثقافتنـا واحـدة، ولا تفكيرنـا واحـد، ولا مسـتوانا الاجتماعـي قريـب مـن بعـض، والموضـوع مالـوش دعـوة عـلى فكـرة بالغـنى والفقـر والحاجـات الـلي بتزعلـك دي، الموضـوع لـه علاقـة بالدمـاغ الـلي أنـا حاولـت كتـير أغيرهالـك وأطورهالـك بـس انـت يـا عيـني كنـت مخلـص قـوي للطبقـة الـلي انـت جـاي منهـا ومـش عـاوز تتحـرك مـن جنبهـا، إنـت واحـد بتـاع ثـورة ثـورة حـتى النـصر، وأنـا واحـدة أبوهـا مـن النـاس الـلي بتقولـوا عليهـم فلـول وكنتـوا عاوزينهـم يسـتخبوا في بيوتهـم زي الفـيران أو يقضـوا بقيـة حياتهـم في السـجن.

ده انـا يمكـن اسـتغنيت طـول الوقـت ده في حقـي إني أبقـى أم علشـان حاسـة إن العلاقـة ممكـن توصـل لنهايتهـا في أي وقـت، فلمـا ده يحصـل واحنـا مافيـش حاجـة بتربطنـا ببعـض هيكـون أحسـن ليك وليا.

صحيح عشت معاك لحظات حلوة، وصحيح كمان أنا اللي سعيت للعلاقة في البداية، وممكن مايكونش العيب فيك ويكون فيا أنا، بس في النهاية النتيجة واحدة. إننا صعب نكمل حياتنا مع بعض.

انتظرت حتى انتهت من كلامها، ثم سألتها:

- إنتي عايزة تتطلقي يا سارة؟

أجابت:

- أيوه.

فقلت:

- إنتي طالق.

نطقتها دون أن أشعر بلحظة تردد قبلها أو لحظة ندم بعدها، خرجت من الباب ركبت سيارتي إلى شقة أمي، سلمت عليها وأخبرتها بأنني جئت لأبيت معها الليلة بعد أن وصّلت زوجتي لبيت أبيها، لم أُرد أن تنهي يومها بخبر سيئ، أخبرتها في الصباح، غضبت بشدة، شتمتني، عرضت أن تذهب إلى سارة لتوفّق بيننا وتعيد المياه لمجاريها، رفضت وأخبرتها بأنها صفحة في حياتي وطويتها وانتهى الأمر، حاولت أن تكلم سارة بعيدا عني، لم ترد عليها، خاصمتني، رغم ملاحظاتها الكثيرة عليها، ولومها الدائم لي على اختيار زوجة «مش من توبنا»، قارب حزنها على طلاقي حزنها على وفاة أبي.

شعرت براحة نفسية كبيرة بعد الطلاق، سعدت كثيرا بإغلاق ملف كان معلقا بلا داع، وسعدت أكثر بانتهاء الأمر كـ«شكة دبوس» دون أن يسبب لي ألما يذكر، فشهوري الأخيرة معها لم

تترك لها في قلبي شيئا يجعلني أحزن على فراقها.

تراجع غضب أمي بالتدريج، ذكّرت نفسها بمواقف سارة السيئة الكثيرة معها، حتى قالت لي في يوم:

- عارف يا خالد؟ أحسن حاجة عملتها إنك طلقت البت دي، والله يا ابني ما كانت بتنزل لي من زور، كنت بقربع وراها شفشق ميّه بحاله عشان أبلعها، يلا بقى الله يسهل لها مطرح ما راحت، بس المرة دي بقى أنا اللي هاجوّزك بدل ما تروح تبلينا بمصيبة تانية.

أخبرتها بأنني لا أفكر في الزواج أصلا حاليا، ورغم رغبتها الشديدة في تزويجي بـ«ست ستها»، حتى ترى حفيدها قبل أن تلحق بأبي، فإنها لم تضغط عليّ حتى أتعافى من أثر زيجتي الفاشلة. في هذا الوقت كان تفكيري منصبا على أمر آخر تماما، بدأت أفكر بجدية في عرض عمي، أن أترك هذه العاصمة الخانقة التي أسترجع عشرات الذكريات الحزينة كلما مررت بأحد ميادينها وأبدأ حياة جديدة في القرية، فترة أغسل فيها روحي من رواسب السنوات الأخيرة، وأجدد نشاطي وطاقتي بمعركة جديدة على مستوى أصغر وأكثر محلية مع عمدتها المستبد وأهلها الصامتين.

لكن الأمر يتطلب دراسة جيدة لأن حياتي لا تحتمل إخفاقا جديدا، خصوصا أنني قد بدأت في صنع اسم لنفسي ووجدت موضع قدم في سوق الطب المزدحمة، خطوة من هذا النوع ستجعلني أبدأ من جديد في مكان مختلف، وأتعامل مع ثقافة مختلفة ثبت من قبل أنني لا أعرف شيئا عنها، وفوق كل ذلك سأبدأ بعداوة مسبقة مع مبروك الذي لن ينسى ذهابي إلى مركز

الشرطـة وشـهادتي ضـده، بخـلاف أمـي الـتي لا بـد أن توافـق عـلى الانتقـال معـي إلى القريـة وتـرك بيتهـا الـذي أعـرف جيـدا مـا يعنيـه لهـا.

الصعوبات كثيرة.. لكن الدوافع أكثر.

-٢٥-

اتهمتني أمي بالجنون حين أخبرتها بقراري. اعتقدت أن القرار نابع من صدمتي بعد الطلاق، لذلك عرضت عليّ الرجوع إلى سارة إن كان الأمر يؤثر في حالتي النفسية لهذه الدرجة ويدفعني لاتخاذ قرارات تضر مستقبلي، نفس الأمر بالنسبة لشقيقاتي، أميرة وسحر أصيبتا بصدمة كبيرة لمجرد التفكير في أنهما ستبقيان في القاهرة وحدهما دون والدين أو أخ، وآية لم تكن مستعدة لترك خطيبها الذي يسكن في نفس الشارع لتبتعد عنه عشرات الكيلومترات، خصوصا أنهما يضعان الرتوش الأخيرة على شقتهما وأثاثهما استعدادا للزواج بعد شهور قليلة.

استخدمت أساليب كثيرة لم تفلح في إقناع أمي، وعندها نزلت بالكارت الأخير الذي كنت أعلم مسبقا أنه سيحسم كل شيء:

- يعني مش عاوزة تسيبي الشقة عشان عشتي فيها مع أبويا عمرك كله، ومش عاوزة تروحي تعيشي جنب قبره وتزوريه وقت ما تحبي انشاالله كل يوم؟

وافقت أمي في نهاية المطاف، ووافقت شقيقاتي، أو بالأحرى قلت ممانعتهن بعدما وعدتهن بأننا سنكون طوال الوقت «بين هنا وهناك»، وسنأتي إلى القاهرة مرة كل أسبوع ونتجمع في شقة والدنا، وبعد أن أمّنت جبهتي الداخلية اتصلت بعمي أبلغته بقراري وطلبت منه أن يشتري لنا منزلا مناسبا في القرية لأقيم فيه مع أمي، ويصلح في الوقت نفسه لفتح عيادة في جزء منه،

وطلبت منه أن يكتبه باسمه لأن مبروك قد يعرقل البيع إذا علم أنني المشتري وأنني قررت الإقامة في القرية.

وافق عمي مُرحبا ووعدني بإتمام الأمر في أسرع وقت، أما هيثم فعلق على كلامي بكلمة واحدة:

- مجنون!

بدأت إجراءات نقلي إلى مستشفى كفر الشيخ المركزي، استغرق زملائي ورؤسائي وقتا طويلا ليصدقوا أنني جاد في طلبي وأن الموضوع ليس مزحة، رئيس القسم كان أكثرهم حزنا، يرى أنني طبيب واعد ولي مستقبل كبير، وبدأت بالفعل أضع قدمي على أول الطريق، والانتقال للأرياف سيقلل كثيرا من فرصي ولن يسمح لي بإظهار كفاءتي، لكنه أمام حسمي وإصراري لم يكن أمامه إلا توقيع الطلب.

في المساء كانت أمي تجهّز بعض الحقائب استعدادًا للرحيل، طلبت مني أن أجلس بجوارها لأنها تحتاجني في أمر هام، نظرت إليّ نظرة أعرفها جيدًا، تنظرها لي دوما حينما تريد سؤالي عن شيء ما وتريدني أن أرد بالحقيقة، قالت:

- دلوقتي أنا سمعت كلامك وهديت عشّي وهاجي أعيش معاك في كفر الشيخ، بس اوعى تفتكر إني عملت كده بس علشان أبقى جنب قبر أبوك بس، أنا عملت كده لأني حسيت إنك واخد قرار وهتنفذه، وكده كده هتروح تعيش هناك سواء جيت معاك أو لأ، علشان كده قلت يبقى بمزاجي أحسن ما يبقى غصب عني، وإن جالك الغصب اعمله بجميلة، فأقل ما فيها أبقى عارفة انت بتعمل كده ليه.

وقبل أن أبدأ حديثي أكملت:

- بس استنى قبل ما تتكلم. أنا عاوزة اسمع الكلام اللي بجد مش الكلام اللي انت فاكر إنك هتضحك عليا بيه.

نظرت في السقف للحظات وأطلقت تنهيدة سريعة ثم قلت:

- بصي يا ماما. صدقيني أنا نفسي ماعنديش تبرير ولا تفسير مباشر أقدر أقوله وانا متأكد إن هو ده فعلا اللي خلاني أفكر في الخطوة دي، بس يمكن فيه شوية أفكار على شويتين إحباطات وحالة نفسية مش مظبوطة مخليني فعلا محتاج أغير مكان وأغير وشوش. الفترة اللي فاتت كانت صعبة قوي عليا، من أول الدم اللي لسه على إيدي وإحساسي دايما بالتقصير في حق كل واحد ماقدرتش أساعده، وأبويا اللي غلط لما ماخلاش ليا أي صاحب غيره وفجأة سابني وساب وراه فراغ ماحدش قادر يملاه، ولحد طلاقي من سارة وسؤالي لنفسي دايما: ليه ماعرفتش أختار؟

كل ده خلاني حابب أبعد شوية عن القاهرة اللي بقت كل حتة فيها بتفكرني بذكرى وحشة بتاكل من روحي حتة، ولما رحت البلد حسيت إنها ممكن تكون المكان اللي يعديني من المرحلة دي، حياة بسيطة وهادية في وسط أهلي وناس من دمي متأكد إنهم بيحبوني حتى لو علاقتنا بيهم سطحية بسبب بعدنا عنهم سنين طويلة. بابا قال لي في مرة: «أول ما تحس بحزن أو خوف شوف أكتر حد بيحبك ارمي نفسك في حضنه واتحامى فيه، لو ماقدرش يحميك فعلى الأقل مش هيطعنك في ضهرك»، أنا دلوقتي بانفذ وصيته. هاقعد وسط عيلتي وهشوف من هناك الصورة أوضح وأراجع كل حساباتي، وبعدها هاشوف الخطوة اللي بعد كده ممكن تكون إيه.

ربتت أمي على كتفي وقاومت دموعها لتواسيني وأكدت لي أنها ستبقى بجانبي حتى تمر هذه المرحلة وأنها واثقة في مرورها سريعا. عادت لما كانت تفعله، وقمت لأرتاح قليلا في غرفتي بعدما قضيت اليوم متنقلا بين المصالح الحكومية لإنهاء بعض الأوراق. سعدت كثيرًا لأن أمي اكتفت بما قلته لها ولم تشعر بأنني أخفي عليها سببا آخر اسمه العمدة مبروك، لأنها لو علمته ما كانت لتسمح لي بمجاورة الخطر أيا كانت أسبابي الأخرى. الأكيد أنها ستعرف مع الوقت لكن الأمر سيختلف كثيرا إذا علمته ونحن هناك وبعدما تُصبح إقامتنا هناك أمرا واقعا.

في الصباح كان عمي يزف لي خبر العثور على منزل مناسب جدا على شارع رئيسي ويتكون من طابقين يمكنني فتح عيادة في الطابق الأول والإقامة في الثاني، طلب مني أن أنزل لأتفقده وأرى إن كان سيعجبني أم لا، لكنني رفضت وطلبت منه أن يُنهي إجراءات الشراء سريعا ما دام أعجبه، ثم طلبت رقم حسابه في البنك لأرسل إليه المال اللازم خلال ساعات، لكنه رفض وقال إنه سيدفع الثمن من ماله الخاص على أن أحوّل له المال في أي وقت أو أحضره معي عند القدوم إلى القرية، وقال إنه بمجرد نقل ملكية البيت إليه سيسجله باسمي في الشهر العقاري. لم تكن تعنيني هذه الأمور الشكلية، لكنه أصرّ من منطلق أن «ماحدش ضامن الموت من الحياة»

«عاوزة أقابلك ضروري. قابلني الساعة ٤ في الكافيه اللي اتقابلنا فيه أول مرة في الزمالك»

فاجأتني سارة بهذه الرسالة الغامضة، لم أرها منذ تقابلنا عند المأذون لإتمام إجراءات الطلاق، كانت ملامحها جامدة

لـم تجعلـني أحـدد إن كانـت سـعيدة أم حزينـة، لكـن أمـارات السـعادة عـلى وجـه والدهـا كان يمكـن تمييزهـا بسـهولة، أخـبرني أنـه لا يريـد مـني أي شيء، لا مؤخـر ولا شـقة ولا منقـولات، وبـأن كل شيء نصيـب و«ماحـدش عـارف الخـير فـين»، وتمـنى لي التوفيـق في خطـواتي القادمـة.

لـم أكـن راغبًـا في رؤيتهـا مجـددا، لـم أكـن راغبًـا في مقابلـة أي أحـد أو أي شيء يذكـرني بـأي مـاضٍ أيـا كان، لكنـني أيضـا كنـت أريـد أن أعـرف سـبب طلـب المقابلـة ولـو مـن بـاب الفضـول. في الموعـد كنـت أمـام الكافيـه، وجدتهـا جالسـة عـلى المنضـدة نفسـها الـتي تقابلنـا عليهـا أول مـرة، سـلمت عليهـا وجلسـت، المنضـدة نفسـها والمـكان ذاتـه لكـن المشـاعر لـم تكـن نفسـها.

- خير؟

سألتها بابتسامة صفراء، فأجابت سريعا:

- عرفـت مـن معـتز انـك بتنقـل شـغلك لكفـر الشـيخ وانـك نـاوي تعيـش هنـاك.

- وده يهمك في إيه؟

- يهمني أعرف إن مش أنا السبب في القرار ده.

- أكيد مش انتي السبب.

- أومال إيه السبب؟

- إنـتي قلـتي إن الـلي يهمـك تعرفيـه إنـك مـش انـتي السـبب، وأنـا قلـت لـك إنـك مالكيـش علاقـة، البـاقي بقـى أكيـد مـش مهـم تعرفيه.

- بس مش قادرة أصدقك!

أطلقتُ ضحكة مفتعلة لفتت نظر الجالسين حولنا، وقلت:

- إوعي تكوني فاكرة إني يا عيني مصدوم ومش بنام الليل من التفكير فيكي وقررت أسيب القاهرة كلها علشان مافتكرش ذكرياتنا مع بعض. ثواني كده، هي إيه ذكرياتنا مع بعض أساسا؟ شوية خناقات على قلة تقدير على مقابلات كده بالصدفة من وقت للتاني؟ ده أنا ذكرياتي مع بواب عمارتنا أكتر من ذكرياتي معاكي.

إنتي عملتي في الفترة الأخيرة حاجات تشيل كل حاجة ليكي جوايا، والأسوأ مش إنك عملتي كده، لكن إنك عملتيه وانتي قاصدة تعمليه علشان أكرهك وأكره العيشة معاكي، مبروك يا ستي، اللي انتي خططتي له حصل، ومافاضلش ليكي حاجة خالص جوايا.

صدقيني يا سارة، أنا لو ندمت على حاجة تخص علاقتنا هاكون ندمان إننا اتجوزنا، مش إننا اتطلقنا.

- ياه. للدرجة دي بقيت بتكرهني؟

- لا خالص. أنا مش باكرهك. عارفة ليه؟ لأن حتى اللي بيكره حد بيبقى حاسس بوجوده، لكن أنا بقيت مش شايفك أصلا.

قلتها ووضعت مئتي جنيه تحت كوب الماء وأشرت للنادل، ليأخذ الحساب، ثم اختلست نظرة إليها فوجدتها تمسح دمعة هربت من عينها، كانت المرة الأولى التي أرى فيها دموعها. شعرت بانتصار لا أعرف مبعثه، لكنه كان شعورا لذيذا.

-٢٦-

أصبح الجلوس بجوار جابر طقسًا يوميًا يحرص عليه يوسف، لساعات طويلة يحدثه عن ذكرياته وحكاياته وحياته، رغم أن الخفير لم يكن يبدي اهتماما يذكر بهذه الحكايات، وأحيانا يقوم في منتصف حكاية ما ليدخل الحمام أو يحضر كوبا من الشاي ويعود، ويوسف يواصل الحكي دون أن يشعر بقيامه ولا بعودته، لأنه غالبا لم يكن يحكي له أصلا، بل يندب حاله ويشكو حظه للسماء والزرع والهواء والمقعد.

زاره الأستاذ فهمي وأخبره بأن جلوسه بجوار الخفير ليس مناسبا لوضعه الجديد، وأن هذا جعل أهل البلد يتندرون عليه وجعل العاملين في السراي لا يظهرون له الاحترام الكافي، لم يكن مهتما بكل ذلك لأن بديل الجلوس بجوار جابر هو البقاء في غرفته منتظرا النوم أو الموت، عاتبه فهمي لأنه لا يساعده ليبني له صورة تناسب الثروة التي أصبحت بين يديه، فقال له يوسف:

- يعني أنا لو بطلت أقعد جنب جابر الناس هتنسى إني خدّام مراد بيه؟

- أيوه يا عم يوسف هينسوا، والله هينسوا، الفلوس ممكن تنسيهم أهاليهم ذات نفسهم، واللي مش هينسى منهم هيعمل نفسه ناسي علشان شغال في أرضك وبياكل من خيرك أو طمعان في شوية منه، واللي هيبقى فاكر بعد كل ده مش هيفرق معاك في حاجة ولا هيغير حاجة في كونك تقدر تشتريه هو وأهله.

- بس انا مش عاوز ده كله وعاوز مراد بيه.

- مراد بيه مات خلاص، اللي بتعمله في نفسك ده مش هيرجّعه، وكمان هينغص عليك عيشتك من غير داعي، جرب تعيش يا عم يوسف في الحاضر وتفكر في المستقبل، وسيبك من الماضي ده بقى واللي كان فيه.

- هو انت فاكر يا أستاذ إن انا مش نفسي في كده أكتر منك؟ بس مهما حكيت لك مش هتفهمني، قل لي صحيح انت عندك كام سنة؟

- ٤٣ سنة.

- طيب لو حد جه قال لك دلوقتي تعالى هشغلك خدام عندي وهديك ألف جنيه في الشهر. هترضى؟

- لأ طبعا. ولا بفلوس الدنيا كلها.

- علشان من وانت صغير ماعرفتش غير إنك تكون حر، فصعب بعد كل السنين دي تتعلم تكون عبد، أنا برضه زيك بالضبط، اتولدت لقيت أبويا خدام وانا زيه، أول كلمتين اتعلمتهم، ماكانوش بابا وماما زي ولاد الذوات، كانوا نعم وحاضر، عشت أكتر من ٥٠ سنة بخدم في راجل واحد، وفي يوم وليلة الراجل ده مابقاش موجود وأنا قالولي خلاص يا يوسف مش هتبقى خدام تاني وهتبقى بيه، فالنتيجة إني بقيت زيك بالضبط، إنت بتقول إنك ماينفعش تبقى خدام ولو بفلوس الدنيا كلها، وأنا باقول أنا مانفعش بيه ولو بقى معايا فلوس الدنيا كلها.

شعر فهمي بهزيمة منطقه أمام منطق يوسف الأكثر بساطة ومباشرة، لكنه لم يُظهر هذا الفشل وكرر نفس الكلام الذي

يطالبه بتجاوز هذه الفترة والأيام كفيلة بجعل المستحيل ممكنًا، وانصرف بعدما طلب منه مجددًا عدم الجلوس بجانب الخفير والاستعاضة عن ذلك بالخروج إلى الدنيا ومخالطة الناس وتفقد أرضه، لكنه لم يحصل منه على أي وعد ولو بالمحاولة.

صعد قاصدا غرفته، ولكن هانم نادته وهو في منتصف السلم ليتناول الطعام، دخل المطبخ فجلس وأكل مع بقية العاملين في السراي، وفي أثناء احتسائه الشاي فاجأهم جميعا بسؤال:

- إلا قولوا لي صحيح. إنتو بتحبوني ولا لأ؟

فاجأهم السؤال فنظروا إلى بعضهم البعض يحاولون استيعاب مغزى السؤال ويبحثون في أعين زملائهم عن إجابة ممكنة، وبعدما طال صمتهم أعاد السؤال مرة أخرى:

- هو انتو مش سامعين ولا إيه؟ باقول لكم بتحبوني ولا لأ؟

فرد إبراهيم متوجسًا:

- إيه السؤال ده يا عم يوسف؟

شجع رد إبراهيم الباقين على التحدث، فأضافت سعدية:

- وإيه اللي هيخلينا نكرهك يعني؟

وقالت هانم:

- هو انت عملت فينا حاجة وحشة لا سمح الله؟

فتأفف يوسف من الردود وارتفع صوته قائلا:

- هو انتو كلكم هتردوا على السؤال بسؤال؟ طيب هاسألكم سؤال تاني ما دام مش عاوزين تردوا على السؤال ده: كنتم بتحبوني أكتر وأنا باشتغل معاكم ولا لما بقيت صاحب السرايا؟

أعادوا النظر لبعضهم وقص إبراهيم شريط الإجابة كالعادة:

- إحنا ماشوفناش منك حاجة وحشة، لا وانت فقير زينا وشغال معانا ولا لما بقيت صاحب السرايا، والدليل إنك قاعد أهو وسطنا وبتاكل معانا.

تجول ببصره في وجوه باقي الجالسين فلم يجد لدى أيهم رغبة في الكلام، فقام من المكان قبل أن يفرغ من كوب الشاي، وصعد وهو متأكد مما كان متأكدا منه قبل أن يطرح سؤاله، حتى أولئك الذين حوّلهم من مجرد خدم في السراي إلى ما يشبه أصحابها، يأكلون أطيب طعامها ويجلسون على أثاثها دون حساب، ولا يتحكم فيهم أحد أو يهينهم ويسيء إليهم كما كان يحدث في السابق، لم يشعروا تجاهه بمشاعر حب، وتهربوا من التصريح بها ولم يقولوها ولو كذبا من باب المجاملة، فما بالك بالغرباء؟

أثبت لنفسه أن رأيه هو الصحيح لا رأي فهمي، لن يحبه أحد في هذا العالم، ربما كثيرون لا يكرهونه لكنهم أيضا لا يحبونه، هو يقول إن حب الناس لا يهم أصلا ما دام معك المال، لكن هذه العبارة تصلح لرجل يمتلك أسرة وأصدقاء، أو تصلح له نفسه حين كان بجانب مراد بك الذي كان يحبه فعلا، أما أن تعيش في عالم لا تحب فيه أحدا ولا يحبك فيه أحد، فهذا لا يبعث على السعادة حتى لو كان تحتك خزائن قارون.

بقدر ما أحب مراد وما زال، هو غاضب منه لأنه لم يمنحه فرصة ليخرج من قمقمه ويرى العالم ربما أحب أحدا أو أحبه أحد، ولولا ثقته في أنه كان يحاول إسعاده فعلا حين كتب له نصف ثروته لظن أنه فعل ذلك ليضمن أنه سيعيش ما تبقى

مـن عمـره معذبـا بأمـوال لا يسـتطيع أن يسـتمتع بهـا، ولا أن يعـود كمـا كان قبلهـا، ليسـلي هـو وحدتـه في العالـم الآخـر برؤيـة العروسـة الخشـب الـتي صنعهـا وهـي تتحـرك وفـق إرادتـه.

-٢٧-

جلس يوسف بجوار جابر كالعادة يحدثه في أي شيء وكل شيء بينما الأخير كالعادة أيضا يكتفي بسماع دون تركيز ودون رد أو مشاركة في الحوار، طلب يوسف من خفيره إعداد كوب من الشاي يتناولانه لتسلية وقتهما، لكنه قال إنه شرب كوبين قبل وقت قصير ولا يرغب في المزيد الآن. قام بنفسه فجمع بعض الأخشاب والأحطاب الجافة، وضعها في إناء فخاري قديم يستخدمه جابر، أشعل النار في الأخشاب والأحطاب حتى ارتفعت ألسنة اللهب.

جاء فهمي ووجده على هذه الحال، يجلس القرفصاء أمام النار المشتعلة في انتظار أن تخمد ليضع البراد على كريات اللهب، بينما الخفير يجلس على المقعد يضع قدما على الأخرى، بحيث إنك لو لا تعرفهما تظن أن جابر هو السيد، ويوسف خادمه، طالع المشهد بغيظ مضاعف ودخل السراي دون أن يتحدث فلحق به يوسف، وقبل أن يتكلم المحامي قال هو:

- كنت مصدّع قوي فقلت أعمل كوباية شاي.

- وماقلتش لحد من الشغالين ليه يعملها لك بس يا عم يوسف؟ وبعدين مش احنا لسه متكلمين في موضوع قعادك جنب الغفير ده وقلنا بلاش منه.

نظر يوسف في الأرض بانكسار دون أن يرد، فواصل المحامي:

- يلا مالوش لازمة الكلام دلوقتي. أنا عاوزك تيجي معايا علشان الفلاحين اللي شغالين في العزبة كلهم عاوزين يسلموا عليك.

استمر يوسف على صمته، إذ إنه رغم عدم ارتياحه لهذه الخطوة لا يستطيع رفض طلب فهمي مجددا، فأضاف الأخير:

- إنت مش زهقان ونفسك تشم هوا؟ أكيد القعدة هناك أحسن من القعدة جنب الغفير.

قال يوسف:

- ماشي يا أستاذ فهمي. هاجي عشان خاطرك انت بس.

ثم هم بالتحرك ناحية باب السراي، قبل أن يوقفه فهمي:

- استنى يا عم يوسف. إنت هتروح للفلاحين بالجلابية دي؟

نظر إليها ثم قال:

- إيه مالها؟

- يا عم يوسف أنا بقالي أسبوع ماشفتش عليك جلابية غيرها، أومال كل الجلابيات اللي عملناها لك دي لازمتها إيه؟ المفروض ماتلبسش جلابية واحدة يومين. اطلع البس جلابية جديدة وحط فوقها عباية حلوة وأنا مستنيك هنا.

وافق مُكرها وصعد إلى الغرفة، وبعد دقائق نزل يرتدي ثيابا فخمة لو رآه بها أحد أول مرة لاعتقد أنه ثري منعّم لم ير الفقر يوما، أبدى فهمي إعجابه بهيئته، وأكد أنها الهيئة التي يريد أن يراه عليها دوما، ووعده بأنه لو فعل ذلك لأسابيع قليلة سينسى الناس ماضيه وسيتعاملون معه فقط على أنه «يوسف بيه»، أراد أن يخبر محاميه بأن هذا ليس هدفا يسعى

إليه أصلا، لكنه تراجع لعدم رغبته في خوض نقاش جديد.

وصلا إلى العزبة في غضون دقائق، وقف يتأملها واكتشف أنه يزورها للمرة الأولى رغم وقوعها على مقربة من السراي، مساحة هائلة من اللون الأخضر لا ترى الأعين آخرها، تزيدها سنابل القمح الخضراء رونقا وبهجة، وتحلق فوقها الطيور بدأب كأنها دوريات حراسة، بمجرد أن رآه الفلاحون واقفا مع المحامي جاءوا أفواجا وألقوا السلام، وعندما وصلوا جميعا علقوا أبصارهم به في ترقب وفضول بينما صرف بصره هو متأملا في السماء.

أنهى فهمي فترة الصمت بالقول:

- يوسف بيه طلب مني أصرف لكل واحد منكم ١٠ جنيه مكافأة علشان تعبكم الفترة اللي فاتت، وطول ما انتم شايفين شغلكم هيراعيكم ومش هيخليكم محتاجين أي حاجة. يلا بقى، سلموا عليه واشكروه.

تعالت صيحات المزارعين بالشكر والتهليل والدعاء بطول العمر، وقفوا في طابور ليسلموا عليه ويشكروه، سلّم عليه الأول وقبّل يده رغم رفض يوسف وسحْبها سريعا، وجاء الثاني فالثالث فالرابع سلّموا وقبّلوا يده، فشلت محاولاته في إثنائهم عن ذلك فكف عن المحاولات، وترك لمن تلوهم يده ليفعلوا بها ما شاءوا. كان فهمي يتابع المشهد منتشيًا بعدما أثبت له وجهة نظره، فهاهم نسوا أصله وتاريخه وخلفياته وكل شيء وانكبوا على يده يقبلونها رُغما عنه مع أول عشرة جنيهات، فكيف ستكون الحال إذا أغدق عليهم أموالاً أكثر؟

نعم. بوسع هذه الأوراق السحرية الملونة أن تفعل أي شيء، أن تصبح ممحاة تمسح بها صفحات كاملة في كتاب تاريخك،

وقلمًا تكتب به ما شئت فيه، أنك سليل عائلة تركية عريقة، تاجر قادم من الشام، رحالة اكتشفت جزرا وقارات، مناضل قديم ضد الاستعمار، اكتب ما شئت وسيصدقك الجميع ما دمت تمتلك المال، ومن لا يصدقك لن يجرؤ على تكذيبك، قد يستغرق الأمر بعض الوقت، قد تجد في البداية بعض جيوب المقاومة والرفض، لكنه سيحدث لا محالة، فأنت في بلد يعتبر أهله النسيان نعمة، هربا من دفع ضريبة المعرفة.

يعتقد فهمي أن المزارعين لم يفعلوا ذلك لكونهم فقراء وفي حاجة للمال، لكن لأن كل الناس عندهم استعداد فطري للعبودية، زعمهم أن السلطة والثروة والقوة هي من تدفعهم لطاعة من يملكها ليست إلا حججا يبررون بها بحثهم الفطري عن أسياد، ويؤمن بأن الفارق بين يوسف والجميع أن الأول متصالح مع كونه عبدًا بحكم أنه وُلد على ذلك ويمارس العبودية بشكلها التقليدي دون مراوغة، بينما يمارسها الآخرون بأسماء مختلفة، بعضهم يسميها الاحترام، بعضهم يسميها أكل العيش، بعضهم يسميها الصبر على البلاء وبعضهم يسميها طاعة ولي الأمر.

ربما هذا هو الدافع الذي جعله يهمل كثيرًا من أعماله ويقضي أوقات كثيرة بجوار يوسف، فرغم أنه نظريا مجرد واحد من موكليه إلا أنه على أرض الواقع حالة لا تتكرر كل يوم، تصلح لتكون درسا حياتيا بكل تفاصيلها وتحولاتها، بدءا من الثري الذي اتخذ قرار جنونيا بتسليم خادمه نصف ثروته، مرورا بالطريقة التي سيتعامل بها الخادم مع وضعه الجديد، وهل بإمكانه أن يخلع شخصية العبد ويرتدي مع ملابسه الثمينة شخصية البك؟

وأخيرا كيف سيتعامل الناس مع من هو أحقر منهم منزلة ومقاما حين يمتلك المال وتصبح سلطة المنح والمنع في يديه؟ متابعة تطورات الحكاية عن قرب إذن ورؤية أبطالها يتحركون ويتحولون، بل والقيام بدور رئيس في توجيه الأحداث والتأثير في خيارات الأبطال، هدف يستحق التضحية ببعض الوقت.

أصر الفلاحون على بقاء يوسف معهم حتى يشرب الشاي، أحضروا له مقعدا خشبا عريضا جلس عليه وبجواره المحامي، وافترشوا حوله الأرض في نصف دائرة، وأخذوا يحدثونه عن سوء نوعية التقاوي هذا العام وتسبب ذلك في مضاعفة العبء الواقع عليهم بسبب حاجة القمح لرعاية أكبر وعمل يومي، وإلا لن يكون المحصول مجديا، كذلك كلموه عن اتساع نطاق الأرض وعجز مقاول الأنفار عن توفير العمالة الكافية لمراعاتها في ظل تحويل كثير من المزارعين نشاطهم إلى الصيد في بحيرة البرلس لأنه يجلب أموالا أكثر بجهد أقل.

كان يستمع إلى كلامهم دون تعقيب، فمعلوماته عن الزراعة ضعيفة للحد الذي يجعله لا يفهم كثيرا مما يقولوه، وارتاح عندما تحول مسار الحديث وأخذوا يسردون ذكرياتهم مع مراد بك الذي أكدوا أنه ورغم شدته الظاهرة لم يظلم أحدا منهم قط، وكان يحرص على التأكد بين حين وآخر أن المقاول يمنحهم أجرتهم قبل أن يجف عرقهم، كان فخره وهو يسمع كلامهم عن أخلاق سيده وكرمه وعطفه على المحتاج والإحسان للعاملين لديه، يفوق بأضعاف فخره بتقبيلهم يده وشكره على هديته التي فاجأه بها فهمي كما فاجأهم بها، هذا إن كان ما شعر به حينها فخرا من الأساس.

انتهى من تناول الشاي وطلب من محاميه الانصراف، حاول الفلاحون إثناءه وإقناعه بالجلوس معهم وقتا أطول، لكنه اعتذر متعللا بشعوره بالإرهاق ورغبته في النوم، تمنوا له السلامة وطلبوا منه تكرار الزيارة دوريا ليستأنسوا به ويطلعوه على سير العمل، فوعدهم. في طريق العودة سأله فهمي عن رأيه في تجربة الخروج من القمقم الذي يحبس نفسه فيه، وإذا كانت مجالسة خفير جلف متغطرس أفضل أم مجالسة من يعملون في أرضه ويحفظون جميله؟

آه. طبعا. أومال ايه. أنا اتبسطت النهارده صحيح وشميت هوا جديد.

قالها من باب إرضاء محاميه فقط ومكافأته على دأبه في التخفيف عنه والتفكير في ما يسعده، لكن ما استقر في قلبه مختلف عما نطق به لسانه، فالصلف والشدة أفضل عنده من اهتمام مصطنع ومحبة مدفوعة الأجر.

انصرف فهمي ووعده بالحضور مجددا في الغد أو بعد الغد ليأخذه في جولة مماثلة يريه فيها بقية ممتلكاته في القرية، تبعه حتى باب السراي، وفكّر في الجلوس بجانب جابر لبعض الوقت، لكنه عاد وتراجع حتى يتجنب كلام الشغالين والمارة، ثم عاود التفكير مرة أخرى من منطلق أن «ماحدش له عندي حاجة»، فرفض مجددا وقال لنفسه «ما هو برضه مش لازم يبقى على طول».

أنقذه عبد المعبود السفرجي من حيرته عندما أخبره بأن الغداء جاهز وفي انتظاره، ذهب إلى المطبخ كالعادة وتناول طعامه على الأرض وسط الخدم، وقبل أن يقوم قالت له هانم:

هـو انـت ليـه مابقتـش تحـب تقعـد معانـا زي الأول يـا عـم يوسـف، ولا احنـا خـلاص ماعدنـاش قـد المقـام؟

رمقها مستنكرا وقال:

بتقـولي الـكلام ده يـا هانـم وانـا قاعـد عـلى الأرض وبـاكل معاكـم في المطبـخ؟

حاول إبراهيم تجنب غضب يوسف قائلا:

هانـم ماتقصـدش. هـي بـس نفسـها إنـك تقعـد معانـا ونتآنـس بيـك زي زمـان.

دخل عبد المعبود في الحوار:

شـهادة لله يـا عـم يوسـف. أنـا اشـتغلت في بيـوت كتـير وقليـل، إنمـا عمـري مـا لقيـت صاحـب بيـت متواضـع زيـك.

فعادت هانم من جديد وأضافت:

أنـا خايفـة بـس تكـون فيـه حاجـة زعلتـك مننـا وخلتـك تقتـصر مـن ناحيتنـا، ولا احنـا يعـني مانشـبهش جابـر الـلي بتقـضي اليـوم كلـه جنبـه.

أكلها جابـر بعينيـه، ونظـر إليهـا يوسـف بغيـظ صامـت، فانفجـرت كوثـر في صاحبتهـا:

إنـتي مالـك يـا بـت يـا هانـم عمالـة تحـدفي في دبـش كـده. هـو احنـا بنراضـوه ولا بنزعلـوه مننـا أكـتر.

ثم وجهت حديثها ليوسف:

إحنـا مـش بنغصبـك عـلى حاجـة يـا عـم يوسـف لا سـمح الله، كل واحـد ينـام عـلى الجنـب الـلي يريّحـه، إنـت كـتر خـيرك بتعاملنـا

أحسن معاملة، وسواء طلعنا ولا نزلنا فاحنا برضه خدامينك.

سادت فترة صمت طويلة توقف فيها الجميع عن الطعام ونظروا في الأرض أو لبعضهم البعض، وقام يوسف باتجاه غرفته مسترجعا أحداث اليوم التي لم تحمل له أي حدثا سعيدا، لا يشعر بأنه يفسد على نفسه الحياة، على العكس، فهو يتمنى لو يعيش سعيدًا، كل ما في الأمر أن تصوره عن السعادة مختلف، صحيح هو لا يعرفه حتى الآن، لكن الأكيد أن ما يسعده ليس في الأشياء الموجودة حوله.

-٢٨-

مـن جديـد زاره سـيده في المنـام، رآى نفسـه يسـير في منطقـة صحراويـة جـرداء ليـس فيهـا بـشر غـيره، وفجـأة رآى عجـوزا تمـلأ التجاعيـد وجهـه، يركـب فرسًـا هزيـلا تـبرز عظامـه تحـت طبقـة جلـد رقيقـة، دقـق النظـر فيـه فـإذا بـه مـراد بـك، نهـره بشـدة وقـال لـه بصـوت متحـشرج:

- سـايبني كل ده يـا قليـل الأصـل مـن غـير ما تبـص عليا ولا تشـوفني إن كنـت عـاوز حاجـة ولا لأ. إخـص عليـك وعلى اللـي جابك.

اسـتيقظ مـن نومـه مفزوعـا وتذكـر أنـه لـم يـزر قـبر مـراد منـذ وضعـه فيـه، قـام مسرعـا ارتـدى جلبابـه وهـم بالانـصراف قاصـدا القـبر بعدمـا التقـط مفتـاح الحـوش المعلـق في دولابـه، كانـت الشـمس ترسـل شـعاعها الأول، قطـع الطريـق مهـرولا حـتى وصـل أطـراف القريـة ولاحـت المقابـر في الأفـق، دخلهـا وتجـاوز مقـبرة تلـو الأخـرى محـاولا الوصـول إلى مرقـد سـيده، دخـل شـوارع وخـرج منهـا ثـم وجـد نفسـه فيهـا مـرة أخـرى كأنـه يلـف في دائـرة مفرغـة، يـرى الألـواح الرخاميـة الـتي تحمـل أسـماء سـكان المقابـر لكنهـا لمـن يجهـل القـراءة والكتابـة لا تتجـاوز كونهـا لوحـات تجريديـة، يعـرف أن لهـا معـنى مـا، لكنـه لا يعرفـه.

بعـد معانـاة طويلـة وصـل إلى مقصـده، وبعدمـا وصـل اسـتغرب تأخـره في الوصـول رغـم أنـه الحـوش الأكـبر والأفخـم والأعـلى في المقابـر، أحـس في قلبـه رهبـة انتقلـت إلى أطرافـه، فـلا اضطـراب

رجله يجعله يقف في ثبات، ولا ارتعاش يديه يمكنّه من وضع المفتاح في القفل، أنزل المفتاح بعدما فشل في تثبيت يده، أعطى ظهره للباب، أغمض عينيه وأطلق تنهيدة ساخنة استعاد بها ثباته، استدار إلى القفل مجددا ففتحه، ودفع الباب الحديد فأصدر صوتا زاد انقباض قلبه، حتى إنه قرر ألا يغلقه حتى لا يعاود إصدار الصوت نفسه مجددا.

وقف على بعد خطوة واحدة من القبر، آذته فكرة أن يكون سيده ممددا تحت قدمه، فخلع نعليه تأدبا وجلس مربعا يديه وقدميه، ثم انفجر في بكاء لا يعرف دافعه، هل هو حزن على فراق الرجل الذي كانت حياته كلها تدور حوله؟ هل إحساس بالتقصير في حقه والانشغال عنه باللاشيء؟ هل غضب منه لأنه لم يجعله صالحًا للحياة من بعده؟ أم أنها دموع العاجز عن فعل أي شيء إلا البكاء؟

كانت الرائحة القادمة من القبر لا تُحتَمل، تذكّر حين كان الرجل الذي تفوح منه هذه الرائحة النتنة لا يتحمل شم رائحة عرق طفيفة من أحد خدمه فيلهب ظهره بالعصا حتى يستحم، حين كان يخرج من غرفته ورائحة العطر تصدر منه لتملأ جنبات السراي وتصل لأنوف السائرين بجوار أسوارها، أراد الآن لو أحضر فهمي وأجبره على شم رائحة القبر وسأله بعدها، ماذا يريد منه؟ أن يلبس كمراد ويمشي كمراد ويعامل الناس كمراد؟ وإلى أين صار مراد؟ هل منحته أمواله وسطوته وشخصيته عُمرا إضافيًا؟ هل منعت انتفاخ جثته بعد الموت وحفظت جثمانه من التحلل؟

كأنه حقق انتصارا على محاميه المفوّه، نعم قد تجعل

الأموال والسلطة والنفوذ رقاب الناس تخضع إليك، لكن من قال إن ذلك يجلب السعادة؟ بالنسبة له السعادة في تعريفها المختصر هو ما يشعر به الآن، أن تجلس في حضرة من تحبهم ويحبونك ولو كانوا حفنة من تراب.

توقف عن البكاء وأخذ يتطلع في المكان الذي لم يعد في عينيه موحشا كما كان حين دخله، هبت بعض الرياح فأثارت ترابا كثيفا، قام ليبحث عن مياه يرشها على أرض الحوش ليستقر عليها التراب، التقط وعاء بلاستيكيا كان في أحد الأركان وسار حافي القدمين حتى وجد طلمبة في مدخل المقابر، ملأ منها الوعاء ثم عاد وأفرغه، لكن كمية الماء لم تغطِّ ربع أرضية الحوش، كرر ما فعله أكثر من مرة حتى هدأت الأتربة تماما وروى قصريات الزرع الذي كان على وشك الموت، زاد المكان جمالا، وشعر بسعادة لم تزره منذ وفاة سيده، لأنه شعر بأنه أسعده في قبره حين زيّنه وأعاد ترتيبه وجعله يليق بمن يسكنه.

- أنا مش كويس من بعدك يا سيدي، لا كنت عاوز ورث ولا أراضي ولا سرايات، كنت عاوزك بس تفضل معايا بس ساندني وحاميني.

قالها وهو يرى طيف مراد ماثلا أمامه ويسمعه باهتمام، حكى له عن كل ما حدث منذ غادر الدنيا، عن غرفة نومه التي يبكي كلما مر أمامها، عن زياراته المتكررة له في المنام، عن تعامل زملائه السابقين معه، وعن يونس وفرج اللذين تركا العمل لعدم قدرتهما على التعامل معه كصاحب قصر، وعن دور فهمي الكبير معه ومحاولاته الدائمة لإخراجه من عزلته، وأيضا عن الخلاف بينهما على تعريف السعادة، عن الفراش الذي لفظ

جنبه والغرفة التي لا يبرحها والخفير الجديد الذي يلازمه، وعن إحساسه بأنه عاطل وهو لا يفعل أي شيء سوى أنه يأكل وينام، عن كل شيء شغله وكل شيء أحزنه وكل شيء خذله.

وجد أبو عبده التُربي باب الحوش مفتوحا فاقترب ليعرف من بالداخل، وجد رجلا يجلس على الأرض ويحدث نفسه كالمجذوب، دخل ووقف بجواره لدقائق يحاول أن يجمع جملة مفيدة من بين كلام الغريب المتداخل وعباراته المبتورة، قبل أن ينتبه يوسف لوجوده أخيرًا، فعاجله التُربي متسائلا في حدة:

- إنت مين يا راجل انت ودخلت هنا ازاي؟

هم يوسف بالوقوف، وقال في ارتباك:

- أنا يوسف خدام المرحوم، ودخلت بالمفتاح اللي معايا علشان أزوره وأقرا له الفاتحة.

سيطرت الدهشة على الرجل واتسعت عيناه قائلا:

- إنت اللي مراد بيه كتب لك نص فلوسه؟ أهلا أهلا سعادة البيه، التُرب نوّرت.

لم تكن طريقة أبو عبده واحتفاؤه المبالغ فيه يتناسبان مع المكان الذي يقف فيه، والأهم أنه بدخوله المفاجئ قطع خلوته وأفسد عليه لحظة انسجام كان قد وصل إليها بعد عناء، فحاول إنهاء ذلك في أسرع وقت والعودة إلى ما كان عليه:

- شكرا يا حاج. أنا هاقعد شوية بس وهامشي.

- أبو عبده. اسمي أبو عبده، وأنا اللي باراعي حوش البيه.

- أومال كنت سايبه ليه التراب ماليه والزرع هيموت من قلة الميه؟

- لا أبدا هو عشان بس الجو حر والميه بتنشف بسرعة.

- إزاي؟ ده اللي يشوف الحوش يقول ماشافش ميه من ساعة المرحوم ما اندفن.

- لا والله يا بيه أنا إيدي فيه على طول. بس ليك عليا إن شاء الله كل يوم أبص عليه وأخليه على سنجة عشرة حاضر. إنت تؤمر.

- لا لا مالكش دعوة بنضافة الحوش خالص. أنا هاجي بعد كده على طول أرشه ميه وأنضفه.

أصيب التُربي بصدمة من كلام يوسف، اعتقد أنه رفض الفكرة حتى لا يدفع له أجرة إضافية، واستغرب كيف لخادم ورث كل هذا المال أن يستكثر إنفاق جنيهات قليلة على تجميل القبر ويفضل أن يقوم بذلك لتوفيرها، فقال له:

- يا بيه أنا مش بقول كده عشان الفلوس والله. أنا أنضفه من غير أي حاجة، ده البيه كان خيره على الكل برضه.

- لا انت مش فاهمني، أنا مش بانكلم على الفلوس خالص، أنا هاديك فلوس كتير وماتعملش أي حاجة، بس ماتجيبش سيرة لحد على اللي باجي أعمله هنا.

ثم أخرج من جيبه ورقة بعشرة جنيهات أعطاها لأبو عبده، الذي حاول أن يستوعب ما قاله يوسف وما يفعله، وعندما لم يفهم شيئا تذكر أن هذا الرجل كان يكلم نفسه قبل دقائق، ووصل لحل مُرضٍ بأن يتعامل معه كمخبول يملك أموالا، استأذن في الانصراف وكلما مشى خطوة التفت إلى الخادم الثري الذي عاد إلى جلسته الأولى في مواجهة القبر.

نعم عاد إلى الجلسة، لكنه لم يستطع العودة مجددا إلى الحالة التي كان عليها قبل دخول أبو عبده، لم تحضر روح مراد مجددا ولم يره جالسا على مقعده المفضل أمامه، زاد غضبه من ذلك المتطفل المنافق، كذلك بدأ يشعر بالشمس فوق رأسه مباشرة فقرر العودة إلى المنزل، ودّع البك على وعد بلقاء قريب، وأغلق باب الحوش بالقفل كما كان.

في مدخل السراي قابلته سعدية، خبطت بكفها على صدرها، وقالت:

- إيه اللي عمل في هدومك كده؟ إنت وقعت ولا إيه؟ وكنت فين من الصبح قلقتنا عليك؟

أمسك لسانه قبل أن يخبرها بأنه كان في المقابر، فقال:

- وانتي هتفتحي لي تحقيق ولا إيه؟ ما اللي اتوسخ يتوسخ ومطرح ما كنت كنت.

- طيب طيب أنا خفت عليك بس يكون حصل لك حاجة، اطلع غيّر هدومك وهات لي الجلابية دي أغسلها قبل ما البقع تمسك فيها.

هز رأسه موافقا وتحرك نحو غرفته، وفي الطريق نظر إلى ملابسه من الخلف فإذا بلونها الأصلي اختفى خلف طبقة سميكة من التراب والطين، أغلق الباب خلفه وشعر كالعادة بضيق شديد في التنفس، فتح النافذة لتجديد الهواء لكن شيئا لم يتغير، بدت أجواؤها كئيبة وجوها خانقا وأثاثها الفاخر محاولة فاشلة لتجميل القبيح، فكر في تغيير الغرفة لكنه تذكر أن كل غرف السراي تتشابه شكلا ومضمونا، والانتقال بينها ليس إلا حيلة

عاجـز لمـد فـترة تحملـه أيامـا أخـرى.

خلـع جلبابـه المتسـخ ولبـس آخـر، دخـل الحمـام فوضـع رأسـه تحـت الميـاه، وتذكـر السـعادة الـتي كان عليهـا عندمـا كان في حـوش البيـه والكآبـة الـتي حلـت عليـه منـذ عـاد إلى السراي، لا يبـدو هـذا منطقيـا لأي عاقـل لكنـه مـا حـدث، فهـواء المقابـر المحمـل برائحـة الأمـوات كان ينعـش صـدره أكـثر مـن هـذا الهـواء المحبـوس بـين حوائـط أربعـة، والبقـاء بجانـب ميـت يعـرف أن روحـه تحبـه، خـير مـن مجـاورة أحيـاء يحقـدون عليـه أو في أحسـن الأحـوال لا يشـعرون بـه.

نـزل فجلـس مجـددا بجـوار جابـر ملتزمـا الصمـت هـذه المـرة، كان يحتـاج فقـط للخـروج مـن السراي والهـروب مـن كآبتهـا ووحدتـه فيهـا، لا يرغـب في الحـكي رغـم أنـه مـا زال لديـه المزيـد ليقولـه، لكـن تأجيـل الفضفضـة لحـين مقابلـة سـيده مـرة أخـرى أولى مـن إخـراج مـا في قلبـه أمـام خفـير لا يهتـم لأمـره، ويتعامـل معـه عـلى أنـه أخـرق مضطـر لتحمـل ثرثرتـه حـتى لا يفقـد راتبـه، الغريـب أن جابـر قابـل تغـيره بتغـير مضـاد، عـرض عليه كوبـا من الشـاي للمـرة الأولى، طلـب منـه أن يسـتكمل بعـض الحكايـات السـابقة، وعندمـا وجـده زاهـدا في الحديـث، أخـذ هـو يحـكي عـن حياتـه وأسرتـه ومشـكلاته، وذكرياتـه في حمايـة المنـازل والمـزارع وشـجاعته في مواجهـة الأخطـار.

كان يوسـف يسـتمع في صمـت دون أن يعقّـب عـلى أي مـن كلام الخفـير، فيمـا يسـهب الأخـير في حكاياتـه دون ملـل أو إحـراج، غريـب هـو طبـع البـشر، باسـتثناءات قليلـة لا يقابلـون الاهتمـام باهتمـام، ويلهثـون خلـف مـن يتجاهلهـم، يفهمـون التباسـط ضعفـا والسـماجة قـوة شـخصية، ويحرمـون أنفسـهم مـن لـذة العلاقـات السـوية.

اكتفى برشفتين من الشاي وقام قاصدا المطبخ ليبحث عن شيء يأكله، إذ لم يعد يفكر في الطعام إلا بعد أن يشعر بقواه قد خارت، ويكتفي منه فقط بما يحول بينه وبين السقوط مغشيا عليه، فالأكل قبل أن يتطلب معدة أكولا، يحتاج ذهنا صافيا يرغب في التمتع بملذات الدنيا، وبالتأكيد ليس هو من تنطبق عليه هذه الشروط.

كانت أيامي الأولى وأسرتي صعبة في القرية، تشتكي أمي من صعوبة التسوق في ظل عدم وجود محلات بها خدمة التوصيل للمنازل، وعدم رغبتها في الاستعانة بنساء العائلة تجنبا لـ«الجمايل»، وتتذمر آية من كثرة الناموس الذي لا تجدي معه أي مبيدات حشرية، وكذلك ضعف شبكة الهاتف المحمول، أما أنا فأضطر لقيادة سيارتي لمسافة طويلة يوميًا من وإلى مدينة كفر الشيخ، بجانب نقص الإمكانيات والأجهزة بشدة في المستشفى بما لا يمكنني في كثير من الأحيان من أداء عملي، لكنني رغم ذلك حاولت تهوين الأمر على أمي وأختي وأكدت لهما أن الحياة ستكون صعبة في البداية، ولكن مع الوقت ستصبح أيسر وستتعودان عليها.

انتهيت من تجهيز عيادتي بمساعدة هيثم وبقية أبناء عمومتي الذين ساعدوني وكانوا بجواري في كل خطوة، أوكلت إليهم مهمة توزيع أوراق دعائية طبعتها للعيادة لتعريف الناس بموعد افتتاحها، كما استعنت بأحمد ابن عمي حسن الحاصل على دبلوم تجارة ليعمل معي في العيادة يُنظم المواعيد والحجوزات ويحصّل النقود من المرضى. سألت أعمامي وأبناءهم عن قيمة الكشف السائدة في المنطقة، فأكدوا أنها تتراوح بين ٣٠ و٤٠ جنيها، كان الرقم صادما وأخبرتهم بأن قيمة الكشف في القاهرة تتجاوز ٥ أضعاف ذلك، لكنهم قالوا:

- الناس هنا غلابة. والفلوس اللي انت شايفها قليلة دي

ماحدش بيدفعها غير لما يبقى المرض هيموّته، وبعد ما يجرب مِيت طريقة تانية وماتجيبش نتيجة.

في يوم الافتتاح كنت على موعد مع مفاجأة مذهلة، كنت جالسا مع أحمد وهيثم في مدخل العيادة حين دخل مبروك العيادة وألقى السلام، تسمرنا في أماكننا ونحن ننظر إلى بعضنا البعض ونحاول استيعاب ما يحدث، قبل أن يلقي السلام مجددا:

- سلام عليكم يا شباب. إيه مش سامعين ولا إيه؟

- وعليكم السلام ورحمة الله يا حاج مبروك. خير؟

- كل خير يا دكتور. هي مش دي عيادة برضه وافتتاحها النهارده ولا انا فهمت غلط؟

- أيوه طبعا.

- وأنا حبيت أكون أول زبون يدخلها ويكشف عندك، ولا ده يزعلك في حاجة؟

- لا يا حاج بالعكس ده مكانك. اتفضل.

أشرت إلى غرفة الكشف فسبقني إليها، ابتسمت ورفعت حاجبيّ في استغراب لأحمد وهيثم اللذين كانا يبتسمان أيضا، ثم لحقت به وأغلقت الباب خلفنا وجلست على المكتب وهو أمامي، أمسكت قلما وسألته:

- ألف سلامة يا حاج. قل لي بقى بتشتكي من إيه؟

- إنت نسيت ولا إيه يا دكتور؟ مش انا قلت لك في عزا الوالد إن القولون تاعبني؟

- فاكر طبعا. بس قصدي يعني عرفني بتشتكي من إيه بالظبط

والوجع بيكون فين وإمتى بتحس بالتعب؟

- ساعة ما اللقمة بتنزل بطني بتقوم فيها حرب، مغص وانتفاخ وتقلصات، وكشفت كذا مرة عند دكاترة في كفر الشيخ ومرتين عند دكتورين في مصر، وحتى رحت لعطارين ادوني وصفات أعشاب، لكن برضه مافيش فايدة.

- طيب اتفضل مدد على الشيزلونج واكشف لي بطنك.

بعد الكشف والفحص الدقيق عرفت أنه مصاب بالتهاب حاد ومزمن في القولون الصاعد، كتبت له العلاج اللازم وقائمة بأنواع الطعام التي عليه أن يتجنبها مثل البقوليات والدهون والتوابل، ثم طلبت منه أن يزورني مجددا بعد أسبوع لمعرفة إن كان هناك تحسن أم لا، شكرني وتمنى أن يجعل الله الشفاء على يدي، توجه ناحية الباب ثم عاد مرة أخرى، استند بيده على المقعد وقال:

- مرحب بيك في بلدنا يا دكتور. بس عاوز أقول لك على حاجة واحدة بس لو عملتها هتعيش هنا مرتاح البال.

- إيه هي؟

- ركز في شغلك وماتركزش معايا، وعلى فكرة ده عشانك مش عشاني، تركيزك معايا هيضرك انت بس، وأظن انت جربت ده بنفسك.

واصلت النظر في عينه مباشرة، فتابع:

- مش انت والمتعلمين اللي زيك بيقولوا أهل مكة أدرى بشعابها؟ أنا بقى أدرى بالبلد واللي ينفع معاها واللي ماينفعش، اللي يقعد هنا لازم يلتزم بقانوني أنا وأحكامي أنا، وانت قاعد هنا بمزاجي وعلى عيني وراسي لحد ما تخالف القانون والأحكام

دي.

قلت بتحدٍ:

- لا يا حاج. أنا قاعد هنا في بيتي وفي بلد أبويا!

رفع يده من على المقعد وأشاح بها قائلا:

- لأ بمزاجي. اوعى تكون فاكر إني مش عارف انك خليت عمك يشتري البيت باسمه علشان اتفاجئ بيك هنا ومايبقاش قدامي حيلة، اللي باع لكم البيت كان عندي بعد ما عمك كلمه بربع ساعة واستأذني يبيعهوله ولا لأ، وانا قلت له بيع، وانا عارف انه مش شاريه لنفسه ومش محتاج بيوت، وفاهم كويس إنك بعد اللي حصل في المركز حبيت تيجي هنا بقى وتواجه العمدة الشرير وتجيب مناخيره الأرض، العمدة اللي انت قاصد ماتقولّوش ياعمدة وبتقول له يا حاج، بس ده مش فارق معايا ومش هيغير حاجة.

أنا عديت موضوع شهادتك في المحضر بمزاجي عشان كنت غريب ومش عارف نظامنا، لكن بما إنك خلاص بقيت واحد من أهل البلد وبكيفك فاللي بيسري على أهل البلد هيسري عليك. ليك احترامك ٢٤ قيراط وماحدش هيتعرض لك ولا يدوس لك على طرف طول ما انت في حالك، بس لو اتحدتني تاني مش هيبقى فيها ماعلش. أنا مش بهددك لا سمح الله، أنا بس بعرفك اللي فيها علشان ابقى عملت اللي عليا وماتقولش بعد كده إني مانبهتش.

سار ناحية الباب مجددا، وهو يقول:

- يلا أشوفك بعد أسبوع بقى ان شاء الله. سلام عليكم.

لـم أرد السـلام. كنـت أفكـر جيـدا فيمـا قالـه وأحـاول فهـم شـخصيته، هـذا الرجـل يمـارس الـشر بـذكاء وهـذه مشـكلة، يعـرف جيـدا إمكاناتـه ونقـاط قوتـه ويتعامـل عـلى أساسـها، يجيـد اختيـار كلماتـه وترتيبهـا كمـا يجيـد اختيـار الوقـت المناسـب لقـول أو فعـل شيء، يحـدث كل شـخص بالطريقـة الـتي يفهمهـا، يمتلـك كاريزمـا أخـاذة بحيـث يكـون وجـوده في أي مـكان حدثـا مهمـا، يهتـم كثـيرا بالتفاصيـل، جـاءني وحـده عـلى غـير العـادة، إذ لـم أره مـن قبـل إلا محاطـا برجالـه وحواريـه، اختـار وقتـا يكـون فيـه أول زائـر للعيـادة لأن ذلـك سـيجعل مـن زيارتـه وكلماتـه ذكـرى محفـورة في رأسي، تحـرك ناحيـة البـاب بعـد انتهـاء الكشـف كأن الزيـارة انتهـت، ثـم عـاد ليقـول كلامـا مـا جـاء أصـلا إلا ليقولـه.

كل هـذا يحتـم تأخـير أي مواجهـة مبـاشرة معـه قـدر الإمـكان، حـتى لا تنتهـي بخسـارة لا يعـرف أحـد أبعادهـا، يجـب أولا أن أعـرف نقـاط القـوة الـتي يسـتند إليهـا، وسـبب سـكوت النـاس عـلى الظلـم، فالظلـم موجـود منـذ بـدء الخليقـة لكنـه يزدهـر ويتراجـع بحسـب موقـف النـاس منـه وتعاملهـم معـه. في واقعـة سرحـان مثـلا لـم يسـكت أهـالي القريـة فقـط عـلى تعذيـب أحدهـم وتلفيـق تهـم كاذبـة لـه، لكـن وصـل الأمـر إلى ذهـاب عـدد منهـم إلى المركـز متطوعـين ليشـهدوا ضـده بعكـس مـا رأتـه أعينهـم، سرحـان نفسـه شـهد عـلى نفسـه بمـا لـم يفعـل خوفـا مـن أن ينفـذ العمـدة تهديده ويهجّـر أهلـه مـن القريـة، وأهلـه تركـوه يـضر نفسـه ولـم يبذلـوا أي مجهـود لإنقـاذه إيثـارا للسـلامة.

أيـا كانـت القـوة الـتي يسـتند إليهـا مـبروك فهـي بالتأكيـد أضعـف مـن أن تُخضـع أهـل قريـة كاملـة، شـيوخا وشـبابا رجـالا ونسـاء، إلا

إذا كانوا عندهم الاستعداد لذلك. يحتاج الظالمون مصادر قوة كثيرة تؤمن ظهرهم وهم يمارسون فعل الظلم، ولكن تبقى أهم مصادر قوة أي ظالم سكوت الضحايا.

في الأيام التالية حاولت جمع معلومات من أعمامي وأولادهم عن هذا المبروك، وعرفت أن وجوده في منصب العمدة ليس وليد لحظة صدفة أو ضربة حظ، بل الموضوع أقدم من ذلك بكثير، بدأ في أواسط الخمسينات عندما كان كامل أبو سعدة، والد مبروك، يشتري أي قطعة أرض تظهر أمامه، وبينما كان كبار الملاك يفقدون مساحات شاسعة من أراضيهم بموجب قانون الإصلاح الزراعي كان هو يستثمر الأموال التي ورثها عن أبيه أشهر تاجر مواشي في المحافظة، في توسيع أرضه، وعندما تأسس الاتحاد الاشتراكي في أوائل الستينات كان من أوائل المنضمين له، وتبرع بقطعة أرض فضاء في مكان مميز بمدينة كفر الشيخ ليقيم عليها مقره الرئيس بالمحافظة.

خلال عامين فقط أصبح كامل أهم كوادر الاتحاد الاشتراكي في كفر الشيخ، ينفق ببذخ على نشاطاته ومؤتمراته، وفي المقابل يزداد نفوذه وتقوى علاقاته، حتى وصلت إلى الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا، قابله في المؤتمر العام للاتحاد بالقاهرة، سلم عليه والتقط معه صورة طبعها بالحجم الكبير وعلّقها في مدخل بيته، وأصبح يروّج في المحافظة كلها من خلال رجاله أنه مقرب من الرئيس وأنه يستشيره في كل صغيرة وكبيرة، وصدّق كثيرون هذه الرواية وباتوا يتعاملون معه بحذر بالغ ولا يرفضون له أمرًا.

وثّق والد مبروك علاقته بالأجهزة الأمنية، أصبح مدير الأمن

ومأمور المركز وحتى صغار الضباط ضيوفا دائمين على بيته، زاده ذلك هيبة ونفوذا إضافيين ساعداه كثيرا حين أراد ترشيح نفسه لانتخابات مجلس الأمة عام ١٩٦٤، دخله بسهولة بالغة ودون منافسة تقريبا، واستغل منصبه الجديد في جعل علاقاته أكثر تشعبا حتى وصلت إلى الوزراء ووكلائهم وكبار المسؤولين، صار يرشد الأمن على الشيوعيين والمعارضين الموجودين في دائرته لاعتقالهم، وفي المقابل يغض الأمن الطرف عن ابتزازه لصغار الملاك وإرهابهم لضم أرضهم إلى أرضه بثمن بخس.

في هذه الأثناء كان مبروك يشب في منزل لا يخلو من قيادات المحافظة وكبارها، وبعد أن تجاوز العاشرة بقليل صار والده يصر على حضوره كل الجلسات التي تعقد عنده في المنزل، ليتعرف على الكبار وفي نفس الوقت يشرب طريقته في التعامل مع الأمور، وكما رآه وهو يعقد الصفقات ويقيم التوازنات رآه وهو يتجاوز أزمة حل الاتحاد الاشتراكي بالحصول على عضوية سريعة في الحزب العربي الاشتراكي الذي ترأسه السادات، وينتقل مع الرئيس بعد عام واحد إلى الحزب الوطني الديمقراطي ويتحول ببراعة من الدعاية للاشتراكية إلى التهليل للانفتاح.

كان نتيجة ذلك أن أصبح من الأسماء المعروفة في الحزب، حتى إن الرئيس السادات حين زار مصنع سكر بالحامول سأل عنه بالاسم، قائلا:

- أومال كامل أبو سعدة فين؟

فجاء صوته من بعيد:

- أهو يا ريس

ثم اخترق الصفوف حتى وصل إلى السادات فصافحه ودار بينهما حديث باسم وسط دهشة الواقفين، التقط المصورون المشهد وظهر في الصحف في اليوم التالي، بينما بذل جهدا كبيرا ليصل إلى مصدر الصورة ودفع مبلغا كبيرا للمصور في مقابلها، طبعها مُكبّرة بالألون الطبيعية ووضعها في برواز أنيق وثبتها بجوار صورته مع عبد الناصر، ومن وقتها لم يعد مضطرا للتقرب إلى مسؤولي المحافظة، فقد كانوا هم من يتقربون إليه حتى يتذكرهم بكلمة طيبة أمام مسؤولي الحزب في القاهرة.

أعد أولاده مبروك وصالح ومصطفى ليرثوا نفوذه إلى جانب أمواله من بعده، لم يكن مصطفى يرغب في ذلك فقد كان يكتفي بالأمور المالية ولا يرغب في ممارسة السياسة بأي صورة، وأصبح فيما بعد أحد أهم رجال الأعمال في كفر الشيخ، وامتلك شركة مقاولات ضخمة كانت تنفذ مشروعات في مختلف محافظات الجمهورية، أما صالح ومبروك فأكملا مسيرة والدهما الذي اختار الأول ليخلفه في مقعده البرلماني من بعده، بعدما لمس فيه استعدادا لذلك يفوق مبروك، وهو ما حدث فعلا بعدما توفي كامل في منتصف التسعينات، زرع ذلك الغيرة في نفس مبروك لأنه كان يرى نفسه الأحق بالمقعد لأنه الأكبر سنا، لكنه تجاوز ذلك وأراد أن يجد لنفسه مكانا يمارس فيه نفوذه ويثبت أنه ليس أقل من شقيقه، واختار لنفسه العمودية وحصل على وعد من قيادات أمن الدولة في المحافظة بأنه سيخلف أول عمدة يترك منصبه، ولسوء حظ قريتنا كان عمدتها أول الراحلين.

يعتمد مبروك بشكل رئيسي على ٤ مصادر دعم وحماية، نائب الدائرة زكريا إبراهيم الذي فضّل التعامل معه على التعامل

مع شقيقه، ومأمور المركز العقيد سالم الشيمي، ومدير مكتب المحافظ صابر عارف، وعبد الكريم طه رئيس الوحدة المحلية لمركز ومدينة كفر الشيخ. هؤلاء يوفرون له غطاء كاملا ليفعل ما يشاء، وفي الوقت نفسه يقتلون أي شكوى ضده في مهدها، أما الثمن فهو نسبة معتبرة من أي مكسب يتسببون فيه، سواء كان أموالا أو عقارات أو قطع أرض.

من يُغضب العمدة أو يرفض له طلبا فقد عادى كل هؤلاء، وبعدها تُفتح عليه أبواب جهنم من كل اتجاه، محاضر كيدية، تحريك للديون، تأخير في الحصول على حصة الأسمدة، سحب ممتلكات للمنفعة العامة مقابل تعويضات هزيلة، محاضر غش وهمية للأبناء تكلفهم الحرمان من الامتحانات وتضيع مستقبلهم، جزاءات لا تتوقف في العمل. تمطر السماء على صاحبنا مصائب ولا تتوقف حتى يذهب إلى العمدة راكعا ويفعل له ما يريد، مع الوقت لم يعد أحد يحاول أن يخالفه أصلا، فأيا كانت الخسائر التي ستأتي من وراء تنفيذ رغباته فإنها لا تقارن بالخسائر المؤكده التي ستأتي من جراء مخالفته، وبعد كل هذه الخسائر سيحصل أيضا على ما يريده.

وكما أن لمبروك مصادر دعم خارجية فله أيضا مصادر دعم داخلية، مثل أحمد الشريف المحامي الذي يضمن إضفاء الصفة القانونية على كل مخالفاته وسرقاته، وهو بالمناسبة مهندس عملية سرحان الذي خطط ولفق الأدلة وانتقى التهم ولقّن الشهود بحيث لا تكون هناك ثغرة ينفذ منها أحد، كذلك خفره وشيخهم الذين تحولوا من مصدر لبث الطمأنينة في القرية إلى أحد أهم وسائل نشر الرعب فيها، حولهم سرحان

مـن موظفـين في الحكومـة إلي ميليشـيا لديـه، هـم مـن يحرقـون المحاصيـل لخصـوم العمـدة، ويخرجـون ملثمـين ليـلا عـلى مـن يُغضبـه فيوسـعونه ضربـا، ويحيطونـه طـوال الوقـت لحمايتـه مـن أي انتقـام محتمـل، إضافـة إلى شـيخ البلـد وبعـض أغنيـاء القريـة الذيـن يلتصقـون بـه، ليأمنـوا شره مـن ناحيـة، وينتظـروا عطاياه مـن ناحيـة أخـرى.

يبـدو الأمـر معقـدا جـدا، يجيـد الرجـل اختيـار حُماتـه، يوزعهـم بدقـة عـلى كل المفاصـل الحيويـة الـتي قـد تأتيـه منهـا الضربـات، وقبـل أن يـترك أحدهـم منصبـه يكـون قـد تعـرف عـلى صاحـب المنصـب الجديـد بتزكيـة مـن سـابقه لتبقـى السلسـلة متصلـة، وحـتى عندمـا يـأتي مـن هـو عـصي عـلى الاسـتقطاب يكـون هنـاك اتفـاق ضمـني يكـون اسـتقرار القريـة الـذي تضمنـه قـوة شـخصية عمدتهـا دافعـا لإغمـاض عينيـه عـن بعـض تجاوزاتـه.

تؤكـد الحكايـات الـتي سـمعتها أن حالـة الخنـوع الـتي عليهـا الأهالي الآن والاستسـلام الكامـل لسـلطة مـبروك، لـم تـأت إلا بعـد عـشرات المحـاولات الـتي لـم يخـرج في أيهـا مهزومـا، وبعـد ميراث طويـل مع سـلفه لـم يكـن أفضـل حـالا، لذلـك لـم يكـن الاسـتمرار في مقاومتـه إلا انتحـارا، لكـن مـا كان ينقـص هـذه المحـاولات دومـا أنهـا فرديـة وغـير متكافئـة، شـخص يرفـض الظلـم الواقـع عليـه، يجـد نفسـه في مواجهـة رجـل يمتلـك قـوة ونفـوذا خلفـه أعـوان وأتبـاع، بينمـا بـاقي أبنـاء القريـة يكتفـون بالمشـاهدة، فتـأتي الهزيمـة العنيفـة والمروعة، والمتوقعـة أيضـا.

عمـي شـحاتة رغـم كل هـذه الحكايـات كانـت لـه وجهـة نظـر أخـرى، أن شـدة مـبروك ليسـت سـيئة طـوال الوقـت، فرغـم

اختلافه معه في كثير من أفعاله فإنه كان يرى في قوة شخصيته ضمانة لاستقرار القرية والسيطرة على أهلها، تذكر الفترة السيئة التي عاشتها البلد في الأيام الأولى لتولي مبروك العمودية بعد وفاة العمدة السابق زيدان، المشاجرات بين العائلات لم تكن تتوقف على أتفه الأسباب وأسفرت في مرة عن قتيلين، السرقات انتشرت بشكل غير مسبوق حتى إن أحدا لم يكن يجرؤ على ترك بقرته وحدها في الحقول لأن هذا يعني أنه لن يجدها، المخدرات أصبحت تُباع وتُشرب نهارا في عرض الشارع، ولم يكن إبلاغ الشرطة يسفر عن أي شيء.

لجأ الأهالي إلى العمدة الجديد ليتصرف، وعدهم بأن يعيد الهدوء إلى القرية في غضون شهر بشرط ألا يسأله أحد كيف سيفعل ذلك وألا يعترض أحد على إجراء اتخذه، وافق الجميع على الفور، فسيّر الخفر ليلاً ونهارًا في الشوارع بالبنادق وكان يجوب القرية بنفسه ليتابع الأحوال، من يُضبط مُتلبسا بفعل شيء خاطئ يُسحب من قفاه إلى الدوار يُضرب ضربا مُبرحا ويوضع تحت مياه الكولدير في عز الشتاء، ويبيت ليلته على هذا الوضع ثم يعود إلى أهله في اليوم التالي. لقيت هذه الطريقة ترحيبا من الجميع، حيث أصبح ذلك عنصر ردع لمن يفكر في ارتكاب الخطأ، وفي الوقت نفسه لم يكن الموضوع يصل إلى الشرطة والنيابة والمحاكم إذا كان المخالف من أبناء القرية، وبالتالي لا يضيع مستقبله.

بمرور الوقت سيطر مبروك تماما على القرية وأصبح مجرد ذكر اسمه كافيا للردع، وكان هذا مرضيًا للناس، بعدها استخدم طريقته أحيانا في المكان الخطأ، ولكن في سبيل استقرار الأوضاع

عـلى مـا آلـت عليـه اختـاروا ألا يصطدمـوا بـه، وبمـرور الأشـهر والسـنوات أصبـح يحقـق مـن ورائهـا مكاسـب، لكنـه كان قـد أصبـح أقـوى مـن أن يواجهـوه معـه.

- يعـني انتـو جبتـوه علشـان تبطلـوا ضرب في بعـض وهـو فعـلا عمـل كـده وخلاكـم تبطلـوا تضربـوا في بعـض، بـس بقـى هـو بيضربكـم كلكـم.

قلتها لعمي وتوقعت أن يغضب مني لكنه تقبلها ورد بهدوء:

- إنـت أصلـك ماعشـتش وقتهـا. لـو شـفت الـلي كان بيحصـل في البلـد تعـرف إن الـلي بيعملـه دلوقـتي أرحـم بكتـير مـن الـلي ممكـن يحصـل لـو مابقـاش موجـود!

- لو مابقاش موجود فيه قانون موجود، فيه دولة موجودة.

- القانـون الـلي بتقـول عليـه ده سـاعات بيظلـم أكـتر مـن أي عمـدة مهمـا كان مفـتري، والدولـة دي يـا حبيـبي مـش فاضيـة تجيـب لواحـد جاموسـة اتسرقـت ولا تصالـح عيلتـين اتخانقـوا عشـان عيـل فَـسّى الكـورة للتـاني.

- فالحل بقى إننا نسيب واحد زي ده طايح في البلد كلها؟

- لأ، الحـل ناخـده بالسياسـة ونتقـي شره وندعـي ربنـا يهديـه، لأننـا لـو نسـتاهل حـد أحسـن منـه كان ربنـا جابـه لنـا.

- إنت راضي يا ابني عن الكلام ده؟

وجهـت حديـثي لهيثـم، الـذي نظـر لوالـده كأنـه يسـتأذن في الـكلام وقـال:

- مش راضي بس فاهم.

- يعني إيه؟

- يعني أكيد نفسي بلدنا دي تبقى أحسن بلد، ماحدش يتظلم فيها ولا حد يتاكل حقه، بس فاهم كل الكلام اللي أبويا بيقوله واللي هو كلام كل أهل البلد اللي دايما بيكونوا مُخيّرين بين سيئ وأسوأ، مش بين حلو ووحش، بالنسبة لهم مبروك هو سيئ يعرفوه أحسن ما يشتروا سمك في ميه ويبجي اللي بعده ألعن وأضل سبيل.

- وليه ماتحاولوش تغيروا الوضع ده وفي نفس الوقت تفكروا ازاي تخلوا الجاي مش أسوأ؟

- إنت عرفت تعمل كده في مصر؟

أصابت كلمات هيثم قلبي في مقتل، لم أستطع الرد على سؤاله لأنه لا يريد أصلا أن يعرف إجابته، هو فقط يريد أن يوقظني من غفوتي وأحلامي ويذكّرني أن الأمر لم يكن سهلا في مجتمع أكثر انفتاحا، نسبة التعليم والوعي فيه أكثر والبدائل أكثر تنوعا، وأنا لم أنس ذلك لأتذكره، كل ما في الموضوع أنني أؤمن بأن تغيير قرية صغيرة أيسر كثيرا من تغيير بلد بأكمله، ربما أكون مخطئا لكن الأمر يستحق المحاولة.

-٣٠-

بعد أسبوع بالضبط كان أحمد يخبرني بأن العمدة ينتظرني في الخارج، طلبت منه أن يجعله ينتظر لدقائق ثم سأرن له الجرس ليسمح له بالدخول، فعل ما طلبته منه ودخل العمدة منتشيا، وقفت وسلمت عليه، فقال:

- أنا عارف انك ماكنتش بتعمل حاجة وإنك سبتني برة شوية، حركة كده يعني، بس انا مسامحك علشان شكلك كده دكتور شاطر.

عجبت لأمر هذا الرجل الذي يجيد حتى قراءة الأفكار، لكنني تجاهلت الشق الأول من كلامه وقلت:

- إيه؟ العلاج ريّحك الحمد لله؟

- آه ريحني كتير. هو أنا طلع عيني على ما لقيته وبعت حد مخصوص جابه من كفر الشيخ وسعره كمان حراق حبتين، بس بجد يعني الله ينور عليك، من تالت يوم وانا حاسس بتحسن كبير.

- بس خد بالك انت لسه ماخفيتش، لسه محتاج تكمل كورس العلاج ده أسبوعين كمان، وبعدها هديك نوع برشام واحد هتاخده قبل الأكل بانتظام.

- طيب ونظام الأكل اللي انت قايل لي عليه ده هافضل ماشي عليه برضه؟

- آه طبعا زي ما اتفقنا بالظبط. تبعد خالص عن البقوليات

بأنواعها والدهون والحادق والحراق.

- أمرنا لله، ولو اني باعزّ الدهون جدا وماعرفش آكل حتة اللحمة إلا إذا عاصت إيدي، بس نستحمل شوية وخلاص لحد ما ربنا يجيب الشفا من عنده.

- تمام. قوم بقى كده علشان أبص عليك ونشوف إيه الأخبار.

لم يعد يتألم عندما أضع يدي على بطنه كما كان قبل أسبوع، كذلك تراجع الانتفاخ واختفت التقلصات تقريبا، طمأنته بأن كل شيء على ما يرام وشددت عليه ألا يخالف أيا من التعليمات أو ينسى مواعيد الدواء، فشكرني وسألني عن ثمن الكشف لأنه لم يدفع المرة الماضية، أخبرته بأن أول كشف مجانا لكنه أصر على أن يدفع، وأمام إصراره أخبرته بأن ثمن الكشف ٤٠ جنيها، فخرج أعطى أحمد ورقة بمئتي جنيه ورفض أخذ الباقي وانصرف.

بدأ المرضى يتوافدون على العيادة تدريجيا، وأصبح المشوار الطويل الذي أقطعه بين المنزل والمستشفى روتينيا ولا يزعجني، بدأت أمي أيضا تتأقلم على الوضع الجديد، عرفت أماكن التسوق، أقربها وأرخصها وأجودها وأسوأها، تبادلت الزيارات مع بعض الجيران والأقارب وأصبحت تقصد قبر أبي بانتظام، أحضرت خط إنترنت لا سلكي إلى المنزل للتغلب على مشكلة ضعف الشبكة، فأصبح تواصل آية مع خطيبها أسهل، وتجاوزت أزمتها مع الناموس بعدما اشتريت صاعقا كبيرا ووضعت سلكًا على الشبابيك، سارت الأمور للأفضل وهذا قلل شعوري بالذنب تجاههما لتسببي في تغيير نظام حياتهما في غمضة عين.

نسافر إلى القاهرة كل أسبوع لفتح الشقة وقضاء يوم مع أميرة وسحر وزوجيهما، في هذا اليوم أقابل زملائي القلائل وأشتري كل

المستلزمات التي قد لا نجدها في كفر الشيخ، مشوار مرهق لكنه ضروري حتى لا تتقطع أوصال الأسرة الصغيرة، تعمل العيادة أربعة أيام أسبوعيا ونسافر القاهرة يوما آخر، ويتبقى يومان أقضيهما مع هيثم بعد العودة من عمله، ومع أصدقائه الذين صاروا أصدقائي.

مجموعة من طلبة الجامعات والخريجين الجدد، ساعدهم الخروج من القرية والاختلاط ببيئات جديدة في توسيع مداركهم ونظرتهم للحياة بشكل أكثر نضجا من الأجيال السابقة، كنا نتحدث في كل شيء، في السياسة، في الفن والرياضة، في الحب والجنس. لا يختلفون عن الشباب الذين أقابلهم في القاهرة، يجيدون استخدام التكنولوجيا الحديثة، عندهم أصدقاء من كل أنحاء العالم، لديهم حسابات على مواقع التواصل الاجتماعي يكتبون عليها آراءهم الأكثر جرأة مما يبدون عليه في الحقيقة.

خاضوا أمامي نقاشات عديدة حاولوا فيها تفسير خضوع أهلهم لسلطة مبروك، لكنهم في الوقت نفسه لم يخفوا مخاوفهم من مناصبته العداء؛ في وجود طابور طويل من الضحايا ماثل أمامهم، بعضهم نهب مبروك أرض عائلته فعلا، وأحدهم ترك عمه القرية بعدما قرّبه منه العمدة لفترة وجعله يوقّع على شيكات بزعم مشاركته في مشروع، ثم خيّره بين السجن وبين أن يشتري بيته الكبير الواقع في مدخل القرية بتراب الفلوس، ليهدمه ويبني عليه مول المحلات الموجود الآن، وجميعهم سمعوا من أهلهم حكايات تجعلهم يفكرون ألف مرة في المجاهرة بكراهيته.

عرفوا أنني كنت في المستشفيات الميدانية خلال الأحداث التي

تلت الثورة فطلبوا مني أن أحكي لهم ذكرياتي معها، كانوا سعداء بأن بينهم واحدا قد شاهد على الطبيعة أحداثا شاهدوها هم في التليفزيون، بعدما حكيت لهم بعضا مما رأيت أصبحوا يتعاملون معي باحترام أكبر، ويتطلعون لسماع رأيي في أي خبر سياسي باعتباري أكثرهم خبرة وتجربة.

لمست فيهم حبا كبيرا للثورة ورموزها، وحزنا أكبر لعدم تمكنها من تحقيق أهدافها، طارق عبد العزيز مثلا حكى أنه نزل ميدان التحرير مرة واحدة في ذكرى الثورة الأولى، وفوجئ بمشاجرات ومشاحنات كثيرة بين المنصات الموجودة في الميدان، وانقسام المشاركين في نفس الفعالية بين أكثر من فسطاط، وحينها تأكد أن الثورة ستفشل ولم يكرر التجربة، وروى محمد أبو الخير قصة ابن خاله المقيم في القاهرة الذي أصيب في قدمه برصاصة يوم ٢٨ يناير جعلته لا يستطيع السير دون عكاز، ورغم ذلك ضربه أحد المتظاهرين في أحد المليونيات بعد الثورة بعدة أشهر واتهمه بأنه «فلول» ونزل الميدان لإحداث فتنة.

أكدت لهم أكثر من مرة استغرابي من حبهم الكبير للثورة وفي الوقت نفسه رضاهم بالعيش في قرية يحكمها عمدة متسلط لا يسلم أحد من أذاه، سمعت منهم تبريرات مختلفة وحاولوا إقناعي بأنه لا تشابه بين الحالتين ولا تعارض بين الموقفين، لكنني لم أقتنع، يقولون إنه لو نجحت الثورة في القاهرة لتخلصوا من حكم مبروك، وأقول إنهم لو تخلصوا من حكم مبروك لنجحت الثورة في القاهرة.

قررت زيارة قبر والدي الذي لم أزره منذ قدومي إلى القرية،

عدت من عملي على المقابر مباشرة، ركنت السيارة بالقرب من الشارع المؤدي إليها ثم ترجلت إلى أن وصلت القبر، وقفت أمامه في خشوع فقرأت الفاتحة وبعضا من قصار السور، نزلت دموعي وأنا أدعو الله أن يُبدله أهلا خيرا منا وأن يجمعنا به في الجنة، استرجعت كثيرا من ذكرياتنا معا ومشاركته لي في كل قرار إن لم يكن بمبادرة منه فبطلب مني، طرحت على نفسي أسئلتي المعتادة عن جدوى الحياة ما دمنا سنموت، والحكمة من لقاء الأحبة ما دمنا سنفارقهم، ولم أجد إجابة كالعادة.

نظرت كثيرا إلى القبر حتى تفرقت ملايين الخطوط وتفرقت معها الحوائط، ورأيت أبي ممدا فيه بملابس بيضاء زاهية ووجه مبتسم، على صورته الأولى قبل أن يأكل المرض جسده ويغيّر ملامحه، تخيلته يراني ويرفع يده إليّ ليحييني، فوجدت يدي تُرفع تلقائيا لرد التحية، تجمعت الخطوط من جديد ليعود الحائط حائلا بيني وبين أبي ويذكّرني أنه لم يعد موجودا، أنزلت يدي وألقيت السلام وهممت بالانصراف.

قبل أن أخرج من المقابر وقعت عيني عليه من جديد، ضريح «عبد الميت» تتجمع النساء حوله كالعادة إضافة إلى رجلين، لكن ثمة تعديلات جديدة طرأت عليه لم أرها في المرة السابقة، أضيفت إليه لوحة رخامية مكتوب عليها اسم صاحب الضريح بخط ذهبي، ودهنت حوائطه باللون الأبيض، وأحاطت بابه قماشة حريرية خضراء، وعرفت فيما بعد أن مبروك هو من تكفل بتجديده.

-٣١-

أصبح مرضاي مصدرًا دسمًا للمعلومات، اكتشفت أن جميعهم يعرفون خبر ذهابي إلى المركز وشهادتي ضد مبروك، لذلك كلما كشفت على أحدهم تطوع بالحديث معي عن ذكرياته وذكريات من يعرفهم مع العمدة، لكن أبرز تلك الحكايات كانت ما سمعته من سلطان.

كان أول من فتح مخبزا في القرية منذ نحو ١٠ سنوات، قبلها كان الأهالي يعتمدون على الخبز الذي تصنعه النساء في المنازل أو يشترونه من مخابز في قرى مجاورة، بذل مجهودا كبيرا حتى حصل على التراخيص واشترى المكان والمعدات واستقدم العمالة، وفي سبيل ذلك باع قطعة أرض كان قد ورثها عن والده، لإقامة المشروع الذي كان يرى أن القرية تحتاجه بشدة ولذلك سيكون مكسبه مضمونا.

بعد افتتاح المخبز بـ٣ سنوات أصبحت كل منازل القرية تشتري منه احتياجاتها من الخبز، وضاعفت مديرية التموين حصة الدقيق التي تمنحها له، وبدا أن رهان سلطان على مشروعه كان صحيحا، لكن ظهور العمدة قلب كل شيء رأسا على عقب. زاره في أحد الأيام بعد انتهاء مواعيد العمل وبينما كان يجمع ويعد إيراد اليوم، وضع النقود في الدرج وقام لاستقباله وأجلسه مكانه على مقعد المكتب وجلس هو على المقعد المقابل، رحب به كثيرا وهو ينتظر معرفة سبب حضوره بنفسه إلى المخبز، ففاجأه مبروك:

- بص يا سلطان من غير لف ولا دوران كتير أنا عاوز اشاركك.

- تشاركني في إيه يا حضرة العمدة؟

تطلع في أرجاء المخبز ثم نظر إلى سلطان بخبث وقال:

- وهو انت حيلتك حاجة تانية؟

- أيوه بس انا مش عاوز شريك ولا حاجة. الحمد لله مستورة ومش محتاج فلوس.

- لا ما هو أنا مش هادفع فلوس.

- كمان؟

- آه كمان.

- أومال هاشاركك ليه؟

- حماية.

- من مين؟

- من القضا المستعجل.

- بس انا ماشي قانوني في كل حاجة ومش باعمل حاجة غلط!

- ماعلش برضه الأمر مايسلمش.

قالها ثم أشار إليه ليقترب، وهمس في أذنه:

- ولاد الحرام كتير. ربنا يكفيك شرهم.

ابتعد سلطان عنه واستند على مقعده وصرف بصره عن المنطقة التي يجلس فيها مبروك وقال:

- سامحني يا عمدة. الفرن ده شقايا وتعبي ومش ممكن أفرط في شبر منه مهما حصل.

قام واستند على عصاه وأعاد هندمة ملابسه، وقال بينما

يستعد للمغادرة:

- ومالـه يـا حبيـبي. ده مالـك وانـت حـر فيـه، وانـا مـش ممكـن أغصبـك عـلى حاجـة أبـدا. سـلام عليكـم.

تجمـد سـلطان عـلى المقعـد لدقائـق وهـو يسـترجع كلام العمـدة ويفكـر في القـادم الـذي يبـدو أنـه لـن يكـون سـهلا، فالأكيـد أن مـبروك كان يتوقـع أنـه سـيرفض العـرض ويعـرف جيـدا مـا سـيفعله بعـد هـذا الرفـض، وحتمـا سـيأتيه الـرد.

جـاء الـرد، لكنـه جـاء أسرع ممـا كان يتوقـع، بعـد الزيـارة بأقـل مـن ٤٨ سـاعة فوجـئ بحملـة كبـيرة مـن مباحـث التموين قامـت بالتحفـظ عـلى المـيزان بدعـوى التأكـد مـن مطابقتـه للمواصفـات، إضافـة إلى الاسـتيلاء عـلى كل السـجلات، وأغلقـت المخـبز بالشـمع الأحمـر، وعندمـا سـافر إلى كفـر الشـيخ لاسـتطلاع الأمـر وجـد قائمـة طويلـة مـن الاتهامـات، منهـا إنتـاج خـبز ناقـص الـوزن وعـدم الاعـلان عـن مواعيـد التشـغيل وعـدم انتظـام السـجلات والغـش التجـاري واسـتخدام دقيـق منتهـي الصلاحيـة وعـدم الاحتفـاظ بمـيزان حسـاس، وبالطبـع كانـت كل الأحـراز موجـودة.

انتهـي الأمـر بتغريـم سـلطان ٢٥ ألـف جنيـه، وعندمـا أعـاد فتـح المخـبز بعـد توقفـه أسـبوعين اسـتقبل خطابـا مـن الضرائـب تتهمـه بالتهـرب، وحملـة مـن الكهربـاء تزعـم أنـه يتلاعـب في العـداد، وأخرى مـن المرافـق تصـادر «الاسـتاندات» الـتي يضـع عليهـا أقفـاص الخـبز، أدرك أنـه لـو عانـد أكـثر مـن ذلـك سـينتهي بـه الحـال مفلسـا ويضطـر لبيـع المخـبز ليسـدد فقـط الغرامـات المفروضـة عليـه.

بأنفـاس غـير منتظمـة ونفـس مكسـورة وقـف أمـام دوار العمـدة، فتحـوا لـه البـاب وأدخلـوه إلى المضيفـة حيث مـبروك يشرب الشيشـة

ويجـواره محاميـه أحمـد الشريـف، ومـا أن دخـل عليـه حـتى أطلـق ضحكـة عاليـة وقـال:

- عرفـت بقـى يـا سـلطان هاحميـك مـن إيـه؟ عـلى فكـرة نـص التهـم الـلي جـت لـك دي أقـدر أحبسـك بيهـا، بـس برضـه ماتهونـش عليـا، احنـا مهمـا كان بقينـا شركا.

- عرفت يا عمدة. اللي تشوفه.

أشار إلى محاميه الذي كانت تعلو وجهه ابتسامة عريضة وقال:

- عقد الشراكة بتاع المخبز يا أستاذ أحمد.

رد وهو يخرجه من بين أوراق أخرى كثيرة في حقيبته:

- جاهز يا عمدة وعلى الإمضا.

أمسـكه سـلطان ومـر عليـه سريعـا فوجـده بالفعـل لا ينقصـه إلا توقيعـه وكأنـه يعـرف أنـه سـيأتيه خاضعـا، كل البنـود جاهـزة ومنهـا أن نسـبة العمـدة في المخـبز ٥١٪ ونسـبته هـو ٤٩٪، وضـح الاسـتياء عـلى ملامحـه، فلاحـظ مـبروك وسـأله:

- فيه حاجة في العقد مش عاجباك ولا حاجة؟

فأجاب:

- لا مافيش حاجة. كله تمام.

كان يعـرف أن الاعـتراض لـن يجـدي شـيئا وأن العمـدة يعـرف تماما مـا يفعلـه ولـن يغـير في المكتـوب حرفـا، لذلـك وقّـع سريعـا دون أن يكمـل قـراءة بـاقي البنـود حـتى لا يجـد فيهـا شـيئا آخـر يسـيئه، ثـم أعطـى العقـد للمحامـي واسـتأذن في الانـصراف، سـلم عليـه مـبروك جالسـا وقـال لـه:

- مبروك عليك.

لم يرد وتوجه نحو الباب وهو يلمحهما بطرف عينه يتبادلان الابتسامات الشامتة، ولكن ليت الأمر توقف عند هذا الحد. بعد ذلك بشهر تقريبا أرسل العمدة خفيرا يطلب من سلطان الحضور لمقابلته في الدوار، تأكد أن هناك مصيبة جديدة في الانتظار.

- خير يا عمدة تاني؟

- بص يا سلطان. بقى أنا يا ابن الناس بصراحة ربنا كده ماليش في موضوع الشراكة ده.

حاول أن يستوعب الكلام لكنه لم يستطع فاستفسر مجددا:

- مش فاهم قصدك يا عمدة.

- قصدي إني هادفع لك تمن النص بتاعك ويبقى المخبز بتاعي أنا لوحدي، ونفضل حبايب ويا دار ما دخلك شر.

- بس ده يبقى ظلم يا عمدة انك تاكل عرقي وشقايا!

- ما هو أنا باحب كده، امسك دول.

منحه حقيبة سوداء بها أموال أقل من نصف قيمة النصف، وناوله عقد بيع ابتدائيا وقّع عليه، وأخذ الحقيبة وخرج وهو يقمع دموعا تكافح لتنزل حتى لا يخسر رجولته وكرامته بجانب مخبزه ويزيدهم شماتة على شماتتهم ، وبهذا حصل مبروك على المخبز بأقل من ربع ثمنه وحرمه من مصدر رزق عانى كثيرا حتى أوقفه على قدميه.

لم تكن سيطرة مبروك على المخبز مصيبة وحلت على رأس سلطان وحده، بل تضررت منها البلدة كلها، حيث لم يعد

المخبز ينتج سوى أقل من نصف حصة الدقيق وتباع باقي الكمية للأفران الخاصة بسعر السوق السوداء، حقق العمدة من وراء ذلك مكاسب كبيرة، وعاد كثير من أهل البلد يخبزون في بيوتهم مرة أخرى بسبب عدم كفاية الكمية الخارجة من المخبز، كما تدخل العمدة ومنع أحد أهالي القرية من الحصول على رخصة لإنشاء مخبز جديد حتى لا تتأثر حصته وتتوزع بين مخبزين.

- وانت ازاي وافقت بسهولة كده وماحاولتش تقدم شكوى ضده ولا تعمل أي حاجة تخوّفه بيها؟

قلتها لسلطان وهو ممد أمامي أكشف على معدته المعتلة، فأجاب:

- أشتكي مين يا دكتور ولا اقف قدام مين؟ اللي ممكن أشتكيه ليهم هم اللي لفقوا محاضر وبلاوي زرقا ضدي.

- بس انت كده خسرت كل حاجة!

- يشبع بالمخبز وبالدنيا، أنا مش عاوز حاجة غير إني اعيش مستور، الدنيا منفاتة يا دكتور مش مستاهلة نموّت نفسنا عليها، كل أولياء الله الصالحين ومنهم سيدي يوسف علمونا مانركزش مع الدنيا الفانية ونعمل لآخرتنا أحسن.

- تقصد سيدنا يوسف الصديق؟

- لأ. سيدي يوسف عبد الميت. اللي كان قدامه كل متع الدنيا وسابها علشان عرف إن الموت جاي جاي واننا رحنا ولا جينا عملنا فلوس أو ماعملناش ضيوف عليها.

- آآآه. عبد الميت. طيب الدوا ده بقى تاخده بعد الأكل والبرشام مرة واحدة بالليل قبل ما تنام، واشوفك زي النهارده.

-٣٢-

لم يعد تردد يوسف اليومي على المقابر سرًا، رآه أهل القرية أكثر من مرة وهو جالس في تراب الحوش، كما أصبحت حكايته المثيرة مع مقبرة مراد بك ضيفا دائما على جلسات السمر والنميمة التي يحضرها أبو عبده التُربي، وبالطبع وصل الموضوع إلى العاملين في السراي، ومنهم إلى محاميه.

وبينما كان جالسا في الحوش ذات يوم وجد فهمي يفتح باب الحوش ويدخل عليه، قام على الفور ينفض الغبار من على ملابسه في ارتباك وينظر إلى محاميه في ترقب. بدا الاستغراب على وجه فهمي الذي أخذ يطالع المكان ويتطلع إلى يوسف قبل أن يسأله:

- إنت بتعمل إيه هنا يا عم يوسف؟

- مافيش. كنت باقرا الفاتحة لمراد بيه.

- وهي الفاتحة تخليك تقعد هنا كل يوم بالساعات؟

- أديني بضيع شوية وقت يا أستاذ فهمي. ما انا قاعد في البيت لا شغلة ولا مشغلة.

- طيب ليه حتى مش بتخلي حد يجيب لك كرسي تقعد عليه بدل ما هدومك تبقى مليانة تراب كده!

- يا سيدي. منها وإليها نعود.

أطلق فهمي تنهيدة تنم عن استيائه، لاحظها يوسف فحاول تغيير مسار الحديث:

- إنما انت إيه اللي جابك هنا؟ أكيد فيه حاجة مهمة.

- رحت لك السرايا عرّفوني إنك خرجت وماقُلتش رايح فين، بس قالوا إني أكيد هالاقيك هنا.

- هم وراهم غير اللت والعجن! جاتهم الهم عالم سوّ.

- كان فيه فكرة جت في دماغي كده وقلت آخد رأيك فيها.

- خير ان شاء الله؟

- إيه رأيك تطلع الحج السنة دي؟

اتسعت عينا يوسف وبدا كأنه توقف حتى عن التنفس، طالعه فهمي منتظرا أن يرى منه أي فعل، لكن انتظاره طال، فاضطر لسؤاله:

- عم يوسف انت سمعتني؟

نظر إليه شاردا ثم قال بصوت خافت:

- وهو حد برضه يكره يزور بيت ربنا ويلمس بإيده على قبر النبي؟

- خلاص. أنا هاخلص لك كل الإجراءات وانت ابدأ استعد وجهز نفسك علشان فاضل أقل من شهر.

انتبه كأنه تذكر شيئا مفاجئا، ثم سأل:

- بس أنا هاسافر لوحدي؟

- آه أكيد.

- إزاي بس؟ ده انا لما ببعد عن السرايا خمسين متر باتوه. هاروح بلد تانية؟

- عادي، ناس في سنك وأكبر منك بكتير بيروحوا لوحدهم

ومش بيتوهوا ولا حاجة، بيكون معاكم مرشدين ملازمينكم في كل خطوة.

- لا لا أنا برضه ماعرفش اتحرك أبدا من غير ما يكون معايا حد اعرفه.

- طب والحل إيه؟

- تيجي معايا.

- مش هينفع خالص يا عم يوسف، أنا عندي شغل كتير ومانفعش أسيب المكتب الفترة الطويلة دي.

- يا أخي مكتب إيه بس وشغل إيه ودنيا إيه؟ تعالى أهو منها تبقى معايا ومنها تأدي الفريضة وينوبك الثواب.

سكت فهمي كأنه يفكر في الموضوع، بينما يوسف يترقب قراره وينتظر رده، إلى أن جاء أخيرا:

- ماشي يا عم يوسف. هاجي معاك.

تهلل وجهه ثم اقترب من محاميه وانكب على يده يقبلها وسط ذهول الأخير الذي سحبها بسرعة:

- بتعمل إيه بس يا راجل يا طيب. ده انا اللي شغال عندك وباقبض مرتبي منك.

- لا إزاي. ده معروف ودين في رقبتي مش هانساهولك أبدا.

- طيب مش يلا بقى نروح على السرايا علشان آخد بطاقتك ونبدأ في إجراءات جواز السفر بتاعك ونخلص بقية الأوراق.

- طيب استنى طيب لما اشكر الراجل.

قالها ثم التفت إلى القبر وقال:

- دايما جمايلك مغرقاني يا سعادة البيه. طول حياتك معيشني في خيرك وحتى بعد ما مت لسه عايش في خيرك وهازور بيت الله بفلوسك. ندرن عليا لأدعي لك هناك أكتر ما هادعي لنفسي. ربنا يرحمك ويغفر لك ويسامحك.

كان فهمي يتابع المشهد بأسى، يشفق على الرجل ويستغرب تركه الدنيا بملذاتها التي باتت كلها ملك يمينه، وقضاء وقته بجوار بقايا سيده، زاد اقتناعه بأن المشكلة ليست أبدا في تقبل الناس ليوسف في وضعه الجديد، لكنها في تقبل يوسف نفسه هذا الوضع، فيبدو أن الرجل سيبقى إلى الأبد ينظر إلى نفسه بوصفه خادم مراد، وهذا الطوق الملفوف حول رقبته لن يبرحها، لا لشيء إلا لكون يوسف نفسه أحرص الناس على بقائه.

سريعا أنهى كل الإجراءات واستخرج ليوسف جواز السفر، رافقه وهو يشتري ملابس الإحرام ومستلزمات الرحلة، وكان يمني نفسه بأن يرجع بعد الرحلة وقد اكتشف أن الكون أرحب من قبر مراد. الرجل نفسه كانت فرحته لا توصف، كانت الفرحة بادية على كل تصرفاته والابتسامة لا تفارق وجهه على غير العادة، وإن حافظ في الوقت نفسه على عاداته اليومية، فبعيدا عن الأيام التي كان يصطحبه فيها فهمي إلى كفر الشيخ لإنهاء الإجراءات كان يومه يتوزع بين اعتكاف في غرفته، وجلوس بجانب جابر، ورحلة إلى المقابر.

كانت الرحلة إلى الأراضي الحجازية جديدة عليه، ركب البحر للمرة الأولى، بل إن الأغرب أنه كان يراه أصلا للمرة الأولى وهو في العقد السادس من العمر، أصيب في البداية بدوار لكنه تجاوزه وبدأ يمتع عينيه بالنظر إلى هذه المساحة اللانهائية من

المياه الزرقاء، حيث لا يابسة في الأفق، ومطالعة أسراب الطيور المهاجرة، والتأمل في هذه السفينة التي تحمل أثقالا تشق بها البحر دون أن تبتلعها مياهه.

كطفل وُلد أعمى واسترد البصر فجأة أخذ ينظر بانبهار إلى كل شيء، للصحارى والجبال، للرمال الملونة، لإعلانات الشوارع، لإشارات المرور، يلاحظ فهمي ذلك فلا يحدثه ولا يقطع تأملاته، يريده أن يشبع عينيه بكل شيء، أن يتعلق بالحياة وزينتها ويدرك أنه كان مخطئا حين ظن أنه فعل كل شيء، وأن دوره الآن أن يجلس في غرفته منتظرا الموت.

- يا بخت مراد بيه. مشي في السكة دي ٣ مرات.

- مش في السكة دي بس يا عم يوسف. مراد بيه عاش حياته بالطول والعرض. جرب كل حاجة وعمل كل حاجة. سافر وراح وجه وحب واتجوز، كسب فلوس وخسر فلوس، صاحب ناس وقاطع ناس، عمل كل اللي نفسه فيه، علشان كده أكيد وهو بيموت كان راضي، لأنه ماحرمش نفسه من التجربة.

- ساعة الموت بيتساوى كل الناس يا أستاذ. لو فيه حد بيموت زعلان صحيح فهو اللي اتعلق بالدنيا وجرب حلاوتها، لأنه بيبقى عاوز يأبّد فيها ومايسيبهاش. لكن اللي زي حالاتي هو اللي هيموت فرحان لأنه ماشافش من الدنيا حاجة يتبكي عليها.

- ماتفكرش في الحاجات دي. فكر بس ازاي تستمتع بكل خطوة تمشيها في السكة دي.

هز رأسه موافقًا ثم أخرج وجهه من نافذة الحافلة ونظر إلى السماء كأنه يطلب دعمها، كان يشعر بقربه من الله أكثر من

أي وقت مضى، صحيح لم يكن ملتزما بالتعبد ومواظبا على الصلاة لكنه يحب الله ويعلم أنه أيضا يحبه، فالله أكرم من أن يقابل حبا ببغض، ثم لماذا لا يحبه الله؟ هو لم يؤذ أحدا، لم يكذب ولم يسرق ولم يزنِ، لم يأكل حراما ولم يركض وراء الدنيا ومفاتنها، لم يعترض يوما على أمر قضاه، فصبر على الفقر والضيم وفقد الأحبة وقابَل كل مصيبة شاكرا حامدا، والله حبيب كل الضعفاء والفقراء، يستعينون على الأيام بقوته وغناه، ويقبلون على لقائه مستبشرين لأنهم دفعوا ثمن جنته صبرًا.

حين وقعت عيناه على البيت الحرام بكى حتى سمعه كل من حوله، ترك جسده تُسيّره الجموع الهادرة، ووجد روحه معلقة على أسوار الكعبة، اكتشف أنها لم تكن معه أصلا بل تقيم هنا من قبل وجوده هو على الأرض، ربما ساعدت إبراهيم في رفع القواعد، وأرشدت الطير الأبابيل على فيل أبرهة، وكانت على يمين محمد وهو يثبت الحجر الأسود، لم يشعر بالرهبة التي تحدث عنها كل من زار البيت الحرام، بل على العكس شعر بسكينة وصفاء لم يشعر بهما في حياته، وربما لذلك بكى، لأن خمسين عاما ويزيد مرت من عمره قبل أن يجرب هذا الإحساس.

طوال تأدية المناسك لم يعد يشعر بوجود فهمي ولا يهتم إن كان بجانبه أو لا، وهو الذي كان يتصور أن كارثة ستحدث إذا ابتعد عن كتفه، قضى الأيام كلها في الصلاة والعبادة، وكلما سجد اجتهد في الدعاء لمراد بالرحمة وحسن المنزلة، ثم دعا لنفسه بالصبر على فراق مراد وبحسن الخاتمة، لم يشعر بحاجة إلى أي دعاء يخص الدنيا، كل ما كان يهمه أن يحسن الله

أخرته حتى لا تفسد كما فسدت دنياه. إذا أراد الجلوس اختار أحدا يقرأ القرآن بصوت مرتفع وجلس بجانبه، لو كان يندم على شيء مما فات فهو أنه لم يتعلم ليقرأ القرآن، يحلق في السماء كلما سمع آياته، كأنه يرى الله يُقرئها جبريل في مكان فسيح تحفه الملائكة ويسيطر اللون الأخضر على أجوائه، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت.

في المدينة المنورة جاهد وزاحم حتى يلمس بيده سور قبر الرسول، تشبث به حتى لا تدفعه الجموع الطامعة في مكانه بعيدا عنه، نظر من فتحاته حتى تقع عيناه على مرقده الشريف، ثم انهمرت الدموع من عينيه مجددا، طلب من النبي أن يتوسط له عند ربه ليرحمه ويغفر له زلاته وتقصيره، أن يخبر الله كم يحبه ويتمنى لقاءه وأن هذه الدنيا بما فيها ومن فيها لا تساوي عنده جناح بعوضة، أنه لا يشرك به شيئا حين يتعلق قلبه بمراد، فهو من قدّر له ذلك وهو لا يفعل شيئا سوى الرضا بقدره، فهل يمكن أن يحاسبه الله على رضاه بما قدره له؟

طلب من النبي أن ينفذ وعده، فقد سمع من خطيب الجمعة ذات يوم أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا، وأن فقراء المهاجرين أول من يشربون من حوضه، أقسم إنه لو كان موجودا في عصره لكان حتما أول المهاجرين، وهو بالفعل من الفقراء، تلك الأموال التي ورثها عن سيده لن تغير حقيقة أنه فقير وسيظل فقيرًا، لا يمكن أن تُنزع عنه هذه الصفة بسبب عدة أشهر امتلك فيها أموالا لا تخصه ولم ينفق منها سوى تكاليف زيارته. تلقى دفعة شديدة أبعدته عن السور، لكنه قبلها كان قد عبر للنبي عن أمله في ميتة سهلة وبعث جميل،

فأكثر ما يخيفه وأمثاله أن تكون آخرتهم بسوء دنياهم.

شيء واحد كان يثير استغرابه، حضور مراد معه طوال الوقت، طبيعي أن يتذكره لكن الذي يحدث أنه لا تمر ثانية دون أن يسترجع له ذكرى، أو يحكي له موقفا، أو يدعو له، كان يراه يسير إلى جانبه بملابس الإحرام ويتعكز على عصاه صاعدا جبل الرحمة، وحتى عندما كان ينام في هذه البقاع الطاهرة يحلم به. سمع كثيرًا قبل ذلك أن البعيد عن العين يبتعد تدريجيا عن القلب، وأن كل شيء يُنسى بمرور الوقت، فلماذا كلما مر وقت أطول صار حاضرا في قلبه وعقله أكثر؟ ولماذا يسيطر عليه لهذه الدرجة؟ هو لا يريد أن ينساه ولا يحاول، لكنه يريد أن يترك له بعضا من يومه دون أن يكون طرفا فيه.

- مش معايا انت خالص ياعم «يوسف».

قالها فهمي بينما هما يجمعان أغراضهما استعادا للعودة في اليوم التالي، فرد بنظرة خجولٍ أتبعها بقوله:

- آه أكيد. هو اللي ييجي الحتت الحلوة دية يهمه حد غير ربنا؟

- بس انا كنت فاكرك عجزت يا راجل بس ما شاء الله عيني عليك باردة صحتك طلعت زي الفل آهه، وكنت بتمشي أسرع مني كمان وبتتعبني في الجري وراك. أنا باقول بقى نجوزك بعد ما نرجع علشان تجدد شبابك، والحج ومن بعده العروسة ينسوك اللي بالي بالك.

- الله يجازيك يا أستاذ فهمي. جواز إيه بس يا راجل، يلا حسن الختام. شوية الصحة اللي فاضلين يا دوب على قد

المشي، ماينفعوش لحاجة أكتر من كده. وبعدين خلينا مع الله أحسن.

- ماشي. هاسكت دلوقتي بس بعد ما نرجع لينا كلام تاني ومش هسيبك غير لما تعملها.

- سيبها على الله.

سكت لثوان ثم سأله:

- هو انت كنت بتحب مراد بيه يا أستاذ فهمي؟

فوجئ بالسؤال لكنه أجاب:

- أنا كنت المحامي بتاعه سنين، وبيننا عيش وملح، ووسع عليا كتير في حياتي ورزقي. بس موضوع الحب والكره ده أنا ماليش فيه قوي. أنا قدمت له خدمات وخدت قصادها فلوس، زيك كده بالظبط، قدمت له خدمات وخدت في مقابلها فلوس أو سكن أو حماية. ماينفعش نوقف حياتنا على شخص عدا علينا كام سنة وسابنا. وقبل ما تقولي إنه ماعداش عليها كام سنة وانك فتحت عينيك عليه، فأنا برضه فتحت عيني على أبويا وكان هو مصدر حمايتي اللي مش متخيل إني أعيش من بعده، لكن الراجل أدى رسالته وعلمني وكبرني ومات، وكملت حياتي ولقيت فيها حاجات تانية حلوة تستحق نعيش عشانها، ولو الحاجات الحلوة دي سابتني برضه هادوّر على حاجات تانية حلوة. دي سنة الحياة يا عم يوسف. ناس بتيجي وناس بتروح، وبكرة احنا هنروح وناس تانية تيجي. الموضوع بسيط جدا بس انت اللي مصمم تعقده.

-٣٣-

وقف كل العاملين في مدخل السراي لاستقبال يوسف، بمجرد توقف السيارة أمام الباب أطلقت هانم زغرودة طويلة تداخلت معها زغرودة أخرى لسعدية، نزل فرج درجات السلم مسرعا وفتح الباب ليوسف وعندما نزل احتضنه بقوة:

- حمدلله على السلامة يا حاج.

- الله يسلمك يا فرج، عقبالك لما تزور المصطفى وتقف على بابه.

- يا رب يا عم يوسف يا رب.

قالها وقد بدأ في إنزال الحقائب من السيارة بمساعدة إبراهيم وعبد المعبود بعد أن جاءا وسلما بحفاوة أيضا، أما جابر فجاء وسلم بفتور ووقف يتابع المشهد دون أن يساعدهم، ثم اقترب من أذن يوسف وهمس باسما:

- أظن وحشتك القعدة معايا على الدكة. هي موجودة أهي ومستنياك.

ضحك دون أن يصدر صوتًا، وأومأ برأسه ثم دخل السراي فوجدهم قد أعدوا له وليمة ضخمة قالوا إنها للاحتفال بقدومه، وشعر بأنها احتفال بعودتهم إلى «الزَّفَر»، فعندما سافر إلى الحجاز منح فهمي كل العاملين إجازة باستثناء الخفير والجنايني، صحيح أنها كانت إجازة مدفوعة الأجر، لكن الأكيد أنهم حُرموا خلالها من الطعام الفاخر الذي أصبحوا يأكلونه يوميا منذ آلت

ملكية السراي إليه.

جلس معهم وأكل بشراهة على غير العادة، فالطريق الطويل والمجهود الذي بذله طوال رحلة الحج جعلا شهيته مفتوحة ليأكل أي شيء. فتح الحقائب وأخرج الهدايا التي أحضرها لهم من أرض النبي ووزعها، سبح ومصليات وعطور ومساويك وقطع أقمشة، طالعوها بفرح وشكروه لأنه تذكرهم، فمراد حج ٦ مرات ولم يهادهم بأي شيء، وكان يعود من الحج في كل مرة ليعاملهم أسوأ مما كان يعاملهم من قبل.

صعد غرفته ليستريح من عناء السفر، سحب فرشته كالمعتاد واستلقى على الأرض لكن النوم لم يزره، يغيّر وضعه أكثر من مرة ويستجلب النوم فلا يأتي رغم التعب الذي يعتصر عظامه. تفطن إلى سبب الأرق، قام فارتدى ملابسه ثم نزل مسرعا في طريقه لمغادرة المنزل، لمحته كوثر فسألته:

- على فين يا عم يوسف.

لم يجبها، لكن إبراهيم أجاب:

- يعني مش عارفة رايح فين؟

قطع الطريق سريعا، كانت أنفاسه تتسارع فوضع كفه على صدره ضاغطا قلبه المضطرب، حتى وصل أخيرا إلى مقصده، حيث باب الحوش، فتحه ودخل فألقى السلام على صاحب القبر وحكى له كل ما رآه في رحلته، طمأنه بأنه دعا له في الصلوات، واستغفر له بينها، ولم ينسه بعدها، وبينما هو يحكي ويحكي أحس بالتعب، فوضع جنبه على الأرض وغط في نوم عميق.

في نومه رآه مجددا، كان في كامل صحته وزينته هذه المرة، دار

بينهما حوار طويل كل ما تذكره منه أنه سأله:

- مبسوط مني يا سيدي؟

فأجابه وهو مستند على عصاه:

- مبسوط يا يوسف. بس هاتبسط أكتر لو خليتك معايا على طول وخدت بالك مني.

فتح عينيه فوجد المكان من حوله يغرق في ظلام دامس لا يكسره سوى ضوء خافت يأتي من ربع قمر، ورائحة الأموات تشوّه نسيم الليل، وأصوات الضفادع تزيد توتر الأجواء. أحس في نفسه رهبة تجاوزها سريعة، فمن بين الأكاذيب التي حاول البشر إقناع أنفسهم بها أن الأموات يُخيفون أكثر من الأحياء. أدرك أنه قضى وقتا طويلا على هذه الحال بعدما تذكر أنه هنا منذ انتصاف الشمس، قام فنفض ثيابه لإزالة أثر التراب استعدادا للرحيل، لكنه أحس بعدم الحصول على كفايته من النوم، فعاد إلى الأرض مرة أخرى وواصَل.

في الصباح أيقظته طرقات شديدة على الباب الحديد، فتح عينا واحدة فإذا به أبو عبده التُربي ومن خلفه يقف إبراهيم وعبد المعبود وهانم، قام وهو يفرك عينيه ففتح الباب وعاد سريعا ليجلس في محل نومه، كان أول الداخلين إبراهيم، عاتبه قائلا:

- إنت نايم هنا يا عم يوسف واحنا قالبين الدنيا عليك؟

- قالبين الدنيا عليا ليه ان شاء الله؟ عيل تايه؟

- مش القصد. بس انت عمرك ما بت قبل كده برة السرايا.

- اللي حصل بقى. راحت عليا نومة وماصحيتش غير دلوقتي.

قالت هانم:

- وحد ينام في التُرب برضه؟ مش خايف حاجة تلبسك؟

تجاهلها فواصل إبراهيم:

- أنا جه في دماغي في الأول نيجي ندور هنا. بس لما الوقت اتأخر قلت مش ممكن هتقعد في التُرب لحد متأخر كده. روّحت ولما رجعت السرايا الصبح بلغوني إنك مارجعتش من امبارح.

كان أبو عبده ينظر بعجب شديد لحال يوسف الذي يغطي التراب وجهه وشعره ملابسه، كأنه خارج للتو من مقبرة دُفن فيها بالخطأ، ثم سأله:

- إيه اللي عاجبك في المقابر كده يا حاج؟ ده الواحد لولا أكل العيش ولا كان حتى عدى من جنبها.

- هو انتم كلكم عاملين موضوع ليه؟ كنت جاي أزور قبر البيه وغلبني النوم وخلاص. اللي عنده كلمه بقى يوفرها لنفسه.

قالها ثم قام فنفض ملابسه وتحرك ناحية الباب، فتحركوا بعده وساروا خلفه حتى وصل السراي، وصعد ناحية غرفته مباشرة دون أن يتحدث مع أحد.

استقبلت سعدية إبراهيم وهانم قائلة:

- كان في التُرب. صح؟

هزت هانم رأسها إيجابا، فواصلت سعدية:

- أنا قلت لكم. الراجل خلاص مخه اتلحس ومابقاش نافع، وبكرة يمشي في الشارع يحدف العيال بالطوب كمان. صحيح، يدي الحلق للي بلا ودان.

ردت هانم:

- اسكتي بقى والله الراجل صعبان عليا. أكيد اللي هو فيه ده غصب عنه، انتو عارفين البيه بالنسبة له كان إيه، انتو بالنسبة لكم الموضوع كان شغل وخلاص، لكن هو مولود على إيده وعاش حياته كلها مافارقهوش ولا يوم.

- أنا قلت موضوع الحج ده هيفرق معاه ويشغله عن اللي في دماغه ده، لكن الظاهر كده مافيش فايدة.

فتحدث إبراهيم في ضيق:

- خلاص بقى فضونا من السيرة دي. كل حي ينام على الجنب اللي يريحه.

دخل فهمي من الباب فوجدهم مجتمعين ويسيطر عليهم الوجوم، سألهم:

- عم يوسف فين؟

رد إبراهيم:

- فوق في الأوضة، اطلعي يا سعدية قولي له إن الأستاذ فهمي مستنيه تحت.

لكن فهمي قاطعه:

- لا لا. أنا هاطلع له الأوضة.

لكنه أحس أن بهم شيئا غريبا، فتساءل:

- انتو مالكم كلكم كده؟ فيه إيه؟

أجابت سعدية سريعا:

- أصله بات امبارح في التُرب.

استفسر:

- مين؟

فأجابت:

- عم يوسف.

جز على أسنانه وبدا الامتعاض على ملامحه، وصعد درجات السلم سريعا، توقف أمام الغرفة التي اختارها يوسف لنفسه، أطلق تنهيدة ساخنة، ثم طرق الباب

- عاوزين إيه؟

هكذا جاء الرد، فقال:

- أنا فهمي يا عم يوسف.

فتح الباب على الفور قبل أن ينتهي من ارتداء الجلباب:

- أهلا أهلا. اتفضل. تعبت نفسك وطلعت ليه؟

- إنت صحيح نمت امبارح في المقابر؟

أكمل ارتداء جلبابه، وقال:

- كنت عارف انهم ساعة ما يشوفوك هيقولوا لك علشان يقلبوك عليا.

- ولما انت عارف إنه يزعّل بتعمله ليه بس؟

- الموضوع مش كده. أنا ماكانش قصدي أنعس هناك، أنا بس بعد ما جيت رحت أزور قبر البيه علشان كان بقى لي كتير مازرتوش، ومن كتر التعب راحت عليا نومة هناك. بس هي دي الحكاية.

- طيب وليه أصلا تبقى راجع من بيت ربنا وأرض النبي وتيجي

جري على التُّرب؟ اقعد خد نفسك وريح جسمك والقبر موجود مش هيطير.

- إنت صح وانا غلطان، ولو عاوزني أبوس إيدك كمان أبوسها، إنت مش عارف انت غالي عندي ازاي.

- أستغفر الله العظيم ماتقولش كده، أنا كل اللي يهمني مصلحتك وإنك تعيش كويس وماتخليش اللي يسوى واللي مايسواش يألّس عليك.

- بس تعرف؟ أنا مانمتش مرتاح من ساعة ما البيه مات زي ما نمت ليلة امبارح، مادريتش باللي حواليا غير لما جُم صحوني الصبح، وصحيت في نص الليل وكملت نوم تاني، يا سلاااام، كانت متعة.

هز فهمي رأسه يائسا فانتبه يوسف لتململه، ولحقه بسؤال:

- إنما انت إيه اللي جابك بسرعة كده؟ أنا قلت هتقعد كام يوم ماتجيش علشان تشوف شغلك وتقعد مع أهلك.

- علشان بافكر فيك يا سيدي، وفيه حاجة جاي آخد رأيك فيها.

- خير ان شاء الله.

- إحنا اتفقنا في الحج إننا بعد ما نرجع نشوف موضوع الجواز.

- لا ماتفقناش. إنت اللي قلت. بس انا قلت لك اني قافل الموضوع ده بالضبة والمفتاح.

واصل وكأنه لم يسمع تعقيبه:

- فيه واحدة قريبة مراتي معدية التلاتين وفايتها قطر الجواز، بس غلبانة ومنكسرة وبنت ناس كويسين ومالهاش صوت، ده غير

انها كمان شكلا مش وحشة، لما اتكلمت مع مراتي في موضوعك قالت لي انك ممكن تتجوزها وتبقى كسبت فيها ثواب وستّرتها من ناحية، ومن ناحية تانية تاخد بالها منك وتراعيك وتلاقي حد يسليك وينسيك اللي في دماغك ده، وأدينا كمان يا عم نبقى نسايب.

سكت طويلا بينما المحامي يحاول قراءة تعبيرات وجهه، ثم قال:

- ما تعفيني يا أستاذ فهمي بالله عليك من الموضوع ده. أنا راجل كبير والجواز ماعادش يلزمني، وحرام أجيب واحدة أظلمها معايا.

- طيب بالله عليك انت تبطل موضوع أنا راجل كبير ده، علشان انت صحتك ما شاء الله زي البمب، وبعدين انت دايما بتشتكي إنك حاسس بالغربة ومافيش حد قريب منك وبيحبك، ليه بقى لما تجي لك الفرصة ترفضها؟

- لا والله ما هو أنا ماعدتش بازهق زي الأول، وبقيت باخرج وبافك.

- بتفك في المقابر، صح؟

سكت مجددا، فتابع فهمي حديثه:

- بص يا عم يوسف. أنا مش شغال معاك علشان الفلوس، أنا شغال علشان بجد والله حاسس بمسؤولية ناحيتك، وعلى فكرة أنا شايل عنك بلاوي ومش باقول لك كل حاجة، اللي انت ماتعرفوش ان قرايب البيه مثلا رافعين ضدنا قضايا وعاوزين ياخدوا الفلوس، ولما موضوع التُرب ده اتعرف في البلد وصل

لهـم، وعرفـت إنهـم بيفكـروا يطعنـوا في قـواك العقليـة علشـان يبوظـوا الموضـوع مـن أساسـه، وموضـوع الجـواز ده هيفـرق كتـير لصالحنـا. خليـني أحـس إن ليـا لازمـة وباعـرف أقنعـك بالصالـح، وإلا بقـى أسـيب الشـغل معـاك واعمـل الـلي انـت شـايفه صـح لنفسـك.

أحس بحرج بالغ فقال:

- بـص يـا أسـتاذ فهمـي. أنـا مايهمنيـش الفلـوس أصـلا ولـو راحـت كلهـا مـش هازعـل لحظـة، بـس انـا هاعمـل الـلي انـت عـاوزه علشـان مـش عـاوز أزعلـك بعـد كل الـلي عملتـه معايـا.

تهلل وجه المحامي وقال:

- كـده يبقـى اتفقنـا. هارتـب معاد قريب علشـان تشـوف العروسـة، لـو عجبتـك نحـدد معـاد الفـرح ونتـوكل عـلى الله، ولـو ماعجبتكـش نشـوف غيرهـا، والبنـات عـلى قفـا مـن يشـيل.

ثم قام مستعدا للرحيل وربت على كتفه قائلا:

- مبروك يا عريس.

خـرج مـن البـاب تـاركا الرجـل كأن عـلى رأسـه طـيرًا، يشـعر بأنـه وضـع نفسـه في ورطـة بموافقتـه هـذه، لكنـه أيضـا مـا كان لـيرد طلـب الرجـل الوحيـد الـذي يقـف بجـواره ويسـدي إليـه الخدمـات تباعًـا منـذ وفـاة البيـه، ناهيـك بـأن الفتـاة الـتي يرشـحها قريبتـه ولذلـك سـيكون الرفـض مهينًـا. في الموعـد المحـدد اصطحبـه فهمـي إلى حيـث تسـكن أسرة الفتـاة في قريـة أريمـون القريبـة مـن قريتـه، جلـس مـع والدهـا الـذي يبـدو في نفـس عمـره واضعـا رأسـه في الأرض لا يعـرف مـا يمكنـه قولـه في مثـل هـذا الموقـف، دخلـت الفتـاة تحمـل الشـاي ومـن خلفهـا والدتهـا، خجـولاً هادئـة الملامـح

مقبولة الشكل، وضعت الصينية على المنضدة وألقت السلام ثم خرجت سريعا.

تعلق بصر فهمي به ليقرأ المكتوب على وجهه، وعندما التقت العينان هز له رأسه مستفهما ليعرف رأيه، فهز هو رأسه إيجابًا، ظهرت على وجه المحامي ابتسامة عريضة، ثم قال لوالد الفتاة:

- باقول لك يا حاج غيث. الحاج يوسف كان عاوز يفاتحك في موضوع كده يخص سعاد.

ضغط بيد على الأخرى ليتماسك ثم خرجت منه الحروف بصعوبة:

- إحنا ان شاء الله جايين نتقدم للمحروسة بنتك ونطلبوا إيدها، وبإذن الله ربنا يكتب لنا الخير.

انصرفا بعدما طلب الوالد مهلة للتفكير يعرف أنها مجرد مهلة صورية، لأن فهمي بالتأكيد أخبره بكل شيء. هذا يعني أنه سيتلقى الموافقة خلال أيام قليلة وسيصبح عليه أن يتعامل مع هذا الواقع، لكن لا يعرف كيف، فعلاقته بالجنس الآخر أصلا محدودة للغاية قد تصل لدرجة العدم، لا يذكر حتى إن امرأة أثارته جنسيا لأن حياته التي كانت كلها داخل السراي لم تسمح له بخوض مغامرات مع النساء ولا حتى مجرد رؤيتهن. يتذكر جيدا عندما كان في السادسة عشرة من عمره وكان الباشا الكبير يستضيف أسرة أحد أقربائه ومنهم فتاة عشرينية شديدة الجمال، اختلس بعض النظرات إليها لكن لسوء حظه رآه الباشا فقام أمسكه من أذنيه وصفعه على وجهه وأدخله إلى والده قائلا:

- علم ابنك عينه ماتتشالش من على الأرض طول ما عندنا ضيوف، ولو كان فاكر نفسه خلاص بقى راجل أنا ممكن أخصيه.

ثم خرج وتركه لوالده الذي انهال عليه ضربا ولكما وترك على جسده علامات بألوان حمراء وزقاء، ومن وقتها أصبح التفكير الجنسي عنده مرتبطا بهذه الواقعة وأصبح يصرف نظره تلقائيا عن أي فتاة زائرة، معرفته الأخرى بالنساء تقتصر على العاملات في السراي وجميعهن كن متزوجات، بجانب أن ملامحهن وأجسادهن لم تكن تشجع على التفكير فيهن جنسيا. الأمر إذن صعب من كل الاتجاهات، سن لا تسمح، خبرة تقترب من الصفر، ذكريات سلبية، وقلب يسكن المقابر.

بعد أيام حمل إليه فهمي خبر الموافقة المتوقع، وأخبره بأن عقد القران سيكون بعد ١٠ أيام، والدُخلة بعد شهر. تظاهر بالسعادة، وأخبر المحامي كل العاملين في السراي بالخبر ليجهزوها لاستقبال العروس، هنأوه وأطلقت الخادمات الزغاريد، وهو مضطر لرسم ابتسامة كاذبة على وجهه حتى لا يلحظ أحد اضطرابه. في الزيارة اليومية للمقابر أخبر سيده بكل شيء، تذكر عندما عرض عليه الزوج في الحلم فقال له: «الجواز للي في سني فضيحة»، وكأن سيده استشعر ما هو مقبل عليه وكان يحذره منه، حدّثه عن ورطته التي بات فيها، فالتراجع عن الاتفاق يجعله يخسر محاميه للأبد، وإتمامه يجلب الفضيحة ويضع في عنقه مسؤوليات هو في غنى عنها، والأهم أنه يجعل التزامه بالمجيء إلى هنا يوميا محل شك.

في اليوم الموعود جاء فهمي ليأخذه من السراي ويذهب به إلى بيت العروسة لعقد القران لكنه لم يجده، أخبره الخدم أنهم

صعـدوا إليـه صباحـا لإيقاظـه فلـم يجـدوه في غرفتـه ولا في المـنزل كلـه، اتجهـوا جميعـا نحـو المقابـر، لكنهـم لـم يجـدوه فانصرفـوا، خـرج هـو مـن خلـف مقـبرة كان يختـبئ خلفهـا لأنـه يعـرف أن أول خطـوة سيقومون بهـا هـي المجـيء إلى هنـا للبحـث عنـه، وبعـد أن غابـوا عـن الأنظـار تمامـا خـرج ففتـح بـاب الحـوش، دخلـه، وأغلـق البـاب خلفـه.

-٣٤-

- بس يا سيدي. ومن ساعتها فضل قاعد في الحوش. جاله فهمي بعدها هزأه طبعا لأنه خلّى رقبته زي السمسمة قدام أهل البنت، فقاله إنه مش عاوز حاجة من الفلوس اللي سابها له البيه، وقاله إنه بس عاوز يبني منها جامع على أول طريق التُرب، والباقي وزعه على الخدامين اللي شغالين في السرايا وقال إنهم أولى بالفلوس منه علشان يعيشوا حياتهم الجاية مرتاحين ويدعوا له، وكتب حاجات كتير باسم المحامي علشان يكافؤه على اللي عمله معاه ويعوضه عن الكسفة اللي كسفها له.

ومن ساعتها فضل زاهد وعايش في حوش البيه بيرعاه وبيسقي الزرع وبيكلم البيه كأنه قاعد قدامه، وبقى اللي يروح التُرب يعطف عليه بلقمة عيش وحتة جبنة ولا شوية قرص، لحد ما مات بعدها بـ٨ سنين واندفن في التُربة اللي انت شفتها جنب الحوش.

قالها عمي مبديا تأثره وضامّا شفتيه، فسألته:

- طيب وإيه اللي بيخلي أهل البلد متعلقين بيه كده وبيزوروا قبره وعاملينه كأنه مقام؟

- علشان زاهد وولي من أولياء الله. ساب الدنيا باللي فيها والفلوس المتلتلة اللي كانت عنده، وبعد ما عاش حياته كلها صابر على الابتلاءات والمصايب نهاها وهو مع الله.

- مع الله ولا مع مراد؟

- لا يا فالح مع الله. مع الآخرة. مراد بالنسبة له كانت حاجة بتفكره بالآخرة وبإن الدنيا فانية. وعلشان كده من ساعة ما راح الحوش عاش حياته كلها في صلاة وعبادة، وحفظ سور كتير من ترديدها ورا المقرئين اللي بيروحوا يقروا على الميتين.

- ما هو ده اللي جايب البلد دي لورا ومخلي مبروك راكبها ومدلدل رجليه، فاكرين العبودية زهد، عاملين مقام لواحد ما قدرش يعيش حياته كويس فوهبها كلها لواحد تاني وهو حي وهو ميت!

- أنا عارف انك هتقول كده، أصل جيلكم ده فاكر الحياة كلها مادة وبس، ماتعرفوش حاجة عن الروحانيات وماتفهموهاش. ماتعرفوش يعني إيه واحد يبقى عنده ولاء لواحد له فضل عليه ويفضل مخلص له حتى بعد ما يموت.

تدخل هيثم في الحوار قائلا:

- سيبك من ده كله، أنا بقى ليا عندك مفاجأة هتذهلك. إنت عارف زكريا إبراهيم نائب الدايرة اللي قلت لك قبل كده إنه بيساعد العمدة وبيغطي على كل بلاويه؟

- آه فاكره. ماله؟

- أهو ده بقى يبقى ابن إبراهيم طباخ البيه.

- إنت بتهزر؟

- لا والله زي ما باقول لك كده. بعد ما أبوه خد الحاجات اللي كتبهاله يوسف ساب البلد وراح بلد تانية جنبنا بنى بيت كبير واشترى أرض وعاش عيشة الأعيان، وابنه ورثها عنه ونجح في الانتخابات بعد ما صرف فيها فلوس مالهاش عدد. ومش هو

بس، كل ولاد الخدامين دول وأحفادهم كمان بهوات دلوقتي، منهم اللي عايش في مصر ومنهم اللي في كفر الشيخ، بس مافيهمش ولا واحد عايش هنا في البلد.

- طبعا. مش عاوزين حاجة تفكرهم بالماضي.

- الله ينور عليك.

- بس صحيح السرايا بقت بتاعة مين؟

رد عمي:

- لا مابقتش بتاعة حد. يوسف من كتر إخلاصه للبيه مارضيش يبيعها ولا يكتبها لحد، وفضلت مقفولة سنين لحد ما طلعت إشاعات إنها مسكونة بالعفاريت وبقت الناس تخاف تعدي من قدامها. وبعد ما مات يوسف بسنين الأوقاف خدتها ولسة يا دوب هدّاها من كام سنة بعد ما بقت حتت بتقع منها.

في غضون شهور أصبحت عيادتي مزدحمة بالمرضى، ذاع صيتي في القرية والقرى المجاورة كطبيب ممتاز، حتى إن مرضى كثيرين أصبحوا يأتون خصوصًا من مدينة كفر الشيخ رغم أن بها عشرات الأطباء في تخصصي، بل وطلبوا مني أيضا أن أفتح عيادة جديدة بجانب عيادتي تلك على أن أقسم الأيام بينهما، غير أني لم أحبذ فكرة ترك القرية يومين كاملين إضافة إلى اليوم الآخر الذي أقضيه في القاهرة. كنت أراقب العمدة وهو يتحرك في القرية بين خفره ورجاله مختالا، زاده ما فعله مع سرحان ثقة في نفسه وأصبح يشعر بأنه قادر على أن يفعل ما يشاء فيمن يشاء وقتما شاء.

بات تعامله مع الناس أكثر فجاجة وعُدوانية من ذي قبل، كان

يسير في أحد الشوارع حين رأى فلاحًا يمتطي حمارًا ويمر بالقرب منه، أمر خفره فأنزلوه عن الحمار وجاءوا به إليه، مسكه من قفاه وقرّب رأسه منه وقال:

- لما تعدي من قدام العمدة من باب الاحترام إنك تنزل من على حمارك وماتعديش قدامه راكبه.

- بس يا حضرة العمدة احنا طول عمرنا بنركب حميرنا قدامك عادي وعمرك ما طلبت مننا طلب زي ده.

- وأديني باطلب آهو. ومش انت بس، أهل البلد كلهم لازم يعرفوا كده، اللي يكون راكب حمار ويشوفني ينزل من عليه، واللي راكب عجلة أو موتسيكل برضه ينزل من عليه لحد ما أعدي أو هو يعدي، ولما مايبقاش شايفني خالص يبقى يركب الحمار الحمار يركبه هم أحرار مع بعض.

كتم الفلاح غيظه لأن إظهاره مخاطرة غير مأمونة العواقب، ثم ابتلعه وقال:

- اللي تشوفه يا عمدة.

أثارت هذه الواقعة استياء الناس وأحسوا بأن جنون العظمة تمكن من مبروك، لكنهم رغم ذلك التزموا بتعليماته وأصبحوا بالفعل يترجلون متى رأوه، زوار العيادة لم يعد لهم حديث سوى أفعاله، الغريب أنهم كانوا يشتكون فقط دون أي تفكير في تغيير الوضع، وأنا كنت أسمع فقط دون أن أصارحهم بما في نفسي تجاههم قبل أن يكون تجاهه. يوسف عبد الميت أيضا كان ضيفا دائما على العيادة، سيرته تأتي على لسان كثير من المرضى كلما بحثوا عن شيء يبرر استسلامهم لهذا الوضع،

يعتبرونه ابتلاء كابتلاء يوسف، ويمكن التغلب عليه بالزهد في الدنيا كما فعل هو.

أصبحت لقاءاتي بأصدقائي في العيادة في غير أوقات عملها دورية ومتكررة، يزيد المشاركون مرة تلو الأخرى، تحولت إلى ما يشبه ملتقى شبابي يجمع كل شباب القرية المتعلمين، وهم بخلاف أهلهم كانوا لا يشتكون فقط من جنون مبروك بل يفكرون في طريقة يواجهونه به، وتؤلمهم إهاناته المتكررة لآبائهم وأقاربهم.

لكن المواجهة أيضا لم تكن سهلة ولا واضحة المعالم، فالرجل فعلا يملك نفوذا كبيرا يقوّي قلبه، ويملك إلى جانب النفوذ مساحات كبيرة من الأراضي تتجاوز نصف المساحة الكلية لأراضي القرية، وهي مصدر الرزق الأول لمئات الأسر ممن يعملون فيها أو يستأجرونها منه، كما لا يرغب السواد الأعظم من الأهالي في المخاطرة بمعاداته أو الدخول في خصومة معه، وهذا يجعل يد الشباب مغلولة لأنهم لا يستطيعون فعل شيء وحدهم.

- إيه رأيكم نعمل صفحة على فيس بوك نعرف الناس فيها بقصة سرحان؟ ودي ممكن تسمّع برة دايرتنا الصغيرة بتاعة البلد، زائد إن مش سهل يتعرف مين اللي عاملها.

اقترح وليد الطالب بالفرقة الرابعة بكلية الهندسة علينا ذلك في اليوم التالي لصدور حكم ضد سرحان بالحكم المشدد عشر سنوات، لاقت الفكرة استحسان الجميع وذكّرتهم ببدايات صفحة «كلنا خالد سعيد» قبل الثورة، وإن كان بالطبع هناك اختلاف كبير بين الحالتين. في نفس الجلسة أخرج وليد هاتفه المحمول وأنشأ الصفحة بالاسم الذي توافقنا عليه «حق سرحان»، وكتبنا

فيها قصته كاملة وما فعله العمدة به وتلفيق اتهامات باطلة إليه بمشاركة وصمت من جهات مسؤولة، وإجباره على الاعتراف بها بعد تهديده بأهله.

اتفقنا على ألا نقوم بمشاركة أي شيء من الصفحة على صفحاتنا الشخصية حتى لا نلفت نظر مبروك، وأرسلناها إلى أصدقائنا في العمل والدراسة لكي يبدأوا بنشرها على صفحاتهم، كما أرسلناها لعدد من النشطاء الذين تحظى صفحاتهم بمتابعة كبيرة ونشرها بعضهم بالفعل، وخلال أيام حظيت الصفحة بآلاف الإعجابات والمشاركات والتعليقات، وبدأت حملات للتضامن مع سرحان باعتباره رمزا للظلم اليومي الواقع على الفقراء والمجهولين.

انتظرنا بشغف ردود الأفعال من جانب العمدة، لكن أول رد فعل جاء من النائب زكريا، تقدم بطلبات إحاطة في البرلمان لوزراء الاتصالات والداخلية والعدل، يستنكر فيها السماح لصفحات مشبوهة بالإساءة لجهات التحقيق واتهامها بالتلفيق دون دليل، وزعزعة ثقة المواطنين في منظومة العدالة، وطلب من وزارة الاتصالات سرعة التحرك لتحديد المسؤولين عن الصفحة، ومن الداخلية القبض عليهم لمحاسبتهم على هذه الأكاذيب، وزعم أنه حضر هذه القضية من أول يوم لأنها حدثت في دائرته، ويعرف كل تفاصيلها ويثق تماما في أن كل إجراءاتها اتُخذت بشفافية وحياد.

أثار ذلك توتر الأصدقاء، شعروا بأنهم قد وقعوا في خطر حقيقي وقد يلحقون بسرحان في زنزانة مجاورة بدلا من أن يخرجوه، واقترح محمود وهو طبيب بيطري شاب التحق بجلساتنا مؤخرا إغلاق الصفحة، لكن الجميع رفض ذلك لأنه

سيؤكد مزاعم زكريا وفي نفس الوقت لن يمنع الوصول للمسؤولين عنها. وليد كان الأكثر هدوءا رغم أنه من أنشأ الصفحة من على هاتفه الشخصي، أكد أن الأمر سيتوقف عند هذه النقطة ولن يتم اتخاذ أي إجراء بعدها لأن مطالب النائب ليست جادة ولا حقيقية، هو أراد فقط أن يخلق توازن رعب ليكون الناس أمام روايتين ومع الوقت تتوه الحقائق وتتداخل الشهادات، وإمعانا في إثبات وجهة نظره أخرج هاتفه وكتب منشورا جديدا كذّب فيه رواية زكريا وقال إنه لم يكن موجودا في كفر الشيخ كلها في الأيام الثلاثة الأولى لحدوث الواقعة، ودخل على صفحته وأخرج صورا نشرها النائب لنفسه من داخل المجلس خلال هذه الأيام.

مرت الأيام تباعا دون أن يحدث أي تطور جديد، فلا أحد تحرك لإعادة التحقيق في قضية سرحان، ولا أحد تحرك لمعرفة القائمين على الصفحة كما طلب النائب، وفتر اهتمام الناس بالقضية مع الوقت، وانشغلت مواقع التواصل الاجتماعي بأشياء أخرى في السياسة والرياضة والفن، تسبب ذلك في إحباط شديد للأصدقاء الذين تحمسوا بشدة عندما رأوا رد الفعل الكبير في البداية. من جانبي حاولت التهوين عليهم بالتأكيد على أنها معركة طويلة الخصم فيها ليس سهلا، وبأنهم خرجوا بمكاسب كبيرة من هذه القضية أهمها أن الناس عرفوا اسم القرية وعمدتها وما حدث فيها، لذلك سيفكر مبروك كثيرا قبل أن يفعل شيئا كالذي فعله مع سرحان لأنه سيتم الربط وقتها بين الحادثتين، وهو ذكي وسيدرك ذلك جيدا.

-٣٥-

بعد أسبوع قضيته في القاهرة، للاحتفال بزواج آية، عدت وأمي إلى القرية لأجد خبرا سيئا في انتظاري، سيارة مسرعة صدمت وليد بعد نزوله من سيارة الميكروباص على مدخل القرية، تم نقله إلى المستشفى مصابًا بكسور وجروح عديدة ثم عاد بعد ثلاثة أيام إلى المنزل، عاتبت هيثم بشدة لأنه لم يبلغني بما حدث، فقال إنه لم يرد إفساد فرحتي بزواج أختي. ذهبنا معا لزيارته في منزله فقابلهنا بابتسامة عريضة دون أن يقدر على القيام من فراشه، احتضنته بشدة ثم جلست على المقعد المجاور له وسألته:

- إيه اللي حصل يا وليد؟

رد ضاحكا:

- زي ما انت شايف، اتروقت.

- هو طبعا اللي وراها.

- ممكن، وممكن قضاء وقدر.

- قضاء وقدر ازاي يعني؟ اشمعنى دلوقتي وانت بالذات؟

- في كل الأحوال كويس انها جت على قد كده. أي نعم رجلي اليمين بايظة وكلها شرايح ومسامير وهبقى الباشمهندس الأعرج، بس على الأقل أديني لسه عايش.

- يعني هنسكت؟

- وفي إيدينا إيه نعمله؟ هنعمل صفحة تانية نسميها «حق وليد»؟

- لأ، بس على الأقل نحاول نرد له القلم بحاجة توجعه.

- مش هينفع نحارب لوحدنا يا دكتور، مش هينفع نعرض حياتنا كلنا للخطر علشان ناس مش فارق معاها اللي بيحصل وعارفين يكيفوا حياتهم عليه.

- لأ، إنت عارف كويس إنهم متضايقين، بس عندهم مِيت سبب يخليهم يرضوا باللي هم فيه أو يخافوا يحاولوا يغيروه.

قاطعني هيثم:

- خلاص بقى يا خالد. زي ابويا ما قال لك، مش بطولة انك تقف قدام قطر.

- ولا بطولة إنك تبقى شايفه جاي عليك وتفضل واقف، مش هتعرف تنقذ نفسك إلا إذا اتحركت.

- بالظبط، يعني تجري منه.

- مهما جريت منه هو أسرع منك، إنت عارف كويس انه ماكانش بيفتري قبل كده على الناس علشان محتاج فلوسهم ولا أرضهم، هو بيعمل كده لأنكم لما جريتوا عليه علشان يحميكم من بعض وسكتّوا على ظلمه لناس منكم عجبته اللعبة وبقى بيظلم لمجرد الظلم، وعلشان يستمتع وهو بيمارس سلطته عليكم، وأخطر حاجة لما السلطة والمال يبقوا في إيد شخص واحد.

- طيب والحل إيه؟

- نحرر الناس من خوفهم منه لأن كل ما خوفهم بيزيد كل ما

جنانه كمان بيزيد، نعرّفهم إن يوسف عبد الميت مش ولي ولا زاهد، ده واحد كان عبد غصب عنه، ويوم ما لقى فرصة يتحرر ويبقى سيد، رجع بمحض إرادته واختار يكون عبد لشوية تراب.

- وهتعرفهم ده ازاي؟

سكت لأني فعلا لم أكن أعرف كيف يمكن أن نفعل ذلك، فعاد وليد ليشارك في الحوار وقال:

- صعب يا دكتور، صعب جدا، على الأقل دلوقتي.

- إيه يا ابني انت اتعديت من هيثم؟ ده انت كنت أكتر واحد متفائل فينا.

- وأديني خدت جزائي. أصلهم في بلدنا ممكن يسامحوا القاتل، لكن مستحيل يسامحوا المتفائل.

هززت رأسي في ضيق، فتابع وليد:

- مش باقول انه مش هيحصل، مِيّة في المِيّة هيحصل، لأن الوضع ده مستحيل يكمل، بس أكيد مش دلوقتي

سلّمت عليه واستأذنته في الانصراف وخرجت مع هيثم، فقابلنا عمّي عاطف في الطريق:

- شفتوا الراجل المجنون؟

- مبروك؟

- وهو فيه غيره؟

- ماله تاني عمل ايه؟

- سحب الأراضي من كل الناس اللي مأجر لهم وسرّح كل الفلاحين اللي شغالين عنده باليومية وهيجيب عمالة من برة

البلـد.

- وازاي يسحب أراضي مأجرها لناس؟ مش المفروض فيه عقد؟

- لا يـا حبيـبي ماحـدش يسـتجري يطلـب مـن مـبروك عقـد إيجـار، هـو بيأجـر الأرض بكلمـه، ودلوقـتي سـحبها بكلمـة، والنـاس كلهـا هتتجـنن مـش عارفـة تعمـل إيـه.

- وليه كل ده؟

- قـال لهـم أصـل انـا وحـش ومـش بحترمكـم، روحـوا بقـى لحـد حلـو يحترمكـم ولا أكلـوا ولادكـم احـترام، فـكل الفلاحـين راحـوا لـه وقعـدوا يبوسـوا في إيـده ورجلـه عشـان مايقطعـش عيشـهم ويقولـوا فيـه شـعر كأنـه عمـر بـن الخطـاب، وقالـوا لـه الـلي يقـول عليـك كلمـة وحشـة نقطـع لسـانه.

نظر هيثم إليّ ضاحكا وقال:

- خللي بالك بقى من لسانك الفترة الجاية.

أشحت له بيدي ثم واصل حديثه إلى عمه:

- والبيه بقى عمل إيه؟ عفى عنهم ولا لسه؟

- قـال لهـم هابقـى ارد عليكـم خـلال أسـبوع. عـاوز يأدبهـم ويـدوس بجزمتـه عـلى رقبتهـم أكـتر وأكـتر. إنـت رايـح فـين كـده؟ مـا تيجـي تـشرب معايـا الشـاي.

- لا ماعلـش يـا عمـي، بقـى الي كتـير مافتحتـش العيـادة وعنـدي كـذا حجـز النهـارده.

- ماشي يا ابني، ربنا يقويك.

انـصرف عمـي، ثـم تركـني هيثـم أيضـا لقضـاء بعـض المشـاوير،

وذهبت إلى العيادة التي كان بها عدد من المرضى. دخلت غرفة الكشف وأدخَل أحمد المريض الأول، وبعدها بخمس دقائق سمعت صوت فوضى بالخارج، ثم اقتحم الغرفة ضابط برتبة رائد ومعه عدد من العساكر طلب منهم تفتيش الغرفة، سألته عن السبب فقال إنهم تلقوا بلاغا ضده ومعهم إذن نيابة بالتفتيش.

خرج جميع المرضى من العيادة باستثناء المريض الذي أكشف عليه بناء على طلب الضابط، استخرج العساكر من الدولاب كمية كبيرة من الأقراص والأمبولات المخدرة وضعها الضابط على المكتب وسألني: إيه ده يا دكتور؟ وقبل أن أجيب سمعت صوت طرقات على باب العيادة، ودخل مبروك متسائلا ببراءة:

- خير يا دكتور فيه إيه؟ خير يا حضرة الظابط؟

- لقينا عند الدكتور مخدرات يا عمدة.

- مخدرات؟ ده كلام برضه يا دكتور؟ يعني بدل ما تعالج الناس تإذيهم؟ لا لا مايصحش خالص والله.

تابعت الحوار مبتسما، ثم أمر الضابط العساكر والمريض بالخروج وإغلاق الباب خلفهم:

- طلباتك يا عمدة.

قلتها وأنا محافظ على هدوئي وابتسامتي، فرد مبروك ضاحكا:

- ياه أخيرا قلتها وماعدتش بتقول لي يا حاج؟ بس والله طالعة من بقك زي السكر.

ثم صمت لثوان ليزيل بقايا الضحك من على وجهه، واستكمل:

- امشي، امشي يا دكتور، ارجع مطرح ما جيت.

- ليه؟

- وده سؤال برضه يا راجل؟ احنا كان بيننا اتفاق وانت خالفته، جمعت لي شباب البلد وعملت لي العيادة مجلس قيادة الثورة وكنت عاوز تإذيني في موضوع سرحان وعملت لي صفحة على النت، مع إني شرحت لك الموضوع مرة واتنين وعرّفتك ده حصل ليه. أظن بقى مش هاستنى لما تطربق البلد على دماغي ومن حقي أدافع عن نفسي.

- بس معلوماتك غلط. مش أنا اللي عملت الصفحة.

- لا ما انا عارف كويس مين اللي عملها، ربنا يشفيه بقى ويقوّمه بالسلامة، بس اتعملت هنا عندك وانت خططت الموضوع وبعته لكذا مكان علشان يتنشر، أصل كان فيه اتنين من حبايبي معاكم في القعدة دي وعرّفوني كل واحد قال إيه وعمل إيه وهرش كام مرة ولا مؤاخذة هرش فين، ما هو أنا ليا حبايب برضه من سنكم، أومال إيه، لازم أشجع الشباب. بس انا طلعت أحسن منك، وباديك فرصة تختار أهو، تسيب البلد في ظرف أسبوع وتروح لحال سبيلك الله يسهل لك، أو حضرة الظابط يكمل إجراءاته وياخدك معاه؟ أظن دي فيها شطب من النقابة وسجن وبهدلة. فيها كام سنة دي يا حضرة الظابط؟

- لو قاضي حنين هيديله ٧ سنين بس.

- هيه يا سيد الناس، اخترت إيه؟

نظرت إلى الظابط ثم إليه، وقلت:

- إنت عارف يا عمدة اخترت إيه.

- الله ينور عليك، ده كلام العقل، سيبني أنا وأهل البلد نتصرف مع بعض، أنا راضي وهم راضيين، ماتبقاش حشري انت بقى وتحط مناخيرك في اللي مالكش فيه.

أشرت إلى الأقراص والأمبولات، ووجّهت حديثي للضابط:

- طب والبلاغ والحاجات دي يا باشا هتعملوا فيها إيه؟

استبق مبروك رد الضابط وقال:

- بلاغ كيدي. حد غيران منك وحب يشوشر على العيادة. أما الحاجات دي فهاخدها دلوقتي وأطلع بيها في شنطة ويا دار ما دخلك شر.

- بس كان فيه عيان حضر كل حاجة

- لا ماتقلقش، ده تبعنا.

قالها ثم ضحك هو والضابط، وقبل أن يهما بالانصراف التفت لي وقال:

- أسبوع يا دكتور، أنا مش محتاج آخد منك ضمانات، اللي شفته مني أكبر ضمانة إنك مش هتخلف وعدك المرة دي.

أشرت برأسي إيجابا، وقبل أن يخرج سألته:

- مش هتقول لي مين اللي حط الحاجة دي هنا.

التفت مجددا وأجاب:

- مش هاقول لك، بس هنصحك نصيحة تكمل بيها حياتك. ماتديش ضهرك لأي حد، حتى لو كان بياكل معاك في طبق واحد.

-٣٦-

أخبرت أمي بأمر عودتنا إلى القاهرة، غضبت بشدة من استخفافي بها واتخاذي قرارات دون الرجوع إليها، كأنها إحدى حقائبي، تركتها تنفس عن غضبها المستحق لأني أعرف أنها في النهاية ستفعل ما طلبته منها، لم أخبر أحدا بما حدث، حتى هيثم عندما سألني عن أمر اقتحام العيادة أخبرته بأنه كان بلاغا كيديا من مجهول بأني أعمل دون ترخيص وانتهى الأمر، لم أرغب في أن أكون سببا آخر لمزيد من الخوف في قلوبهم، فشلت في مساعدتهم على التخلص من عمدتهم المجنون لكنني على الأقل جمعتهم وأثرت في أذهانهم أفكارا ما زارتهم قبلا، حتما ستتحول هذه الأفكار يوما ما إلى واقع بتبدل الظروف أو بتغير الجيل، وستطوي القرية صفحة مبروك آجلا أو عاجلا، فلن يكون عمدة قرية صغيرة بكفر الشيخ أعز على التاريخ من هتلر وجنكيز خان.

أبلغت أعمامي وأصدقائي بأمر عودتي إلى القاهرة، أرجعته لمشكلات عائلية تخص إخوتي البنات تستدعي بقائي بجانبهن، رفضت اقتراح عمي ببيع البيت والاستفادة بثمنه، كنت على يقين بأنني سأعود إليه في زيارات دورية وسأستقر فيه بعد أن تعود البلد ملكا لأهلها وتنتهي هذه الحقبة السوداء.

طلبت أمي أن تزور قبر أبي قبل أن نسافر، تركتها تقرأ وردها أمام القبر وسرت حتى وصلت إلى قبر عبد الميت، توقفت أمامه وتحدثت إليه:

- إنت مدرك انت عملت في البلد دي إيه؟ خليت بلد كاملة فاكرة إن العبودية زهد. لأ، العبودية ضعف، إنت ضعيف، ماقدرتش تصدق إن المكان اللي كنت بتتضرب وتتهان فيه بقى بتاعك، حنيت للماضي وللذل واخترت تقضي أيامك الأخيرة متهان والناس بتعطف عليك، مع إن كان في إيدك تعيش عزيز لحد آخر يوم في عمرك.

اقتربت من باب الضريح ونزعت القماشة الحريرية الخضراء التي تطوّق بابه ودست عليها بقدمي، ثم نظرت إلى باب القبر مجددا وقلت:

- إنت مش ولي، إنت عبيط.

عدنا إلى البيت لوضع حقائبنا في السيارة فوجدت هيثم وأصدقاءه في انتظاري، أدخلت أمي ووقفت معهم بجوار مدخل العيادة، عاتبوني على السفر المفاجئ وأكدوا أنهم سيشتاقون لجلساتنا ونقاشاتنا، وسينتظرون زياراتي بين الحين والآخر لعقدها، طلبت منهم ألا يربطوا ذلك بشخصي، وأن يفعلوا ذلك في بيت أي واحد منهم لأجل مستقبلهم، وحتى لا يأتي أبناؤهم ويستنكروا صمتهم، كما يستنكرون هم صمت آبائهم الآن.

تحدثوا كثيرا عن مبروك وقالوا إن أحوال القرية لن تتغير ما دام هو فيها، أكدوا أن يومه اقترب وأن طريقته الأخيرة ستؤلب الناس ضده وتكتب نهايته، ساءني أنهم ما زالوا لم يحددوا معركتهم الحقيقية بعد كل ذلك، فنظرت إليهم وقلت:

- عدوّكم مش العمدة. عدوّكم عبد الميت.

تامر أبو عرب

العَبْد

رواية

نعم، تقدر هذه الأوراق السحرية الملونة على فعل أي شيء، أن تصبح ممحاة تمسح بها صفحات كاملة في تاريخك، وقلمًا تكتب به في هذه الصفحات ما شئت، إنك سليل عائلة تركية عريقة، تاجر قادم من الشام، رحالة اكتشفت جزرا وقارات، مناضل قديم ضد الاحتلال، اكتب ما شئت وسيصدقك الجميع ما دمت تمتلك المال، ومن لم يصدقك لن يجرؤ على تكذيبك، قد يستغرق الأمر بعض الوقت، قد تجد في البداية بعض جيوب المقاومة، لكنه سيحدث لا محالة، فأنت في بلد يعتبر أهله النسيان نعمة هربًا من دفع ضريبة المعرفة.

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

9 789778 200058